فلسفة

18.2.2022

تريستان غارسيا

الحياة المكثّفة

هوس الإنسان الحديث



ترجمة

صلاح بن عيّاد

تريستان غارسيا

الحياة المكثّفة
هوس الحداثة

ترجمة

صلاح بن عيّاد

الحياة المكثّفة
هوس الحداثة

تريستان غارسيا

هـذا الكتـاب صـادر عـن مشـروع «مـدّ» للترجمـة الـذي تقـوم عليـه دار أدب للنشـر والتوزيـع ضمـن مبـادرة إثـراء المحتـوى إحـدى مبـادرات مركـز الملـك عبـد العزيـز الثقافي العالمي (إثراء)

هذه الترجمة هي الترجمة العربية عن الفرنسية لكتاب:

La Vie intense
Une obsession moderne

Tristan Garcia

تنشر هذه الترجمة عن النسخة الأصلية للكتاب:

بموجب اتفاق حصري مع:

Autrement.

الآراء الواردة في الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

ح دار أدب للنشر والتوزيع، ١٤٤٢ هـ

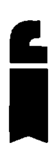
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

غارسيا، تريسان.
الحياة المكثفة: هوس الحداثة. / تريسان غارسيا؛ صلاح بن عياد - ط١ - الرياض، ١٤٤٢هـ
٢٩٦ ص ؛ ٢١ * ١٤ سم
ردمك: ٠ -٢ -٩١٦١٨- ٦٠٣- ٩٧٨

١ - الحداثة - فلسفة أ. بن عياد، صلاح (مترجم)
ب. العنوان
ديوي ١٤٦ ١٤٤٢ / ٩٠٢٥

رقم الإيداع: ٩٠٢٥ / ١٤٤٢
ردمك: ٠ -٢ -٩١٦١٨- ٦٠٣- ٩٧٨

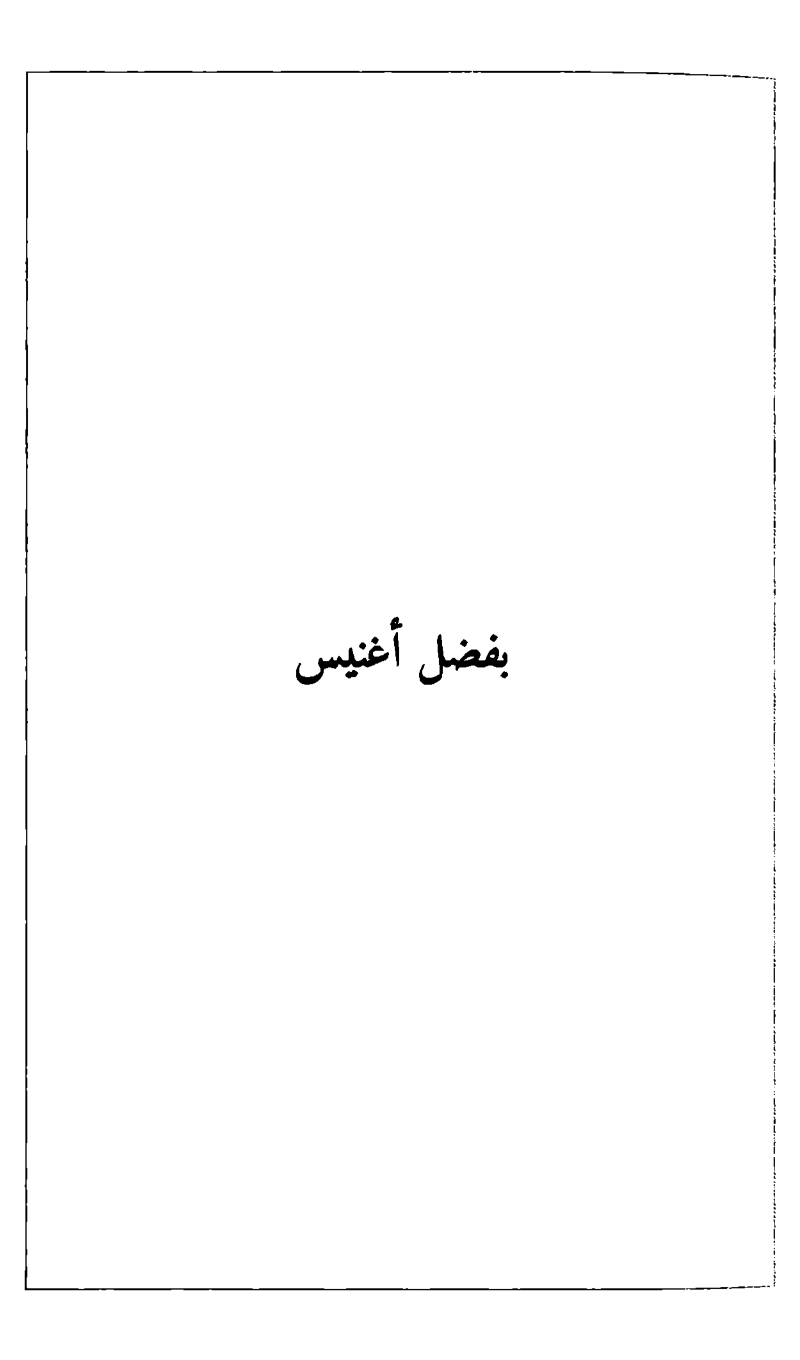
الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ = ٢٠٢١م



info@adab.com adab.com @adab

المملكة العربية السعودية-الرياض

المحتويات



بفضل أغنيس

مقدّمة

عادة ما تنتظرنا وعود بالكثافة. فنحن نُولَد ونكبر في غمرة البحث عن الإثارة الّتي من شأنها تبرير حياتنا. هي مشاعر محكومة بالاستعراضات الرّياضيّة المُثيرة، بالمخدّرات، بالكحول، بالقمار، بالإغواء، بالحبّ، بالنّشوة الجنسيّة، بالفرح أو بالألم الجسديّ، بالتّأمّل أو بالإبداع الفنّيّ، بالبحث العلميّ، بالإيمان العميق أو بالالتزام الشّديد، يمكن لكلّ هذه المُنبّهات المُفاجئة أنْ توقظنا من عمق الرّتابة وتنتزعنا من التّلقائيّة ومن التّمتمات الدّائرة في دواخلنا ومن التّفاهة الوجوديّة أيضا. هذا لأنّ نوعا من الاستئصال الجَذريّ لا يكفّ عن تهديد الإنسان المقيم في جوّ من الرّفاهيّة. كان هذا الخدَرُ قديما حكرا على الحاكم المُترف والمُتخم وحده وعلى ملوك كُسالى مشغولين ببحث محموم عن سبل التّرفيه، منذ «نيرون[1]» و«كاليغولا[2]»

---

(١) نيرون (٣٧ م –٦٨ م)، خامس امبراطور لروما وآخرهم من السّلالة اليوليوكلوديّة وهو معروف ببلاهته الشّديدة وميله إلى العربدة.

(٢) كاليغولا (١٢م –٤١م)، وهو عمّ نيرون – يعني اسمه حرفيّا «حذاء =

إلى غزاة نائمين فيما يُسمّى «ابتهاجات كابّوا» les délices de Capoue[1]: فالتّناقض الّذي هدّد الإنسان المتفوّق هو أنّه شَعَر في غمرة انتصاره وتحقيق كلّ رغباته وأهدافه، بالتّحرّر من الكثافة الوجوديّة، ومن تشنّج الأعصاب، ففقد بذلك الإحساس الغامض الذي يخوّل للكائن الحيّ تقييم كثافة وجوده الخاصّة بإيجابيّة.

مع ازدهار الغرْب اقتصاديًّا، وبسبب ازدياد عدد الأفراد المُشبعين غذائيًّا والمُؤمّنين سكنيّا ومن لديهم وقتٌ كاف للاستمتاع، تمّتْ دمقرطة خوف المنتصر ليَنتقل إلى الأفراد المُعاصرين المهوُوسين بالإشباع المُتنامي لرغباتهم. لذلكَ أصبحَ بَنُو الإنسان في حاجة ماسّة إلى تهدئة مشاعر الحياة

= الجنود الصّغير» أمّا اسمه الحقيقيّ فهو «غايوس قيصر» وقد عُرِف بقساوته وقوّة شخصيّته. وقد انتهى حكمه باغتياله بعد مؤامرة قام بها ضابط من الحرس الخاصّ وأعضاء مجلس الشّيوخ.

(١) ابتهاجات كابوا: كابوا المدينة الواقعة في جنوب إيطاليا، والّتي استقبلت القائد القرطاجي حنّبعل سنة ٢١٢ ق.م في حين كان ينتظر المدّ شمال إفريقيا. لكنّ المدينة سرعان ما تمّت محاصرتها من طرف الرّومانيّين ليتمّ توجيه الخيانة العظمى لسكّانها ولحنّبعل لأنّه استغل الأمر «لينام في ابتهاجات كابوا».

الحقيقيّة الّتي عادة ما ينسبونها إلى أولئك الّذين يقاتلون ويصمدون في خضمّ ظروفهم القاسية. أمّا عندما يضيع شعور التّيقّظ العصبيّ عندهم أو يوشكُ على الضّياع فإنّهم يسارعون إلى إلحاقه بقوّة داخليّة غامضة لا حدّ لكثافتها ولا يمكن تحديدها بدقّة، إلاّ أنّها تُدرك بالحدس الّذي يحدّد درجة انخراط الإنسان في كلّ ما يشعر به. يُمكننا -كمتفرّجين من الخارج على الأقلّ - أن نفهم إذا ما كان المرء يمتلك كلّ ما يحتاج إليه، إذا ما كانت حياته سهلة أو شاقّة، حتّى إنّه بات من السّهل علينا التّأكّد إن كان سعيدًا أو تعيسًا. لكن لا أحد يقدر على التّسلّل إلى قلب الآخر حتّى يُحدّد بدلًا منه إذا ما كان يعيش حياته بعمق أم لا. إنّ هذا ما لا نستطيع انتزاعه من ذاتيّته: فهو حصن الكائن الحصين. ثمّة ما يمكن أن يحدث لنا في نظر الآخرين، وثمّة في المقابل ذلك المقياس الحميم أو العدّاد الدّاخليّ لكلّ ما نشعر به تجاه أنفسنا: ها هنا فقط تكمن الكثافة. طبعًا، ظللنا لوقت طويل قادرين على معرفة ذلك انطلاقًا من علامات فيزيولوجيّة physiologique محدّدة، علامات خاصّة ننتبه إليها تمامًا مثلما تفعل مختلف أنواعِ الثّدييّات الأخرى: من قبيلِ التّنفّس المتسارع وطرقات

القلب والقشعريرة والرِّعْدَةِ وحُمرة الخدّيْن واتسّاع الحدقتيْن والحماسة المُتزايدة- وعند ارتفاع الأدرينالين adrénaline. ثمّـةَ أيضًا تلك الأعجوبة الّتي قد نسـمّيها «درجةَ تأثيرِ النّفس فـي النّفس»، الّتي لا تسـمح بانخفاض الإثارة الجسـديّة. إنّه الشّـعور بـأن تتماهـى تقريبًا مع مـا أنت عليه: التّصوّر نفسـه، اللّحظـة نفسـها، اللّقـاء نفسـه وهـذه الأمـور كلُّهـا - ونحـن متأكّـدون مـن ذلـك - مُبرْهَنـةٌ بقـوّة متفاوتـة. ليـس محتوى التّجربـة وحده ما يصنع كثافتها: باسـتطاعة لحظة بلا خطورة في ظاهرها أو إيماءة مُكرَّرةٍ ألف مرّة أو تفصيل أليف مرتسم على الوجه أن يطفوَ فجأة وأن يجعلنا نشـعر بما يشبه الصّعقة الكهربائيّـة. تضعنـا هـذه الصّدمـة مباشـرة فـي كثافـة الحيـاة الحقيقيّة وتُخرِجُنا من مستنقعات الرّوتين الرّاكدة الّتي كنّا قد غرقنا فيها دون أن ننتبه. مع أنّنا قد نكون غير مكترثين بِلَحظة طـال انتظارها، بخبر سـعيد، بمشـهد دراميّ رهيـب أو بعمل فنّـيّ فريـد. لمـاذا؟ لأنّه، لا يوجـد رابط دقيق وراسـخ بين ما نفعلـه بالخبرة في معناها العامّ وكثافة خبراتنا الشّـخصيّة. إنّ صَعْـقَ كياننا الّـذي يُتيح بلوغ لحظة واقعة في ذروة مشـاعرِنا الحياتيّة، يبقى أمرًا غير منتظم. فمنذ ولادتنا إلى لحظة موتنا،

نتطوّر وفق التّغيُّر الّذي قد يطرأ على تلك الشُّحُناتِ الّتي نترقّبها ونخشاها في آن، تلك الّتي نحاول إثارتها عندما تنقصنا، كما باستطاعة كلّ فرد منّا أن يجد سبيلًا لتقييم سَعَتِها وتردّدها. كما تعدنا التّكنولوجيا بقياس ودراسة تنوّع الكثافة بفضل الإحصائيّات أو على الأقلّ بقياس ودراسة آثارها الفيزيولوجيّة. يُعزّز التّسويق الأخير للأساور الإلكترونيّة المتّصلة الّتي تسمح للفرد بمراقبة ذروة توتّره ومعدّل نبضات قلبه ونوعيّة نومه في الوقت الفعليّ للسّبات، نوعًا معيّنًا من الإنسان المعاصر، الإنسانِ القارئ الّذي يسعى دائمًا إلى فكّ شفراتِ التغيّرات في كينونته. كأنّنا مطالبون بالتّحكّم في تطوّر كثافة حياتنا في ذهابها وإيابها مثل عربة صغيرة انطلقت في حلقة أفعوانيّة في إحدى مدن الملاهي. يمكن لذلك الشّعور المحموم الّذي يختلف باختلاف الشّخص وباختلاف اهتماماته أن يعاوِدَ الظّهور في لحظة نختار خلالها رهان البوكر أو عند مكالمة هاتفيّة طارئة أو عند الفوز بلعبة على النّتْ أو لحظة الاندفاع بسرعة جنونيّة في طريق خالية أو عند القفز بالحبل أو عند التّداعي الحرّ من المُرتفعات أو عند القفز من أعلى الجُرف في الماء أو عند العثور على طريق

ملائم للتّسلّق أو حتّى عند الصّيد أو صعود خشبة المسرح بمعدة معقودة من فرط الرّهبة، يمكن أن يعتمل داخلنا هذا الشّعور نفسه عندما نخرق توصيات السّلامة أو القوانين وعندما نجتمع مع رفاق لنا لنغرق في مناقشة حماسيّة تدور حول التّمرّد أو عندما ننزل إلى الشّوارع لمواجهة الشّرطة أو عندما نكون على موعد مع مقاتلة شعبيّة أمام حشد من الأنصار في المقابل سيراودنا الشّعور نفسه عند قراءتنا -ونحن مُمدّدون- سلسلة من القصص أدْمَنّا عليها والّتي تضمّنت في غلافها الخلفيّ إعلانًا عن حدوث صدمةٍ غير مسبوقة، وعند تزايد مشاهدتنا لأفلام مُغرقة في الدّمويّة، وعند استهلاكنا للمشروبات المُنشّطة، وعند الاستمناء، وعندما نجد أنفسنا عالقين بأحداث متواترة صدفة، أو عندما نقع في الحبّ، وعندما نحاول السّيطرة على حياتنا الخاصّة مع فَتْحِ المجالِ لكلّ المفارقات حتّى نتحرّر أخيرًا من ضبْطِ أنفسنا. ربّما تكوّن في داخل كلّ واحد منّا نوع من الأدوات - البدائيّة في البداية لتتحسّن شيئًا فشيئًا بعد ذلك - لقياس درجة كثافة حياتنا الّتي يدخل تنوّعها ضمن حساباتنا ومصالحنا؛ إنّنا مُتعقّلون على شرط أن نجرّب كلّ شيء

وبشكلٍ مُستمرٍّ ووفق الطّلب أيضًا، وأن نجرّب كثافة كافية تُشعرنا بأنّنا على قيد الحياة في النّهاية.

فَهِمَ المجتمع اللّيبراليّ الغربيّ منذ زمن بعيد أنّه يخاطب هذا النّوع من الأفراد. وها هو يعدنا اليوم بأن نتحوّل إلى: أناس مكثّفين، أو بدقّة أكثر إلى أناس يتلخّص معناهم الوجوديّ في احتدام كلّ الوظائف الحيويّة لديهم. لم يعد المجتمع الحديث يعد الأفراد بحياة أخرى أو بمجد في عالم آخر، إنّه يكتفي بما نحن عليه - مع شيء من الإضافة والتّحسين. نحنُ أجساد حيّة، نشعر بالنّشوة والحزن ونحبّ -ونحن في مرمى عواصف من عواطف- نسعى إلى إشباع رغباتنا، نريد اكتشاف أنفسنا وكلّ ما يحيط بنا، نطمح أن نعيش أحرارًا، أن نعيش بسلام. وبناء على ذلك فإنّ أفضل ما قُدّم لنا هو ازدياد ممكنات أجسادنا وتكثيف ملذّاتنا وحبّنا ومشاعرنا، وهو أيضًا الاستجابة الدّائمة والمتزايدة لاحتياجاتنا ومعرفة أفضل لأنفسنا وللعالم هو النّموّ والنّماء، هو تسارع الوتيرة والمزيد من الحرّية والسّلام الأعمق أيضًا. ها هنا تكمن الصّيغة نفسها المتعلّقة بكلّ الوعود الحديثة الّتي لم نعد نعرف تمامًا إذا ما كان علينا تصديق فكرة: تكثيف

الإنتاج والاستهلاك والاتّصال، وتكثيف تصوّراتنا وحتّى تحرّرنا. لقد قمنا على مدى عدة قرون بتقمّص نوع من البشر: أناس مدرّبين على البحث عن التّكثيف بدلا من التّجاوز، تمامًا كما كان يفعل أناسٌ آخرون في عصور خالية وثقافات مغايرة.

تعلّمنا منذ نعومة أظافرنا أن نريد أو نرغب في المزيد من الشّيء ذاته. كما تعلّمنا في الوقت نفسه - ويا للمفارقة - أن نترقّب التّنويع والتّجديد. وفي كلتا الحالتيْن، هم يعلّموننا ألّا ننتظر أيّ شيء مطلق وأبديّ أو كامل، إنّ كلّ ما يشجّعوننا على اعتباره من ضمن أمانينا، هو تضخيم كلّ كياننا.

لا وجود لشيء مجرّد في عمق هذه المعادلة: إذ هي في النّهاية وضعيّتنا الأكثر واقعيّة وبساطة. يكفي أن نصغي لِلْكلمات الموجّهة إلينا يوميًّا من خلال ما نستهلك من بضائع. إنّ أدنى اقتراح للمتعة في عالمنا المعاصر إنّما هو وعد بالكثافة: فما الدّعاية إلاّ تعبير من تعابير تلك الانفعالات النّاتجة عن الإثارة. ليس ما يُباع لنا مجرّد إشباع حاجيّاتنا بل هو أيضًا وجهة نظر ناتجة عن إدراك متعاظم ونموّ قابل للتّحديد وبالغ القيمة في آنٍ لما نسمّيه المتعة الحسّيّة.

فالشّوكولاتة (ذات الكثافة الّتي تبلغ ٨٦٪) والكحول (انظر كثافة الفودكا مثلًا)، الآيس كريم (الماغنوم المكثّف)، النّكهات والشّذى، العطور الّتي لها « درجة الكثافة» نفسها، هكذا صرنا نعبّر عن تجاربنا ولحظاتنا ووجودنا بلغة إنجليزيّة دخيلة لا تكفّ عن التّفاقم، حتّى أنّنا صرنا نطلق صفة «الكثافة» هذه على أيّ شخص متميّز. نطلقها أيضًا على كلّ ما نستهلك من تلك الأشياء القويّة والمباغتة والأصليّة. قد يذهب في ظنّ البعض أنَّ الكثافة نابعة من مفردات شائعة تنتمي إلى عالم التّجارة. الأمر ليس هكذا تمامًا. إذ إنّ لهذه المفردة أيضًا أثرها المُدهش على كلّ الأفراد ما يجعلها مُتَبادلةً بين كلّ المعسكرات. للأعداء الإيديولوجيّين الّذين يتصادمون على مسرح عصرنا هذا الأنموذج المشترك نفسه على الأقلّ: البحث عن كثافة وجوديّة ما. سواء كانوا ليبراليّين أو من أتباع مذهبِ اللّذة hédonisme[١] أو ثوريّين أو أصوليّين فإنّهم لا يتعارضون - ربّما - إلا على معنى تلك الكثافة الّتي يحتاجها وجودنا. يبيع المجتمع الاستهلاكيّ

(١) مذهب اللّذة «الهيدونيّة» Hédonisme: مدرسة فكريّة تُسمّى أيضا «مذهب المتعة» وتعتبر المتعة هي القيمة الجوهريّة للوجود.

وثقافـة «المتعـة» كثافـة الحيـاة، حتّـى الأكثـر راديكاليّـة ممّن يعارضون هذه النّظرة يعدون بالكثافة هم أيضًا، بكثافة لا تقاس هـذه المرّة، لا تباع ولا تشـترى، بل بملحـق روحانيّ لن يقدر المجتمـع المـادّيّ علـى توفيره للأفراد. قامـت البطولة الثّوريّة الّتـي طالمـا عارضـت الكـون التّجـاريّ على مـا تعتبـره كثافةَ «الحيـاة الحـقّ»، فـي مواجهـة الإحصـاء الأنانـيّ للأجسـاد والأرواح. وإنّ الشّـعر والأغنية والأصـوات الصّادحة بالتّمرّد والخطب النّقديّة الرنّانة الّتي سعت كلّها إلى التّرويج لأشكال حياتيّة مغايرة قد اشـتركت كلّها فـي إلقاء اللّوم على الحضارة الرّأسماليّة، حضارة الإحصاء الكونيّ، وذلك لعجزها الواضح عن خلق تجربة ذاتيّة فيها ما يكفي من الكثافة كي تكون مطلوبة وقابلة للمشـاركة. في مقابل العـروض الوهميّة لتجارب قويّة ومربحة، برز نوع من «الذّبذبات» (ذبذبات الهيبيز[1] والرّاستا[2])

---

(١) الهيبيز Hippies، ظاهرة اجتماعيّة شبابيّة، نشأت في الولايات المتّحدة الأمريكيّة في ستّينات القرن العشرين وانتشرت في باقي الدّول الغربيّة الأخرى، وهي حركة مناهضة للقيم الرّأسماليّة وتدعو إلى عالم تسوده الحرّيّة والمسـاواة والحبّ والسّـلام، يتميّز المنتمون إلى هذه الحركة بإطالة الشّعر والملابس المهلهلة والفضفاضة.

(٢) الرّاسـتا أو الرّاسـتافاريّة Rastas: ديانـة إبراهيميّـة تمّ اسـتعادتها في =

les vibes hippies et rastas أو من «النّيران المتغيّرة» الشّعرية. إنّ انتقاد الحياة الغربيّة الطبيعيّة الّتي تحمل كثافة وجوديّة متدنيّة هو أمر شائع منذ رامبو[١] إلى الحركة السّرياليّة، منذ ثورو[٢] إلى حركة الهيبيز، منذ إيفان إيليتش[٣] إلى كلّ حركة تمرّد لاحقة. عادة ما يتمّ تبرير كلّ سلوك عنيف و«منحرفٍ» قائم على أساس عرقيّ أو إرهابيّ، بالتّشوّه الرّوحيّ الغامض الّذي يصيب المجتمع الاستهلاكيَّ العاجز عن تزويد شبابه بكثافة حياتيّة محفزة بما يكفي. إنّنا نفترض بأنّ الشّباب الّذين توجّهوا لممارسة «الجهاد» قد أداروا

= جمايكا في ثلاثينات القرن العشرين وتحوّلت إلى حركة اجتماعيّة، لها تفسيرها الخاصّ للكتاب المقدّس، تؤمن بإله واحد (جاه أو ياه) وهو يسكن في داخل كلّ فرد. من عاداتهم: الموسيقى والغناء وتدخين القنّب.

(١) آرثر رامبو (١٨٥٤-١٨٩١)، شاعر فرنسيّ يوصف دائما على بأنّه واحد من المتمرّدين والمتحرّرين من كلّ الأخلاق والعادات.

(٢) هنري ديفيد ثورو (١٨١٧-١٨٦٢) كاتب وشاعر وفيلسوف أمريكي، ميّال للحياة البسيطة والطّبيعة، معروف بمقالته الشّهيرة «عصيان مدني» وكان يدعو دائمًا إلى عصيان الدّولة المدنيّة الظّالمة.

(٣) إيفان إيليتش (١٩٢٦-٢٠٠٢)، فيلسوف كرواتيّ - نمساويّ وكاهن كاثوليكيّ يُعتبر من أبرز نقّاد الحضارة الغربيّة الحديثة.

ظهورهم لمجتمع كئيب وبلا ملامح واضحة، مجتمع يفتقر إلى كلّ إبهار وجوديّ كي يعرضه عليهم. هكذا لا تكون الكثافة المثاليّة تابعة للعالم اللّيبراليّ فقط، بل لأعدائه أيضًا. فالكثافة كقيمة وجوديّة عُليا هي أفضل ما يجمع بيننا وما يمكن مقاسمتها: فهي الوضعيّة الإنسانيّة الموروثة الّتي تمثّل ربّما عمق الحداثة. بمجرّد طرح هذه الوضعيّة المشتركة، فإنّ أولئك الّذين يتحدّثون باسم المجتمع الليبراليّ والّذين يعارضونه سيتجادلون حتمًا حول ما ينبغي أن يكون «مكثّفًا»: هل هو تلبيةٌ لحاجاتي أم التزامي اللامشروط بعمق فكرة ما؟

لكن، وفي كلتا الحالتيْن، ما هي هذه الكثافة الدّاخليّة الغريبة الّتي يعدنا بها الجميع؟ هي الشّعور بأنّها ليست حياة أيّ كان. إنّه الاقتناع، حتّى وإن كان اقتناعًا عابرًا، بأنّي حقًّا محور كلّ ما أعيش. لو لم أكن متأكدًا في النّهاية بأني أحمل شيئًا لا أعرف ماهيّته ولكنّني أعرف أنّه خاصّ بي وحدي، فإنّ أيّ شخص آخر بإمكانه أن يعيش حياتي، كما بإمكاني أن أعيش حياة أيّ شخصٍ آخر. يمكن الاستغناء عن الجميع أو استبدالهم. فمن الخارج، تتشابه الحيَوَاتُ كلُّها. لكنّ ما يجعلها تختلف هو ذاك اليقين الدّاخليّ الّذي يملك قوّة لا

يمكن لأحد أن يقيسـها غيري. إنّه ذلك اليقين الّذي لا ينتمي إلاّ إلـيّ وهم يريدون كشـفه من خلال المواعـظ أو الدّروس المتعلّقة بمشاعر الحياة الحقيقيّة.

مـا هـي كثافـة أحاسيسـي؟ هي مـا لا أسـتطيع تفسـيرها للآخريـن، الأمـر الـذي يضمـن لـي علـى الأقـلّ أن تكـون أحاسيسـي ملكًا لي وحـدي. وإنّ ميزة هذه الكثافة تكمن في عـدم القدرة علـى اختزالها، الأمـر الذي يعطيهـا أهمّية كبيرة ويحيطها بهالة من الغموض والبداهة في الوقت نفسه: ندرك عبـر الكثافة فقط ما لا يمكـن إدراكه، وعبرها فقط نقدّر ما لا يمكن تقديره ونقيّم ما لا يمكن تقييمه. فالكثافة ترفض العمل الحسابيّ غير أنّها في الوقت نفسه تسمح بتقدير حجمها على المستوى الذاتيّ.

عندمـا كانـت الحداثـة تسـعى إلـى ترشـيد المعـارف والمنتوجـات والمبادلات، وإلى عقلنـة الواقع، ووضع خطّة للتّكافـؤ بيـن كلّ الأشـياء القابلـة للتّبـادل في السّـوق، حلّت الكثافة بوصفهـا نوعًا من التّعويض كي تحدّد القيمَ الإيطيقيّة (الأخلاقيّـة) الأكثر رفعة لكلّ من يقاوم هذه العقلنة [المبالغ فيها]: ليست الكثافة لاعقلانيّةً تمامًا لكنّها لا تسمح باختزالها

إلى الأوجه العقلانيّة مثل الموضوعيّة والهويّة والتّوزّع داخل الفضاء والعدد والكميّة. هكذا تحوّلت الكثافة شيئًا فشيئًا إلى معبد للذّاتيّة والاختلاف والاستمراريّة وإلى كلّ ما لا يمكن عدّه وإلى نقاوة للجودة أيضًا.

أمّا في المجال الجماليّ والأخلاقيّ وحتّى السّياسيّ فقد مثّلت الكثافة قيَمَ المقاومة والتّعبير عن كلّ ما يبدو متفرّدًا. كما مثّلت السّمة الفريدة لمشاعر النّشوة أو التّجارب المبهرة المتناقصة مع كلّ تجزئة وتعرية تطرأ على كينونة العالم بمنطق الآلة الحاسبة والتّصنيف والتّغْيِير. من هنا صارت الكثافة نفسها معياريّة: معيار لمقارنة تطال كلّ شيء لا عبر مقارنته بشيء آخر بل بمقارنته بنفسه- في علاقته بنفسه. إنّنا نحاول من خلال قياسنا لكلّ أنواع الكثافة الّتي نشهدها في حياتنا اليوميّة أن نقتصر على قيمة ذواتنا الّتي تعبّر عنها كلّ الأشياء المحيطة بنا. ها هنا يكمن مبدأ هذا النّوع من البشريّة الّذي يتمسّك بالكثافة كقيمة وجوديّة. ومن هنا، لنا أن نسأل عَن الأجمل الّذي سيعترضنا؟ إنّه الّذي يحقّق ذاته بشدّة. هكذا أصبحت لغتنا جميعا إذن. هكذا صرنا نعتبر أنّ الجميلَ هو كلّ شخص يقبل بسماته الجسديّة والمعنويّة كما هي، كلّ

شخص لا يحاول أن يكون شخصًا مغايرًا بل يكتفي بأن «يحقّق ذاته» قدر الإمكان.

إلى أولئك الّذين وافقوا وراثة آخر قرنيْنِ أو ثلاثة قرون من تاريخ قيمنا، إليكم الأنموذج الأكثر عمقًا: إنّه أنموذج بلا محتوى، أنموذجٌ شكليّ صِرْف: أن تكون ما أنت عليه وبشكل مكثّف لا أكثر.

هكذا تمكّنتْ «الكثافة الجماليّة» من حجب المعيار الكلاسيكيّ للجمال. ذاك المعيار الّذي يندم عليه اليوم جزء كبير ممّن توهّموه قبلًا، أولئك الّذين افترضوا أنّ الجمال هو محاكاة لأنموذج مثاليّ موجود مسبقًا. يحكم هذا الأنموذج بقوانين التّناسق والانسجام والقبول. قوانين قد تبدو للعين الحديثة عنفًا غير شرعيّ على استقلاليّة الصّورة والموسيقى وحتّى النّصّ المكتوب.

لم يعد الأمر يتعلّق بالحكم على قيمة عمل فنّيّ انطلاقًا من إجابته الصّحيحة أو الخاطئة على فكرةٍ ما: «ما ينبغي أن يكون عليه». لا! إنّنا نأمل بالأحرى أن يُتِيحَ هذا العمل الفنّيّ تجربة جديدة تترك أثرها في المتلقّي. لنفكّرْ على سبيل

المثـال في تجارب «فنـون الأداء» وحركة «فنّانـي فيينّا»[1] أو تجربـة «المسـرح الحـيّ»[2]. لقد كان الهدف فـي معظم هذه الاختصاصـات الفنّيّـة هو تجاوز منطق العـرض إلى الصّدمة الّتي تنتج عن حضور الأشياء في ذاتها. في هذه الحال، يصبح المتفـرّج غيـر مكتـف بالاسـتمتاع بـالأداء بـل يتجـاوزه إلى الرّعدة النّاجمة عن إحساسه بذاك الحضور المفرط للأشياء. كما يشعر في الوقت ذاته بأنّه أكثر وأفضل حضورًا في خضمّ ما يشاهد: يرتعد لاستعادة المعنى الضّائع، معنى الهُنا والآن. وهكذا أصبحت الفكرة المترسّـخة شـيئًا فشيئًا كالتّالي: على تقييـم العمـل الفنّـيّ أن يرضخ لمنطـق العمل نفسـه. تحاول الجماليّـات الحديثة أن تقرن أيّ عمل فنّيّ أو أيّ وضعيّة فنّيّة بقواعد داخليّة بدلًا من القناعات المفروضةِ من الخارج. من

---

(١) حركة فنيّة راديكاليّة جدّت خلال ستّينات القرن العشرين، تعتمد على قدرات الجسد في الأداء.

(٢) مجموعـة «المسـرح الحـيّ»، مجموعـة تعتمـد المسـرح التّجريبـي المتحرّر تأسسـت بنيويورك سـنة ١٩٤٧ من طرف الكاتبة والمسرحيّة جوديـث مالينا (١٩٢٦-٢٠١٥) والممثّل والشّـاعر والرسّـام جوليان بيـك (١٩٢٥-١٩٨٥). وهو مسـرح يعتمد الالتزام بقضايا الشّـعوب وتجديد الفنّ المسرحيّ شكلا ومضمونا.

هنا، لا شيء يظلّ قابلًا للمقارنة بأيّ شيءٍ آخر: إذ لا يمكن قياس وجه أو مشهد أو حركة جسديّة مثلًا بنمط مسبق لهذا الوجه ولهذا المشهد أو لهذه الحركة، إلاّ إذا كان ذلك بعقليّة قد توصفُ بـ «الكلاسيكيّة الجديدة» أو بـ«الرّجعيّة» والّتي ما زالت بعد تَتحسّس بعض القواعد أو القوانين الخاصّة بالجمال. يمكن للكائنات أن تكون قبيحةً، هذا مؤكّد، كما يمكن أن تتّصف بالغلظة وعدم الانسجام أو حتّى بالزّيف وفق هذا المعيار الثّقافيّ أو ذاك، لكنّنا صرنا نعرف منذ زمن طويل بأنّ هذه المعايير مختلفةٌ فيما بينها. فهي ليست معايير أبديّة ولا نهائيّة: قد تتحوّل وتصبح منتهية الصّلاحيّة أيضًا. ما نراه جميلًا هنا ليس جميلًا هناك، ما هو كذلك الآن ربّما كان يُعتبر قبيحًا بالأمس البعيد، وقد يعود من جديد إلى سالف قبحه في الغد. لقد تعلّم الغرب - أو استعاد ما تعلّمه قديمًا - وخصوصًا مع الرّومانسيّة تقدير الشّيء السّوقيّ مثله مثل الشّيء الرّفيع. يمكن أن ينقلب المشوّه إلى لطيف والأخرق إلى سَامٍ. لا وجود لمعايير مطلقة فيما يخصّ قيمة العمل الفنّيّ الّذي يعتمد على محتواه. فمن الرّعب ذاته يمكن للفنّان أن يستمدّ الرّوعة. ويمكن أن يستخرج من

الملل نوعًا من البهجة الجماعيّة أو النّشوة، ومن الزّيف والكذب نوعًا من الحقيقة.

كيف نحكم إذن؟ يكفي فقط تحديد إذا ما كان الشّيء قويًا. وأكثر من ذلك، قد يكون الضّعف قابلًا لأن يُحَبّ أو يُمتدح أو يُحتفى به، في حال كان ضعفًا قويًا. فإذا لم يعرض كتابٌ من الكتبِ الرّداءة بشكل رديء فإنّها تنتهي بأن تعثر على ما يبرّرها. لم يعد هناك معيار موضوعيّ للذّوق الجماليّ الحديث، هناك فقط معيار مرتبط بالطّريقة: ليكن أيّ شيء محورًا للاهتمام على شرط أن يتّصف بـ«الكثافة».

ليست هذه «الكثافة» أكثر من مبدأ المقارنة المنهجيّة لشيء ما مع نفسه. يتّصف بالكثافة كلّ ما هو قويّ في ذاته حتّى وإن كان بشعًا أو مرعبًا أو مستفِزًّا أو متطلّبًا أو مثيرًا أو كئيبًا أو محبَطًا أو جريئًا أو مذهلًا أو مقرفًا أو إجراميًّا أو كابوسيًّا... لا شيء ممنوعٌ في النّهاية. لا تهمّنا ماهية الشّيء المُعَدّ للدّرس ما دام يحمل أكثر وأفضل كثافة ممكنة.

راحت هذه الفكرة توجّه وعينا بشكل تدريجيّ، لا وعينا الجماليّ فقط بل الأخلاقيّ أيضًا.

سنحاول على مدى هذا البحث الّذي نخوض غماره أن نقنع القارئ بأنّ الكثافة بوصفها قيمة قد أصبحت «إيتوس» l'ethos[(١)] حياتنا الإنسانيّة. فهي الّتي تحكم وتوجّه معظم تصوّراتنا لكلّ ما نستطيع وما ينبغي أن نكون عليه. ما هي قيمة الحياة؟ لقد أصبح الحكم على أيّ وجود في علاقة بأيّ أنموذج أخلاقيّ بالنّسبة إلى الكثيرين وخصوصًا منذ القرن الثّامن عشر، حكمًا أصوليًّا وسلطويًّا. لذلك انتهى تحرّر الأفراد إلى الحدس الحديث الّذي مفاده أنّ الأخلاق هي تنصيب كلّ فرد لمحكمته الخاصّة. فلا يُحكم على حياة ما من خلال مقارنتها مع حياة أخرى، ولا تفرض على حياة ما أن تكون مشابهة لأخرى أو أن تتّخذها مثالًا. غير أنّنا ما زلنا نحاكم الحياة البشريّة على أساس قِيَمِها الأخلاقيّة. ولا نكفّ أيضًا عن تقييم حياتنا الخاصّة. هناك قانون واحد فقط تقوم على أساسه محاكمة الذّات الحديثة لذاتها: هي أنّ كلّ ما وقع فعله كان بقلب شديد الحرارة. ما زالت هناك قيم أخلاقيّة بكلّ تأكيد (الكرامة، الوفاء، الاحترام...)، قيم يعتمد عليها كلّ فرد -كلٌّ حسب قناعاته- ليحكم على أفعال إنسان

---

(١) الإيتوس L'ethos، كلمة ذات أصل إغريقي وتعني السّمة أو الهيئة العاديّة للفرد.

في وجوده الكلّيّ إذا ما كانت أفعالًا ووجودًا يتّسمان بالطّيبة أو بالشرّ. لكنّ هذه الأخلاق الخارجيّة يكمّلها نوعٌ من الأخلاق الدّاخليّة الّتي تغوص في قلب الكائنات وتتعلّق بقيمة الحياة في حدّ ذاتها ولذاتها.

هل هي حياةٌ جميلة وطيّبة وحكيمة أم مجنونة؟ هل هي سعيدة؟ هل هي حياةُ مجرم أم حياة قدّيس أم ظلاميٍّ قذرٍ أم كائنٍ وضيع أم إنسان عاديّ...؟ لا شيء يهمّ من كلّ ذلك. إذ يبدو أنّ المبدأ الوحيد المسلّم به هو الآتي: مهما كانت دوافع وأعمال هذا الإنسان أو ذاك، ينبغي أن نتساءل إذا ما قد عاش «بعمقٍ» في النّهاية أم لا، قد يبدو تعبيرًا مبتذلًا لكنّه ينصّ بدقّة على ما هو متوقّع منّا. إنّ الخطيئة الوحيدة في كلّ شيء هي أن تتناقص الكثافة. من المحتمل أنّنا كنّا متواضعي التّوهّج. وكان من الأفضل لو كنّا متواضعين لكن بتوهّج.

لم تقل الرّوايات والأفلام والأغاني على مدى القرنين الأخيرين غير الآتي ذكره: «عش! مهما كانت حياتك»، «أحبَّ! مهما كان الّذي تحبّه»، لكن وخصوصًا «عشْ وأحبَّ بقدر ما تستطيع!» - لأنّه لا شيء مهمّ سيُحتسب لك في النّهاية عدا تلك الكثافة الحياتيّة.

في حين أنّ ما يبدو لنا بديهيّا هو نفسه الّذي يميّزنا عن أنواع أخرى من البشريّة، من أولئك الّذين يعتبرون أنّ القيمة الأسمى للوجود تكمن في تجاوز هذا الوجود إلى مملكة عُليا (حياة بعد الموت، تناسخ الأرواح «الميتيمسايكوسيس» la métempsychose، المجد والخلود...)، أو بصرف هذا الوجود وإخماده داخل تكثيف حياتيّ متنوّع (التّنوير، النّيرفانا le nirvana، الأتاراكسيا l'ataraxie[١]). يبدو أنّنا ننتمي إلى شريحة إنسانيّة ابتعدت من التّأمّل والانتظار الأبديّ وكفّت عن التّعالي بوصفه معنى نهائيًّا للوجود، لتعانق نوعًا من الحضارة الّتي تتميّز أغلبُ قيمها الأخلاقيّة بالتّذبذب المستمرّ للكائن كمبدأ أساسيّ للحياة.

ربّما لم نعد قادرين على الشّعور بما هو مكثّف، أي بما يزيد وينقص ويتنوّع. ربّما أيضًا هذا بالذّاتِ يميّزنا.

من المؤكّد أن تمثّل حياتنا الثّقافيّة والدّيمقراطيّة المقياس الجماعيّ لكلّ هذه الطّاقات المتنوّعة: الجديد الّذي يتوالد عن كلّ جديدٍ، المجهول والغريب اللّذان يلاحقهما العقل

---

(١) الأتاراكسيا L'ataraxie، كلمة ذات أصل إغريقي وتعني التّحرّر من كلّ قلق واضطراب.

النّقديّ الحديث بفضل وصفات المجلاّت، المدوّنات والمواقع الاجتماعيّة، عروض الأزياء المتوالية واستعراضات الحياة والأفكار بإزاحة كلّ ما تمّت رؤيته وكلّ ما تحوّل إلى عاديّ وروتينيّ... تسريحات وألوان الشّعر، إكسسوارات accessoires المُوضة، مقاسات وأشكال وألوان الملابس، وجبات الطّعام، المشروبات الرّوحيّة، اللّيكور liqueur والكوكتيلات Cocktails، الرّوايات، المسلسلات التّلفزيونيّة والأغاني، الرّوح الكوميديّة، العروض الرّياضيّة، العلاقات بين المشاهير، المفاهيم السّياسيّة، موديلات السّيّارات المعروضة على الواجهات للعابرين رغبةً أو مللًا، وانبهار الإنسان «المكهرب» بالتّجديد وبالتّخطيط الدّماغيّ المبتذل للفردِ المنهك. من شأن كلّ هذه الاتّجاهات والتّموّجات الإيديولوجيّة والجماليّة أن تخلّف في ذهن كلّ فرد منّا ذبذبات لا نهائيّةً، وهي التموّجات الّتي تعرضها بعض الجرائد بحذافيرها وبنقاطها الموجبة والسّالبة، بقممها وانحداراتها، بدواخلها وخوارجها، بأعلى وأدنى كثافة في الثّقافة المعاصرة. تعلّمت هذه الثّقافة الكفّ عن الحكم بدغمائيّةٍ على كلّ ما هو قيم جوهريّة في الأعمال الفنّيّة

والأفكار، بل الحكم على القوة النّسبيّة في كلّ ما يظهر أمامها، وذلك بفضل رسوم بيانيّة توضّح السّائد و«الموجة الجديدة»، التّوجّهات الصّاعدة أو الهابطة، وفق كل ما من شأنه أن يبعث على الملل أو الحماس. ترتبط الثّقافة الجديدة إذن بهذه الكثافة المتغيّرة على شاكلة ذبذبات كهربائيّة اجتماعيّةٍ أو مقياس تقريبيّ لدرجة الإثارة الجماعيّة للأفراد.

إنّ دافع الإثارة مهمّ بطبعه، لكنّ الإثارة في حدّ ذاتها أكثر أهمّيّة. فهذا الشّعور وحده يتيح لك التّمسّك بالحياة منذ بدايتها إلى نهايتها من أجل إنقاذها من المرارة والاستياء. نحن نعتبر كلّ من لم يعد يشعر بالإثارة شخصًا تائهًا: ما زال على قيد الحياة نعم، لكنّه بمعنى من المعاني، كفّ عن الحياة داخليًّا. إنّه يحمل على كاهله حياة ميّت. فقد توقّف عند محتويات قديمة للإثارة وها قد صار عاجزًا على تجديدها. وإنّنا لنُشفق عليه.

لذلك، دعونا نعترف ولو على مضض بأنّ الحياة العصريّة قد انطوت على محتويات إيجابيّة: محتويات عن المعتقد، محتويات عن الالتزام، عن القيم، عن الأفكار، عن التّحالفات والمواقف أيضًا. أنت، بماذا تؤمن؟ ماذا تريد؟ ما الّذي تراه

عدلًا؟ ثمّة معايير أخلاقيّة إذن. وثمّة خلافات سياسيّة حولها. رغم ذلك، فُرِضَ معيارٌ على كلّ المعايير في المجتمع اللّيبراليّ ويبدو أنّ العالم بأسره متّفقٌ على ذلك. وهو معيارٌ في غاية البساطة لكنّ فهمه يقتضي حساسيّة مفرطة. إنّه بمثابة القيمة الإيطيقيّة القصوى الّتي تتجسّد عبر ذبذبات ثقافيّة أو عبر تباين الأدرينالين adrénaline الفرديّ، عبر تقلّبات الرّغبة والمتعة والألم والقناعات والحقائق وآخر صيحات الموضة، إنّه نوع من التّدفّق اللاّنهائيّ لما تعنيه هذه الكلمة البسيطة الّتي هي «الكثافة» في قلوبنا وعقولنا، والّتي توجّه مجمل حياتنا.

إنّها أيضًا وحدة القياس الّتي بها نعرف ما تساويه حياتنا الحميمة وعصرنا في آن: هل هي كافية؟ هل هي بصدد التّزايد أم التّناقص؟ لا تقف خاصيّة الكثافة عند التّدفّقات أو الدّورات المحليّة فحسب، بل تُستخدم أيضًا في تقدير التّطوّر العامّ في المجتمع وهكذا صار بإمكاننا كشف مصطلحيْن مقترنيْن بقاموس «الكثافة»، مصطلحان مثّلا منذ القرن الثّامن عشر مبدأيْن لم يكفّا عن تعديلِ السّياسة والاقتصاد الغربيّين وهما: النّموّ والتّقدّم. التّقدّم التّاريخي الّذي يتمظهر من

خلال النّضال والعمل على ترسيخ بعض المبادئ السّياسيّة: كالحرّية والمساواة. وإنّنا نتوقّع بأنّ التّقدّم العامّ للإنسانيّة مرتبط بكثافة هذه الفكرة أو تلك الشّائعة بين بني البشر. أمّا النّمو الاقتصاديّ فيعني من جهته التنوّعَ الإيجابيَّ لمنتوجات السّوق وخدمات التّجّار وذلك بفضل عدّة مؤشّرات، منها «الجدول» الكبير لفرنسوا كيناي(١) على النّاتج القوميّ الخامّ، والنّاتج المحليّ الإجماليّ على الدّخل القوميّ الإجماليّ، والمؤشّر الجيني للتّنمية البشريّة. يبدو النّموّ والتّقدّم المرتبطان بفترات الازدهار والأزمات بلا نهاية وبلا اكتمال محتمل. لا يقود هذا ولا ذاك البشريّة إلى الجنّة، إلى المدينة الإلهيّة أو إلى الما وراء. إنّهما يكتفيان بالإشارة إلى انتعاش ما وإلى النّموّ العقليّ والأمل في التّحسّن الدّائم للعالم المتدنّي هنا. لقد عملنا على التّغيّر والنّموّ اللاّنهائيّ، وقد بدا لنا هذا الأنموذج أسلم أنموذج، بل بدا الشّيء الوحيد الّذي

---

(١) جدول فرنسوا كيناي: جدول اقتصادي نشره الاقتصادي الفرنسي فرنسوا كينياي (١٦٩٤-١٧٧٤) وقد وفّر أساس ما يُسمى الأفكار الفيزيوقراطيّة (المذهب الطّبيعي الّذي نشأ في فرنسا على يد فرنسوا كيناي والّذي يؤمن بحرّية الصّناعة والتّجارة وبأنّ الأرض تُمثّل مصدر كلّ الثروات.)

يمكـن القبول به. هو أنموذج لا يفترض ربط إنسـانيّتنا بِصور أو بأفـكار نهائيّـة مُنزّلـة مـن السّـماء، بل يسـعى إلـى تكييف الإنسانيّة مع نفسها لا أكثر، وإلى تعزيز كلّ ما هو أكثر وأفضل إنسـانيّة في الإنسـان. وهـذا يعنـي أنّ هذا الإنسـان المعاصر يعمـل تحت راية مبدأ ضمنيّ فحواه: تَصَرَّفْ تجاه إنسـانيّتك وإنسـانيّة الآخريـن بشـكل يدفع الإنسـانيّة جمعـاء إلى ما هو أفضـل وأرقـى. كثّفْهـا. ادفعْهَـا فـي اتّجـاه النّموّ والتّقـدّم في داخلك وبين كلّ الآخرين.

وعلـى ذلـك كلّـه، تصبـح هـذه الفكـرة المألوفـة للعقل المعاصـر مثيـرة للاهتمام ما إن نعزلهـا ونتأمّلها من الخارج، هل كان متعلّم العصور القديمة أو حكيم العصور الوسطى أو الفرد الّذي عاش في ظلّ سـلالة الهان Han(١) أو الكاهن من براهمـة الفتـرة الفيديّـة védique(٢) ليخضـع كمـا نفعل نحن اليـوم بكلّ قيمـه (الجماليّـة والأخلاقيّـة والسّياسـيّة) لمعيار الكثافة هذه؟ هذا أمر غير مؤكّد. لا شكّ أن المطلق والخلود والحقيقـة أو البسـاطة كانت ستسـود كمعيار نهائـيّ للحكم.

---

(١) سـلالة أو شـعب الهـان: إحـدى القوميّات الّتـي يتكوّن منها الشّـعب الصّيني. وتمثّل قرابة التّسعين في المائة من مجموع السّكان.

(٢) نسبة إلى الفيدا، وتعني الكتب المقدّسة الأقدم للحضارة الهندوسيّة.

لقد انحدرنا من سلالة بشريّة مسكونة بالشّكّ تجاه هذه المعايير الكلاسيكيّة، وها قد استبدلناها بتأليه الكثافة: أفضل ما يمكن أن نأمله الآن، وأجمل ما يمكن أن نعيشه وأكثر الأشياء قربًا من الحقيقة، وكلّ ما نؤمن به هو تكثيفُ ما هو مكثّفٌ بالأصل. تكثيف العالم وتكثيف حياتنا. إنّها أهمّ فكرة حديثة. الأمر المؤكّد هو غياب الخلاص في فكرة الكثافة عندما نتأمّلها من بعيد. ليست الكثافة وعدًا بحياة أخرى في عالم آخر، ولا هي أفق التّوازن والتّسامح والتّسوية مع الذّات الموجود في الكثير من الثّقافات الإنسانيّة: إخماد ما يعتملُ في داخلنا من عواطف وما ينجرّ عنها من تقلّبات لا نهائيّة. إنّ الكثافة الّتي يعدنا بها الجميع في العالم المعاصر هي عبارة عن برنامج أخلاقيّ يهمس بصوت خافت ملء ملذّاتنا وأحزاننا: «أعدك بالمزيد من الشّيء نفسه. أعدك بمزيد من الحياة.»

لذلك سيحاول هذا العمل أن يصوّر من الخارج الوضعيّة الّتي اكتشفت روحنا الحديثة بأنّها سجينة داخلها: تعويض البحث عن الخلاص أو الحكمة بالتّحفيز أو تطوير كلّ ما في كياننا إلى حدّ التّكهرب. سنصوّر هذه الكثافة بوصفها أفقًا لم

تستطع قيَمُنَا تجاوزه منذ قرون، وبوصفها مبدأ سريًّا يسكن حكمنا على الأشياء، وبوصفها عظمتنا الّتي ظلّت خفيّة إلى حدود هذه اللّحظة.

قد يبدو هذا الشّرط، وهذا الشّكل الموجّه لجميع أفكارنا من الأمور التي عفا عليها الزمن. أليس مجرّد توصّلنا إلى تصوّره من الخارج دليلًا على أنّنا على مشارف الخروج منه؟ لنحاول أن نفهم على الأقلّ كيف بدأنا بالتّوغّل فيه قديمًا.

١

صورة
ما فعلته الكهرباء بالفكر

قُبْلَة لايبزيغ.[١]

من أين جاءتنا هذه الإثارةُ؟

عديدة هي المقالات الّتي كُتبت على مدى قرن من الزّمن لشرح ظاهرةِ «المغناطيسيّة»، فمنذ أن اقتحمت كلمة «كهرباء» (الإلكتريسيتي électricité المصطلح الّذي يتضمّن «إلكترون» الّتي تحمل بأصلها الإغريقي معنى «الكهرمان[٢]»)

---

(١) لايبزيغ المدينة الألمانية الواقعة في ساكسونيا شرقي ألمانيا وحيث عاش الشّاعر والفيزيائي جورج ماتياس بوس (١٧١٠-١٧٦١) وهو معروف بتجاربه الفيزيائيّة الطّريفة ومنها شحن شخص بشحنات كهرومغناطيسيّة قبل أن يقبّل شخصا آخر.

(٢) الإلكترون، الكهرمان [لفظة فارسيّة]: ويُسمّى أيضا «الرّاتنج» المتحجّر وهو إفرازٌ عضويّ وصمغ يحتوي على الموادّ الهيدروكربونيّة من النّبات وخصوصًا الأشجار الصّنوبريّة.

اللّغة حوالي سنة ١٦٠٠، حتّى توجّه اهتمام العلماء إلى هذه الظّاهرة الطبيعيّة الغريبة. تمّ في البداية اختراع «آلة هاكسبي»[١]، ثمّ وقع تجريبها على كُرَاتٍ من الزّجاج المشحون وعيدان من الصّمغ[٢].

انتقلتْ هذه الظّاهرة بعد ذلك أي خلال أربعينات القرن الثّامن عشر إلى الصّالونات الأوروبيّة ولا سيّما الألمانيّة منها فأصبحت موضوع إعجاب شعبيّ. وقد قام الشّاعر والفيزيائيّ الشّاب من مدينة «لايبزيغ» «جورج ماتياس بوس» المفتون بتجارب «فرانسيس هوكسبي» وبكتابات «دوفاي» بابتكار سلسلة من التّجارب الجريئة التي تهدف إلى إثارة جمهور من السّيدات المحترمات والسّادة الظرفاء الّذين توافدوا لمشاهدة عرض تلك النّار الجديدة التي تنبعث بشكل عفويّ من المادّة، والّتي سُمّيت حينذاك «السائل الكهربائي». كيف يعمل هذا الجهاز؟ دعا «بوس» ضيوفًا ليشاركوه طاولته. وكان قبل ذلك قد عزل كلّ الأثاثِ، بما في ذلك كرسيّه

(١) نسبة إلى العالم الإنجليزي فرانسيس هاكسبي (١٧١٣-١٦٦٦)، والّذي يعتبر أوّل من وضع أساس مصباح النّيون.

(٢) تمّت هذه التّجربة على يد جورج ماتيّاس بوس في مدينة لايبزيغ سنة ١٧٢٧.

الخاصّ. ثمّ مدّ السّاحر المتربّصُ يده خلسةً إلى تحت طبقه ليلمس سلكًا نحاسيًّا رقيقًا متّصلًا بمولّد «كهربائيّ» خفيّ يشغّله أحد شركائه، وبثبات بسط يده على الطّاولة. مرّ التّيّار الكهربائيّ وتسرّب على طول الأذرع الّتي كان الضّيوف يركّزونها بكلّ أدبٍ على الطّاولة نفسها، فجأةً نظر الجميع إلى بعضهم بعضًا مذعورين وفرحين ومندهشين وبرؤوس شعثاء في آن، كانوا مشحونين بآلاف الشّرارات المتفرقعة ملء الشَّعر. «هذا رائع!» صرخ الجميع متعجّبين.

بعد بضعةِ أشهر من ذلك، اخترع «بوس» آلة للتّطويب[1] ميكانيكيًّا: جلس «القدّيس» على كرسيّ معزول، وُضِعت على جمجمتِهِ قبّعةٌ معدنيّةٌ صغيرةٌ ومدبّبةٌ تحت ما يشبه التّاج المصنوع من الخردوات، بعد ذلك تمّ نقل الكهرباء عبر سلك طويل موصول بصحن معدنيّ يقع على بعد سنتمتر واحد كحدٍّ أقصى فوق التّاج ممّا تسبّب بفرقعات من الشّرر الّتي رسمت ما يشبه الهالة [النّورانيّة] فوق رأس الرّجل الذي تمّ تقديسه بواسطة العِلْمِ فتسمّر في مكانه من هول المفاجأة.

(١) التّطويب: إعلان قداسة لشخصٍ مسيحيّ أثبتَ إيمانه بتصرّفاته الحياتيّة أو بمعجزة من المعجزات أحيانًا.

الأهمّ من كلّ ذلك أنّ «بوس» تخيّل جاذبيّة أسماها «قُبلة لايبزيغ الكهربائيّة»، وقد خصّها بوصف غنائيّ في قصيدة له عنوانها «فينوس المُكهربة»: شابّةٌ حسناء معزولة مسبقًا عن التيّار الكهربائيّ ومتّصلة بمولّد «بوس» البدائيّ، كانت لها شفتان مصبوغتان بمادّة ناقلة للكهرباء. طُلِب بعد ذلك من أحد الحاضرين المبّجلين الوقوف من أجل تقبيل الآنسة. قرّب الشّابّ العشرينيّ شفتيْه المرتعشتيْن من شفتيْ «الفينوس»، فتلقّى حينها الشّحنة الأعنف: شاهد الجمهور المذهول برقا يومض من بين شفاه الشّابّيْن. ظلّ الرّجل الّذي كان يبدو كالّذي تعرّض لصاعقة حقيقيّة جامدًا في مكانه لِلَحَظات: لقد كتمت حدّة الكهرباء والنّار الّتي تنبعث من جسد المرأة أنفاسه. «الألم ينبع من مكان قريبٍ، شفتاي ترتعشان. دار فمي يقوم بالدوران أمّا أسناني فكأنّها تساقطت بالكامل!»

كان «بوس» مثله مثل أستاذ الرّياضيّات «هَاوْزِنْ»[1]

---

(١) كريستيان أوغست هاوزن (١٦٩٣-١٧٤٣)، فيزيائي وعالم رياضيّات وفلك عاش في مدينة لايبزيغ الألمانيّة وعُرف بتجاربه في الكهرباء أيضا.

وزميلهما أستاذ اللّغات الشّرقيّة «وينكلر»[1] قد أجّجوا تاريخ مدينة «لايبزيغ» بتجاربهم الجريئة الواقعة على حدود القوانين الفيزيائيّة والعبثيّـة، وقتذاك كانت «جنّيةُ الكهرباء» تعتبر متعةً سحريّة، ووعدًا لاعقلانيًّا للعقل. تمّ الاستغناء سريعًا عن هذا العبـث وتعويضه بالنّظريّات الصّارمـة، أمّا في الوقت الحاليّ فقـد ألهبـتْ تلـك الرّائحـةُ المنبعثةُ مـن ذاك السّـائل الحارق العقـول الأوروبيّـة وتبلورت صـورة جديدة للرّغبة البشـريّة. «إنّكِ مليئةٌ بالنّيرانِ الآنَ يَا سَـيِّدَتِي، بنيران أنقَى أنواعِ البشَـر، لـن تُسبِّـبَ لك الأذى لـو احتفظتِ بهـا بينَ نهديْـكِ، لكنّك ستتعذّبين كثيـرًا بِمُجَـرَّدِ نقلهـا إلى الآخريـن.» إنّ شـهوانيّة المـرأة الشّـابّة لنابعة من تلـك النّار الدّاخليّـة الدّفينة، هي نار جريئـة لا تفصـحُ عـن نفسِـها إلاّ فـي ملامسـة الحبيـب لهـا، ملامسـة الرّجـل الّذي يحـاول تقبيلها، تُشـبه الرّغبة الحسـيّة القـوّة الكهربائيّـة والعكـس صحيـح، فالكهربـاء مثـل الرّغبة الجنسـيّة الطبيعيّـة لكلّ مـادّة تنتظر من يجرؤ على ملامسـتها

(١) جوهـان هنيريـش وينكلر (١٧٠٣-١٧٧٠)، أسـتاذ لغـات لكنّه أيضا كيميائي وفيزيائي وفيلسـوف من المولعين بدراسـة سبل نقل الكهرباء وقـد سـاعدت دراسـاته المتنوّعـة علـى اختـراع مـا سيُسـمّى لاحقـا التّلغراف.

حتّى يكشفَ عن وجودها. والكهرباء مثلها مثل الرّغبة لا تخلو من الخطر لكنّها ترسل رعشات من كثافة جديدة، مثل كثافة «سائل لا يمكن السّيطرة عليه». ما زلنا بعد لا نعرف طبيعة هذا السّائل ولا استخداماته المحتملة. إنّ الجسد الإنسانيّ وفق أولى هذه الظّواهر الّتي تخصّ الطّاقة الكهروستاتيكيّة électrostatique[1] لَهُوَ «مُوصل كهربائيّ» رئيسيّ بطبعه. ثمّة أمر دائم الحدوث إذن، مثل الارتعاش الكهربائيّ عبر الأجسام الّذي يظهر القدرة الخفيّة لأجسام معيّنة على التّنافر أو التّجاذب، والتّسخين وإثارة الشّرر وإنتاج تفريغ مشترك للطّاقة والضّوء. لذلك سرعان ما تمّ استبدال الجسد الإنسانيّ بالمعدن. لقد تمّت إزالة اللّحم والعضلات والأعصاب عن ذلك السّائلِ العجيب من أجل إعادةِ توزيعِهِ على الأشياء، لتُصنع أولى المولّدات الكهربائيّة وقوارير اللّيدن Leyede[2] والأسطوانات ذات البطاريّات واللّوحات ذات الألف زجاجة.

---

(١) الكهروستاتيكا أو علم الكهرباء السّاكنة: دراسة الظّواهر المتعلّقة بالشّحنات الكهربائية سواء كانت ساكنة أو بطيئة الحركة.

(٢) قارورة ليدن: أولى أشكال «المكثّفات الكهربائيّة» وحفظ الطّاقة داخل الدّوائر وقد تمّ اختراعها سنة ١٧٤٥.

لكنّ الكهرباء توغّلت عميقًا في الإنسـان. وسـتظلّ دائمًا بمثابـة الثّمالـة الخفيفة الّتي سـيتغذّى عليهـا العقل الحديث. لقـد جرت الكهرباء مثلما تجري الدّمـاء في عروق المجتمع منـذ العلـوم البصريّة إلـى الشّاشـات ذات الصّور السّـينمائيّة البديعـة، وكسـرت الصّورة إلى ألـف قطعة ضوئيّة وقسّـمتها وشـفّرتها علـى شـكل نبضـات قصيـرة متناقَلَة عـن بُعد، كما عزّزت انتشار التّلفاز في كلّ ركن واستثمرت كلّ المعلومات والصّـور والنّصـوص والأصـوات وسـخّرت نفسـها لخدمة الإلكترونيّات، وأضاءت عواميد الإنارة في شـوارع العواصم الكبـرى وفـي المصابيـح الموضوعـة بجانـب أسـرّة أطفـالٍ يقرؤون إلى سـاعة متأخّرة من اللّيل، لقد غذّت محرّك النّموّ والتّقـدّم الدّؤوب فحتّمت بناء السّـدود والمولّدات العملاقة ومحطّـات الطّاقـة المركزيّـة والطواحين الهوائيـة، وأدخلت الحركة على كلّ شـيء تقريبًا إلى درجة أنّ الإنسـان تحوّل - دون أن يشـعر - إلـى وسـيط يعيـشُ بيـن كيانـات (كابـلاتٍ وهواتـف وراديوهـات وأجهزة ناظمة لنبـض القلب...) وقد نسـي تدريجيًـا طبيعتهـا الكهربائيّةَ دون أن يكـفّ لِلَحظةٍ عن فكـرة التوغّـل فيها أكثر فأكثـر، كأنّنا بـ«قُبْلة لايبزيـغ» الّتي ما

انفكّت تميّز طبيعة الارتباط والرّغبة في العصر الحديث لم تكفّ يومًا عن الارتسام.

وعد الأنوار الكهربائيّة

دعونا نحتفظ من بين آلاف التعريفات الممكنة للحداثة بهذا التّعريف الّذي يمكن اعتباره أبسط التّعريفات لكنّه أكثرها واقعيّة: إنّ الحداثة ترويضٌ للتيّار الكهربائيّ. وإنّ ظهور حركة بحثيّة غير مسبوقة من البحوث والتجارب العلميّة والتّرويجيّة في القرن الثامن عشر والإدخال المتناقض والشغوف للتّطبيقات المحتملة لهذه الطاقة الجديدة قد جعلت من الكهرباء المكوّنَ المركزيَّ للحداثة بوصفها وعدًا سحريًّا للعقل. هذا لأنّ الكهرباء وقبل أن تكون خادمة متواضعة لحركة التّصنيع وقبل أن تصبح خادمةً أخرى للإلكترونيّات وتكنولوجيا المعلومات كانت قد مثّلت قبل كلّ شيء أملًا شاسعًا لأوروبّا الفضوليّة عصرئذٍ وقد سحرت لبّ الجماهير المتدافعة: لم تكتف الكهرباء بأن تجعل تحويل كلّ شَيء ممكنًا بل جعلت كلّ شيءٍ قابلًا للفهم أيضًا بدءًا بالطّبيعة والإنسان وصولًا إلى الضّوء المنبعث من أيّ طاقة جديدة.

بعـودة «أندريه غويارم[1]» إلى كتابات «دانيال روش[2]»، لخّـص الأمـر بقولـه الدّقيق التّالـي: «أصبحـت الكهرباء منذ الثّلث الأخير من القرن الثّامن عشر أكثر من عِلْمٍ شعبيّ وأكثر من مجرّد علْمٍ فيزيائيّ وطبيّ، لقد كانت إلى جانب كلّ ذلك علمًـا اجتماعيًّا للأضواء. هي ميكانيكيّة وكيميائيّة وعسـكريّة وبيولوجيـة ونفسـيّة وصناعيّـة للأدويـة وفلسـفيّة وجويّـة واقتصاديّـة فـي الوقت نفسـه، وعليه أَلَمْ يطمـح «جلفاني[3]» إلـى أن يعثر في الأعصاب على محرّكٍ لِمَا يُسـمّى «الاقتصاد الحيوانيّ»؟ - كما طالت المجالات المعدنيّةَ والزّراعيّة، إنّها تشقّ كلّ مجالات المعرفة نهايةً وتغلّف الفضاء العامّ، لتُعطي صورةً جديدةً للإنسـان وتلعب دور «كاشـفٍ دقيقٍ لكلّ تلك الحركات» الّتي قلبت كيان المجتمع الغربيّ.

---

(١) أندريـه غويـارم: مهنـدس مدنّي فرنسـيّ في الأشـغال العامّـة وباحث ومحاضر في المدرسة الوطنيّة للأشغال.

(٢) دانيال روش ولد سنة ١٩٣٥، وهو مؤرّخ فرنسيّ له كتُب عديدة حول القرن الثّامن عشر - عصر الأنوار.

(٣) لويجـي جلفانـي (١٧٣٧-١٧٩٨)، طبيـب وعالـم تشـريح إيطالـي، ويُعـدّ أوّل مـن خاض تجـارب في علم الكهرباء الحيويّـة. الأمر الّذي أدّى اليوم إلى استخدام شحنات الكهرباء في علاج الجهاز العصبيّ.

أهدى الثّوريّ الفرنسيّ «بربروكس[(١)]» هذا «الكاشف» الجديد، الأبيات المدحيّة التّالية: «أيّتُهَا النَّارُ الخفيّة، يا رُوح العالم، أيّتها الكهرباء الطيّبةُ. إنّك تملئين الهواءَ والأرضَ والموجَة والسّماءَ الواسعةَ.» وبعد قرن من ذلك، استعاد «دُوفِي[(٢)]» في لوحته الموسومة بـ «جنّيّة الكهرباء» تلك الألوان الزّاهية واللّمسات السّاذجة للأفكار الّتي تمتدح الاكتشاف المذهل للكهرباء والّتي ترى فيها الطاقة المحرّكة للحداثة والّتي حرّرت الإنسان من الأعمال الروتينيّة الّتي عفا عليها الزمن (الفرك، الغسل، التّسخين، الطّهي...)، مُتيحة تحسين حاسّتي البصر والسّمع وتدقيقهما أكثر فأكثر وتزويد الطّاقة الطّبيعيّة لجسمه الإنسانيّ وإبراز فعاليّتها. إذا ما كانت الأزمنة الحديثة قد مثّلت لعدّة قرون التّعبير عن حركة جماعيّة من الحماس والّتي طالما ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالثّقة في التّقدّم وبالأمل في التّحرّر النّهائيّ للإنسانيّة وبالإيمان بالتّكنولوجيا وبمشروع المعرفة الكلّية المتعلقة بالإنسان

---

(١) شارل بربروكس (١٧٦٧-١٧٩٤)، سياسيّ فرنسيّ ومحام تبنّى الأفكار الثّوريّة الدّائرة حينئذ وشارك في العديد من معاركها، مات منتحرًا بطلق ناريّ يوم ١٨ جوان ١٧٩٤.

(٢) راوول دوفي (١٨٧٧-١٩٥٣)، رسّام فرنسيّ.

والعالـم مـن خلال من حفنة من المبادئ القابلة للتّحقّقِ، فإنّ الانبهار بالكهرباء كان بالتّأكيد المحرّك الأوّل لهذا الحماس. استطاعت الكهرباء التّوفيق بين النّظريّة والتّطبيق: فهي تعمل وتقدّم شروحًا في الوقت نفسه.

أطلق «الكُونْت لويس ديراسّـان»[1] في مقالةٍ له تعود إلى سنة ١٧٨٦ على هذا الدّفق الكهربائيّ اسم «العامل الكونيّ»، ثمّ رقّاه «كلود روشيه - ديرات»[2] بعد أربع سنوات من ذلك إلـى مرتبة «المبـدأ الحياتيّ»: إنّ الدّفـق الكهربائيّ الحيوانيّ، النّظيـر الّـذي يمكـن إدراكـه بواسـطة علـم روحـيّ عنـد الميتافيزيقيّين سيتألّف من قسميْن متساوييْن: الكهرباء والغاز الحيوانيّ. ومن ثمّ الرّغبة الجنسيّة: لا تعرف إحدى شخوص روايـة «إليريـن» لـ«مـدام دو مورانسـي»[3] كيف تقـاوم «اليد

(١) الكونـت ديراسّـان (١٧٠٥-١٧٨٣)، كاتـب وفيزيائـيّ وعسـكريّ فرنسيّ معروف خصوصًا باستعادته حكايات العصر الوسيط في كتب عديدة وبصداقته الشّهيرة مع فولتير.

(٢) كلود روشيه ديرات (١٧٥٨-١٨٣٠)، طبيب وشاعر وكاتب مسرحي فرنسيّ.

(٣) إليريـن أو مـأزق قلّة الخبـرة: من أولى الرّوايات الإيروتكيّة الفرنسـيّة لكاتبتها «مدام دي مورانسـي» الاسـم المستعار لسـوزان جيروست =

الكهربائيّة» للرّغبة. وهكذا تعْثر الطّاقة الإيروتيكيّة غير المحسوسة على شكلها الفيزيائيّ. لكنّ «الأميرَ دُو لين»[1] أو «الكونت جوزيف دو مايستر»[2] يشرحان بدورهما الانضباط العسكريّ والمحاكاة الحربيَّة عن طريق الكهرباء. وينتبهِ «أندريه شينيه»[3] إلى الحماسة الّتي تهزّ قاعةً للعروضِ التّابعة

= (١٧٦٧-١٨٠٩) وهي كاتبة اشتُهرت بجرأتها في كلّ أعمالها لعلّ أشهرها: رواية روزالينا الّتي نُشرت سنة ١٨٠١ أي بعد نشرها لإليرين بثلاث سنوات.

(١) الأمير دي لين أو شارل جوزيف لامورال (١٧٣٥-١٨١٤)، مارشال ما كان يُسمّى «الإمبراطوريّة الرّومانيّة المقدّسة» وكاتب أيضا ترك عديد المؤلّفات الفكريّة باللّغة الفرنسيّة الّتي أثنى عليها كتّاب كثيرون عهدئذ من بينهم يوهان غوته وبول فاليري...

(٢) جوزيف دي مايستر (١٧٥٣-١٨٢١)، فيلسوف وكاتب وديبلوماسيّ من سافوا ويُعدّ من الشّخصيّات الرّئيسيّة فيما يُسمّى حينئذ حركة التّنوير العكسيّ.

(٣) أندريه شينيه (١٧٢٦-١٧٩٤)، شاعر وصحفي فرنسيّ، اُشتهر بنفسه الثّوريّ وبدفاعه عن الحرّية في كتاباته الشّعريّة والصّحفيّة ممّا انتهى بـه إلى المقصلة، فمات مشنوقا وهو بعد في عمر ال-٣١ من عمره. يُعدّ أيضًا من أهمّ المؤثّرين فيما سيُسمّى بعد بالتيّار الأدبيّ الرّومنسيّ وقد كتب فيكتور هيجو رائد هذا التّيّار قصائد عدّة مهداة إلى شينيه خصوصًا في كتابه «التأمّلات».

لـ«لكهربـاء المسـرحيّة». وقد اسـتخدم «ماركيز دي سـاد»[1] معجمًا كهربائيًّا لإعادة تعريف مصطلحات ذات بعد أخلاقيّ. أمّـا فـي نهايـة القـرن الثّامـن عشـر، فقـد أشـار «قامـوس المسـتحدثات اللّغويّة» لصاحبه «ليونارد سنيتلاج»[2] إلى أنّ اسـتخدام صفـة «كهربائـيّ»، الّـذي لـم يكـن يخـصّ سـوى الأجسام المرئيّة قد عُمّم على كلّ الحركات والهزّات الّتي قد تعتمـل داخل الرّوح البشـريّة ذاتها، واقتـرح كمثال توضيحيّ لذلـك الجملـة التّالية: «أشـعلت النّـار الكهربائيّـة كلّ قلوب الجنود المدافعين عن الحرّيّة.»

وبيّن الأسـتاذ «ميشـيل دولون»[3] في كتابه «فكرة الطّاقة منـذ عصـر التّنويـر» المنشـور سـنة ١٩٨٨ بـأنّ التّركيـز على الكهربـاء بوصفها ظاهرة من شـأنها أن تُتِيـح لنا إعادة التّفكير

---

(١) ماركيز دي سـاد (١٧٤٠-١٨١٤)، روائيّ أرستقراطيّ ثوريّ فرنسيّ. عُرف برواياته الفلسفيّة المتحرّرة من كلّ القوانين الأخلاقيّة.

(٢) ليونـارد سـنيتلاج Léonarde Snetlage (١٧٤٣-١٨١٢) دكتـور في الحقوق وواضع قاموس المستحدثات اللّغويّة سنة ١٧٩٨.

(٣) ميشيل دولون وُلِد بباريس سنة ١٩٤٧، وهو أستاذ في الأدب الفرنسيّ ومختـصّ فـي القرن الثّامن عشـر وفلسـفة الأنـوار، لـه أطروحة حول تاريخ الأفكار.

في «عصر الأنوار» بمعناه الحرفيّ الدّقيق. لقد عاشت أوروبّا الحديثة، تمامًا كما عاش أولئك الّذين شهدوا تجربة «فينوس الكهربائيّة» في مدينة «لايبزيغ» صدمة ورغبة ووعدًا مدهشًا بالتّنوير العامّ: الشّوارع والمنازل والمصانع وحتّى القلوب والعقول أيضًا ستُضاءُ مجتمعَةً بفضل طاقة العواصف الرّعديّة، الّتي طالما خلناها حكرًا على «جوبيتر» سيّد البرق. وهكذا يسرق الإنسان النّار من بين أيادِي الآلهة مرّةً أخرى: وقد جاءت على شكل دفق كهربائيّ هذه المرّة.

السّائل نفسه الّذي يسري في «الكهرمان» وفي العواصف الرّعديّة يسري في أعصابنا أيضا

إنّنا نعلم تمامًا ما تُدين به الحضارة الماديّة للكهرباء، لكنّنا لا نتساءل كفاية عمّا فعلته الكهرباء في الفكر والأخلاق الإنسانيّيْن.

قد لا يبدو تأثير الكهرباء الأكثر وضوحًا. إذ إنّ هذا التّأثير مرتبط أساسًا بالصّورة الّتي يُمكن لمحها من خلال الجمع الممكن بين كلّ ما فرّقته معارفنا: المادّة والحياة والفكر هذه الثّلاثيّة الّتي اجتازها التيّار الكهربائيّ أيضًا،

والّتي يمكن تصوّرها من جديد كلحظات من الاستمراريّة، لا كحالات متعاقبة وقُدرات منفصلة تمامًا. وإنّنا نعلم منذ زمن طويل أنّ الطّبيعة اللاّعضويّة[1] تعجّ بالكهرباء، حيث الكهرمان والبرق من عوارضها المرئيّة لكنّنا نكتشف في الوقت ذاته أنّ كلّ جسم حسّاس هو جسم عصبيّ بالضّرورة وأنّ معطيات مثل الحسّاسيّة والألم والنّشوة إنّما تنتقل إلى داخل الجسد عن طريق دوران هذا السّائل المُميّز -ما يعني الكهرباء- الّذي طالما نتج عن احتكاك عُصَيّات الكهرمان ببعضها البعض وعن التماع البروق.

بالعودة إلى أعمال «لويس لا كاز[2]» في «الموسوعة»، تناقش مقالة «التّوليد» الواردة في الموسوعة فرضيّة وجود «مادة كهربائية» خفيّة سارية في نشاط السّائل المنوي للذّكر والرّحم للأنثى. بينما ذهب «جان بول مارا»[3] في أبحاثه

---

(١) الطّبيعة اللاعضوية: المركّبات التي تفتقد إلى ذرات الكربون والهيدروجين.

(٢) لويس لاكاز (١٧٩٨-١٨٦٩)، طبيب اشتُهر بكثرة أعماله الخيريّة وبحبّه لجمع اللّوحات والتّحف النّادرة الّتي تبرّع بها إلى متحف اللّوفر قبل وفاته.

(٣) جان بول مارا (١٧٤٣-١٧٩٣)، أحد أهمّ مفكّري وقادة الثّورة =

الفيزيائيّة حول الكهرباء، إلى اعتبار أنّ هذه الطّاقة إنّما هي «العامل العامّ» للطّبيعة: إنها القوة التي تمرّ عبرها وتجعلها تتحرّك وتنتشر في كلّ ما من شأنه أن يرتعد ويتألّم ويشعر.

أن تعيش فهذا يعني أن تكون مكهربًا في النهاية.

أشار «برثولون»[1] منذ ثمانينات القرن الثّامن عشر إلى فكرة وجود «كهرباء حيوانيّة» و«كهرباء بشريّة»، لكنّ كتيّب العالم الإيطاليّ «جلفاني» تحت عنوان «عن القوى الكهربائيّة الكامنة في الحركات العضليّة» المنشور سنة ١٧٩١، وهو ما نشر في الأوساط العلميّة الأوروبيّة (وقد لاقى نجاحًا تحريريًّا معتبرًا) الفرضيّة الثّوريّة القائلة بوجود طبيعة كهربائيّة مسبّبة للحركة العضليّة والعصبيّة لأعضاءِ الجسم الحيوانيّ. وبدلًا من اللّجوء إلى الفرضيّةِ المقبولة عمومًا حول الأرواح الحيوانيّة، الّتي أعلن عنها «هالر[2]» وأتباعه ممّن دَرَسَ

= الفرنسيّة (١٧٨٩)الأكثر راديكاليّة، له كتاباتٌ عدّة أهمّها «سلاسل العبوديّة».

(١) بيير برثولون (١٧٤١-١٨٠٠)، فيزيائيّ فرنسيّ وعضو المجمع الملكيّ للعلوم، له العديد من المؤلّفات العلميّة منها «الكهرباء النّباتيّة»، «في كهرباء الجسم البشريّ»...

(٢) ألبرشت فون هالر (١٧٠٨-١٧٧٧)، عالم تشريح وأستاذ جامعي سويسري

«التّهيّـج الفسـيولوجيّ» نجد «جلفاني» من خلال اسـتخدامه للضّفادع[1] كحقل للتّجارب، يقابل المقولة القديمة للأرواح بمقولة الكهرباء الجديدة.

إلاّ أنّ فكـرة الكهربـاء كقـوّة حياتيّـة لـن تقـاوم طويـلًا التّحليـل. فعلـى الرّغم مـن أنّ «فولتـا[2]» كان يتبنّـى الأفكار «الجلفانيّـة» لكنّـه تسـاءل إذا ما كان الضّفدع مجـرّد «قارورة لايـدن» وإذا مـا كان بالإمـكان أن نضيف أو نطـرح الكهرباء المنتجة اصطناعيًّا بواسطة مكثّف، مع تلك الكهرباء العضليّة والعصبيّـة الّتي ينتجها الضّفدع. سـرعان مـا قادته أبحاثه إلى الدّفـاع عـن فاعليّة الدّفـع الكهربائيّ للمعادن فـي مقابل آراء «جلفانـي». إنّ تجهيـز بطاريّتـه الّتـي فسـحت المجـال أمـام

(١) حادثـة شـهيرة بيـن الأوسـاط العلميّة جدّت سـنة ١٧٨٦ حينما كان الأسـتاذ لويجي جلفاني يشـرّح أمـام تلامذته ضفدعة ركّزها بواسـطة دبابيـس، وعنـد إمسـاكه بالمشـرط لاحـظ ارتعـاش جسـم الضّفدعـة فاسـتنتج وجـود صعقـة كهربائيّة في عضلتهـا. وقد توصّل فـي النّهاية إلى الرّبط بين الحياة والحركة والكهرباء ما أدّى فيما بعد إلى اكتشاف مـا يُسـمّى الكهربـاء الحيويّـة وتُسـمّى أيضًـا «الظّاهـرة الجلفانيّـة». Galvanisme.

(٢) ألسّـاندرو فولتـا (١٧٤٥-١٨٢٧)، عالـم فيزياء إيطالـي وهو مخترع أوّل بطاريّة كهربائيّة سنة ١٧٩٩.

مصدر جديد للطاقة - والطاقة في هذه الحالة هي الطّاقة الكيميائيّة النّاتجة عن احتكاك المعادن ببعضها بعضًا، يوفّر مصداقية قويّة لتوجّه «فولتا»: الكهرباء، وفق هذا المفهوم، هي ظاهرة العالم اللاّعضوي، الذي يتّصل بالتّأكيد بالأحياء، لكنّه ليس مبدأ الأجسام الحية الحسّاسة. ليست الكهرباء جوهر الحياة وإنّما طاقة موزّعة بين العضويّ واللاعضويّ. وهو تمامًا ما نفكّر فيه اليوم: فالأمر لا يتعلّق بمصدر قوّة حياتيّة بكل تأكيد. ومع ذلك وللتّعويض عن ضعف «المسمريّة»[1] الباطنية، قامت "الجلفانية" بتركيز مفهوم خياليّ في العقل الأوروبيّ: مفهوم «الكهرباء البيولوجية.» من يدري؟ ربّما هناك أمل في انسجام جديد بين المادّة والحياة.

إنّ الكهرباء الحيوانيّة أو ما يُسمّى «المغناطيسيّة الحيوانيّة» أي اكتشاف طبيعة كهربائيّة لكلّ ما يسري في أعصاب الأجسام الحسّاسة - وصولًا إلى الدّماغ- كانت

---

(١) المسمريّة أو «المغناطيسيّة الحيوانيّة»، وهو الاسم الّذي أعطاه الطّبيب الألماني «فرانز مسمر» في القرن الثّامن عشر لما كان يُعتقد بأنّها قوةّ خفيّة تسكن كلّ الكائنات الحيّة.

بمثابـة «حصان طروادة» بالنّسـبة إلى الكثافة فـي الحياة وفي التّفكير. وإنّ الحياة عصبيّة على قدر ما تحمله من حساسـية، وهـي كهربائيّـة على قدر ما تحملـه من عصبية. أمّـا التفكير، فلأنّـه عمليّة دماغية فهو عصبيّ، إذن هو كهربائي بالضّرورة. وعليـه، فإنّنـا سـنتعلّم قريبًا قيـاس الفروقات الّتـي توجد بين القـدرات الكهربائيّة على سـطح الجمجمة البشـريّة، وهو ما يوفّر للمرّة الأولى نفاذًا إلى تمثيلٍ للنّشـاط الدّماغي بواسـطة التّخطيط الكهربائيّ للدماغ.

لـم يؤثّر الاكتشـاف المذهل للكهربـاء بالتّطور الحديث للتّقنيـات وبأسـاليب الإنتـاج والتّكاثر فقط، بـل تجاوز ذلك إلـى تغيير الأفـكار الأكثر تجريدًا وذلك من خلال تعرية جزء من طبيعتها المشـتركة مع الحياة الحسّـيّة، وتعرية ما في هذه الحياة الحسّـيةِ من مادّة لا حسـيّة. كانت لفظة «كهرباء» اسمًا يُطلقُ على ذلك التيّار الطّبيعيّ - الأقرب إلى الخيال منه إلى الواقـع - الّـذي يقـدّم تفسـيرًا متزامنًـا للمغناطيسـيّة وللحياة الحسـيّة وللعمـل الملموس وللعقـل بالاعتماد علـى التّدفّق لسائل أو لنار طبيعيّةٍ.

في قياس الكهرباء

كانت الكهرباء في البداية ترتسم في المخيّلة على شكل سائل غامض وعصيّ نوعًا ما على الإدراك الإنسانيّ المجرّد: فهو عبارة عن جدول متدفّق بما لا يمكن لمسه ولا رؤيته، يسري سرًّا في عُمْقيْ المادّة والحياة، ولا يكشف عن خصائله المستَتَرَةِ ولا عن قوّته وقدرته على التّدفّق إلاّ إذا تمكنّا من تطويعه لصالحنا بفضل آليّات تجريبيّة - تمامًا مثلما اهتدى الإنسان البدائيّ إلى طرق التّحكّم في حركة المياه.

لطالما مثّل الماء في تدفّقه صورة بديعة للصّيرورة. تجري الأشياء تمامًا كما تجري الأنهار بذاك الدّفق الّذي تعجز اليد عن الإمساك به: إنّه نهر هرقليطس الشّهير: (الّذي لا يمكن لأحد الاستحمام فيه مرّتيْن)، وهو أيضًا نهر «لاو تسو»[1] الّذي ينتهي دائمًا بجرف العدوّ بعيدًا، هو السّيل الجارف ذاته الّذي شبّهه «ميكيافيليّ» بالثّروة، ذاك الّذي يمكن تحويل وجهته ببناء سدّ لكنّ المياه سرعان ما تغمره من كلّ جانب. وهو أيضًا صورة الشّلاّل الذي يجابه صخرة

(١) لاو تسو: فيلسوف صيني قديم، عاش في القرن السّادس قبل الميلاد وهو أحد الأتقياء الثّلاثة في الطّاوية.

صمّاء في الرّسم الصّينيّ الكلاسيكيّ لسلالة «سونغ» الحاكمة[1].

لا تزال المياه المتدفّقة تتجلّى من بين كلّ الأشياء المرئيّة على المستوى البشريّ، بشكل أفضل في فكرة الزّوال والعبور وقوّة التّحول في الوقت نفسه. تكمن هذه القوّة في قدرة الماء على اتّخاذ كلّ الأشكال والتّغلّب على كلّ مقاومة تقريبًا من خلال طبيعتها السّائلة.

عندما بات من الضّروريّ تمثيل الكهرباء الّتي لا يمكن أن نرى منها عدا بعض التّأثيرات المباشرة والمذهلة طفت فكرة الماء على السّطح من جديد. أصبحت الكهرباء نوعًا من المياه اللامرئيّة الّتي لا تكفّ عن السّريان في عمق الأشياء، والّتي وُصفت في البداية بـ«السّائل المتميّز»: ما يعني ماء ناريًا، يجمع إذن خاصيّات المكوّن الأوّل (في حركته وسيولته) بخاصيّة المكوّن الثّاني (في حرارته وضوئه)، كلّ هذا من أجل تكوين طاقةٍ غير مسبوقةٍ. وبما أنّ صورة الماء في سيلانه الدّائم لم تكفّ عن حمل تمثيلات للصّيرورة والتّغيّر المستمرّ فإنّ التّيار الكهربائيّ وجد نفسه

---

(١) سلالة سونغ: حكمت الصّين ما بين ٩٦٠ و١٢٧٩م.

مشحونًا بهذا المعنى الضّمنيّ رغمًا عنه، وهكذا أصبح دون أن يدري الشّعارَ الجديدَ للصّيرورة الكونيّة بأسرها. لقد أصبح بصفة غير مباشرة من خلال الصّفات الأولى القابلة للقياس، مقارنةً بمياه الأنهار: الكثافة.

نحن نعلم أنّه منذ السّنوات الأولى الّتي توجّهتْ فيها الأنظارُ إلى المغناطيسيّة كانت الهيدرولوجيا l'hydrologie[1] أو ما يُسمّى «العلم الأمّ» بمثابة أنموذج لتصميم وقياس السّوائل غير القابلة للوزن وكذلك شبه السّوائل. وكانت الكهرباء حينئذ عبارة عن تدفّق شيء غير مرئيّ على عكس الماء رغم أنّ الكهرباء تشبهه في كلّ سماته.

لذلك تساءلنا، كما الحال في الهيدرولوجيا، عن سُبل تخزين الطّاقة المتأتّية من هذا الدّفق كما تحتّم التّساؤل حول الآثار النّاتجة عنه، أي حول توصيل هذا الدفّق الحراريّ أو مقاومته وفق ما تفرضه طبيعة المكان. ومن خلال قياس متزايدٍ في الدّقة للطّاقة والدّفع والاستهلاك أو التّدفق، وقياس الإمكانات والأقطاب وتوتّر هذا التيار، تمّ الاحتفاظ

---

(١) الهيدرولوجيا: علم المياه. علم يدرس المياه وتوزيعها فوق الأرض وصفاتها وخصائصها.

بالاستعارة الهيدروليكيّة: ما أُجْمِعَ على تسميته «الكثافة الكهربائيّة» الّتي لا تختلف في ظاهرها عن تدفّق التيّار في النّهر. فمثلما يمكن قياس كمّيّة المياه المتدفّقة في مقتطع وهميٍّ أسفل المنحدر في النّهر، على امتداد عرضٍ وعمق متساويَيْن من خلال الاختلاف بين أعلى وأسفل نقطة من النّهر، فإنه يمكننا كذلك وبالطريقة نفسها تقدير كميّة الشُّحنة الكهربائيّة الواقعة بين القطب السّالب والقطب الموجب من خلال قياسِ تلك الشّحنة على نقطةٍ معيّنةٍ خلال وقت محدّد. وتمّ الاتفاق على تحديد تدفّق الشّحنة الكهربائيّة من خلال سطح معيّن، كجزء من سلك كهربائيّ أو كجزء من السّلك الكهربائيّ على سبيل المثال: إنّ كثافة التيّار الّتي تمّ قياسها بواسطة «الأمبير» Ampère، تعادل «دلتا» الشّحنة الكهربائيّة العائدة لدلتا الزّمن، مع العلم أنّ الأمبير الواحد يعادل دفق شحنة من الكولوم Coulomb[1] في الثّانية الواحدة، أي العبور عند نقطة معيّنة لـ-٦٫٢٤١٥٠٩٦٢٩١٥٢٦٥ x ١٠١٨ شحنة أوليّة خلال ثانية واحدة.

---

(١) الكولوم: يرمزُ إليه عالميًا بـ C وهو وحدة في النّظام المتري لقياس الشّحنة الكهربائيّة ويساوي أمبيرًا واحدًا خلال ثانية واحدة. يعود أصل التّسمية للفيزيائي الفرنسي تشارلز كولوم (١٧٣٦-١٨٠٦).

صار الآن بالإمكان إذن تمييز اختلاف مضاعف في «الكثافة»: اختلافٍ في الشّحنة داخل اختلاف في الزّمن. يؤكّد هذا التّصوّر بأنْ لا وجود لكثافة إلّا في الزّمن: فكلّ كثافة هي تباين بين لحظتيْن. ليست الكثافة إذن أمرًا مؤقّتًا. كما يشير هذا التّعريف إلى أنّ ما يقيسه التّباين الزّمني الّذي هو تباين ثانٍ: تباينٌ في صفةٍ غامضةٍ للمادّة - في شحنتها، لا يمكن الوصول إليها بالإدراك البشريّ. لم تعد الكثافة الكهربائيّةُ تعني مجرّد صدمة أو انبهار طبيعيّ بل صارت القياس الكمّيّ لذاك الانبهار.

صورةُ فكرةٍ

شحنَ اكتشاف الظّاهرة الكهربائيّة واستكشافها مادتَيْ الأحلام والصّور بشيءٍ شديد الكثافة محفورٍ في صلب الأشياء مع طاقة متأصّلة في المادّة والّتي كان من الممكن أن تكون العامل العالميّ للحياة. لكنّ فكرة وجود كثافة نقيّة يمَكن بلوغها بمناسبة الكشف عن التّيّار الكهربائيّ إبّان التّجارب الكهربائيّة الأولى الّتي جدّت في القرن الثّامن عشر، سرعان ما فسحت المجال واسعًا لعِلْمٍ يقيس بدقّة هذا

التيّار الكهربائيّ، ما خفّض من قدرته السّحريّة إلى معدّل القياس الكمّيّ للجُسيمات في وقت محدّد.

لقد خيّب التّيّارُ الكهربائيّ الآمالَ الّتي تقودها إلى الفهم واللافهم في آنٍ: الفهم في معناه الكمّيّ والتّحليليّ والتّجزيئيّ الّذي يُكسبه في الواقع الفيزيائيّ ما خسره في البعد الميتافيزيقيّ.

إنّ فكرة الكهرباء باعتبارها عاملًا عالميًّا للطبيعة ومبدأ لتفسير الكينونة والحياة ومحرّكًا أساسيًّا لكلّ ما يعيش ويشعر ويعاني، كان مقدرًّا لها أن تُخيّب الآمالَ مثلها مثل كلّ فكرة تحمل مبدأ الطاقة الميتافيزيقيّة لتفسير العالم في كلّ مرّة تتعارض مع نسختها المادّيّة. لقد فشل هذا الدّفق المميّز للكهرباء مثل «الكِي» qi[1] و«البرَانا» prāṇa[2] والنّفخة الحيويّة و«البنوما» pneuma[3] ومثل كلِّ أرواح العالم في أن

---

(١) الكي، Qi (في الفرنسيّة)، IQ (في الإنجليزيّة)، وهو عدّة اختبارات لقياس الذّكاء، صاغها عالم النّفس وليام شتيرون ونشرها سنة ١٩١٢.

(٢) البرانا Prāṇa مصطلح باللّغة السّنسكريتيّة (اللّغة الهنديّة القديمة) وهي كلمة مركّبة تحتوي مفهوم «النَّفَس» والمبدأ الحياتيّ ومختلف تمظهراته على مختلف الكائنات الحيّة.

(٣) البنوما Pneuma كلمة من الإغريقيّة القديمة وتعني الرّوح أو "النّفخة الإلهيّة".

يستمرّ كفكرة ميتافيزيقيّة وكحقيقة مادّيّة ملموسة في الوقت نفسه. فإذا ما أراد أن يكون من هذا الجانب تمامًا كفّ على أن يكون من الجانب الآخر. وبما أنّ كثافةَ التيّارِ الكهربائيّ كانت ذات فائدةٍ أكبرَ بمجرّد تخفيضها إلى حجم قابل للقياس فقد توقّفت تقريبًا عن تمثيل الوعد القائل بإعادة سحر العالم وعن أن تكون مبدأ وحدة الطّبيعة أو تجميعًا سحريًّا لكلّ ما هو متجسّدٌ وما هو حيٌّ ولكلّ من يفكّر.

لقد كانت وعود الكهرباء - لا بوصفها مصدرًا للطّاقة بل بوصفها فكرةً تعيد صياغة كلّ ما نعرفه عن الطّبيعة والإنسان - وعودًا هشّة للغاية لها شكل أطروحات؛ شأنها الأساسيّ شأنُ التّمثيلات الشّعبيّة أو النّخبويّة، وهي مثلها مثل انطباع غير دقيق نوع من الاندفاع الطّفوليّ المحموم، كذلك الّذي الاندفاع الّذي تملّك جمهورًا شاهد تجربة «فينوس الكهربائيّة»: لقد كان سعيدًا بأن تجرفه ظاهرة فيزيائيّة بعيدًا مثلما تفعل أيّ لعبة سحريّة أو أيّ خدعة نابعة من الطّبيعة ذاتها.

هذا لأنّ الكهرباء بوصفها كثافة خالصة لم تكن فكرة في البداية بل كانت مجرّد صورة، صورة لشحنة ما، لطبيعة

معروفـة وقابلـة للتّرويـض، إلاّ أنّهـا ظلّـت مسـكونة بشـيء متوحّش لا يقبل الاختزال، بشيءٍ مليء بقوّةٍ كهرومغناطيسيّةٍ تقـوم علـى الاختـلاف في القـدرة الموجودة داخـل العناصر نفسـها في العالم الفيزيائيّ. كانت هناك جودة نقيّة في المادّة المشحونة، نوعٌ من الجودة البرّيّة ورغم ذلك لم تكن الكثافة النّاتجـة عنهـا بعيدةً من اللامنطقِ: فقد كنّـا دائمًا قادرينَ على ملاحظتهـا وتقييمهـا. وقـد ظلّـت حقيقـة مكثّفة للمـادّة الّتي أذهلـت الخيـال بعيـدًا من كلّ مـا تدركه حواسّ الإنسـان من العالم الطبيعيّ. لنقُلْ الأمر ذاته بشكل أفضل: إنّ هذه الكثافة التـي مـرّت عبـر أجـزاء معيّنـة مـن الكيـان المـادّيّ عرّفـت الحساسـيّة والعصبيّـة لكلّ ما هو حيّ. لـم تكـن الطّبيعة ميّتةً! لقد كانت تعيش وفقَ مبدأ عنيفٍ، المبدأ الّذي بإمكان الإنسان المعاصر أن يُعجب به على غرار الإنسـان البدائيّ الّذي انشدّ إلى سرّ النار والذي كان يأمل في ترويضها بدوره.

إنّهـا تمامًـا الصّـورة الغامضة نفسـها الّتي أثـارت أوروبّا وحرّكت مشروعها المُسمّى بالحداثة، هذا لأنّها الّتي – وبعد مشروع عقلنة الحركة والمادّة– جعلت العالم ملائمًا للعيش، وليـس ملائمًا فقط للتّفكير كما للمعرفة. من الممكن التّفكير

في العالم بشكل منطقيّ من دون كثافة، ولكنّ العيش فيه لا يقدّم أيّ منظور آخر غير اكتئاب عامّ للكائن، وذلك نتيجة للتّاريخ الميتافيزيقيّ والفيزيائيّ الأوروبيّ البطيء الّذي عقلن الفضاء والحركة والمادّة والطّاقة المنبعثة من كل شيء.

جاءت الصّورة المبهرة للتيّار الكهربائيّ من ذاك التمثّل الحسابيّ الكونيّ، ومن كثافته المرغوبة لإنقاذ العقل الحديث من الرّكود. لقد كانت الكهرباء بمثابة مؤشّر دالّ على القوّة المكبوتة الّتي تسكن الطبيعة وتسكننا، وسواء أكانت مروّضة أو عصيّة عن التّرويض، محدّدة أو مختلفة: هي مكثّفة.

٢

فكرة

من أجل مقارنة الشّيء بذاته

كلّ هذا بفضل الطّاقة

لمحتُ ذات تجوال بزوغَ أولى بوادر النّهار. كان كلّ شيء مُشعًّا. حتّى إنّ الألوان الدّاكنة النّابعة في المناظر الطبيعيّة كانت قد تغيّرت قُبيل حلول الفجر ببضع دقائق. راحت الأشكال الغامضة الملتفّة بظلمة خفيفة تتّخذ ألوانًا مغايرة لتكشف عن مسحتها الأكثر دقّة، وبدت لي درجات الرّماديّ والأصفر والأخضر أكثر حدّة ووضوحًا. سرعان ما عمّ النّور كلّ شيء منذ الأفق المُشرفِ على السّهول، حتّى أنّ والهواء نفسه بدا وكأنّه يزداد إشراقًا شيئًا فشيئًا، هذا دونَ أن أتمكّن من تحديد في أيّ لحظة من تجوالي بدأ كلّ هذا التّغيّر اليوميّ بالحدوث. كان ضجيج الحيوانات كذلك وخصوصًا شدو العصافير يزداد قوّة. لا شيء جديد يحدث، مع أنّ كلّ

شيءٍ يبدو متغيّرًا: راح العالم ذاته يكشف عن نفسه من حولي لكنّه كان بضوء أكثر كثافة. بإمكاني أن ألمس في استعادة هذا المشهد سلسلة من حالات الأنحاء المحيطة بي والمرتّبة وفق درجات متفاوتة من الوضوح، لكنّي للأسف سأفقد كلّ إحساس بالصّيرورة والاستمراريّة حيث لا وجود للعديد من المناظر الطبيعيّة المتلاحقة، لقد تمكّن هذا المشهد الّذي أمامي من اكتساب وضوحه دون أن يصبح مشهدًا آخر. كما أنّني أستطيع أن أتخيّل نفسي وحيدًا أمام مشهد متحرّك، بصورة واحدة منذ بداية اللّقطة إلى آخرها. وإنّ ذلك مضيعة للوقت: لن أتمكّن من مقارنة البلد وهو في السّواد المطلق منذ بدايته والبلد وهو نابض بالحياة ومُشرق بعد بضع دقائق: فمن أجل قياس الفرق بين الحالتيْن لا بدّ من أن أميّز بينهما أوّلًا.

ينطبق الأمر نفسُه على كلّ ما يقدّم نفسه لي كتنوّع: وبما أنّي ضحيّة صداع ثقيل ومتواصل، صداع لا يكفّ عن الازدياد، أشعر بكثافةِ هذا الألم بوضوحٍ غير أنّي بالكاد أستطيع التّفكير فيه. لماذا؟ لأنّي إذا ما حاولت تقييمَ هذه المعاناة الإضافيّة الّتي استبدّت بي منذ استيقاظي صباحًا،

فإنّه يتعيّن عليّ أن أستعين بعمليّة طرح ذهنيّة كي أتمكّن من تصوّر ألمي الآنيّ بعد أن أنزع عنه فكرة الألم «البَعْديّ»: أمّا الباقي الّذي أحصل عليه فهو درجة ألم إضافيّ اكتسبته في الأثناء. لذلك، ينبغي عليّ أن أفصل بين هذين الألميْن وأن أقارنهما من الخارج، بالطّريقة نفسها الّتي نقارن وفقها شخصًا أطول بآخرَ أقلّ طولًا. ومنذ تلك اللّحظة، لم يعد بإمكاني التّفكير بكثافة معاناتي، لأنّ بين هذين العنصريْنِ المنفصليْن عن بعضهما بعضًا لا وجود لتنوّعٍ في الكثافة بل هو مجرّد اختلاف في الامتداد: ثمّة ألم أشدّ من آخر مثلما كان الشّخص الأوّل أكثر طولًا من الثّاني أو مثلما يكون حيّز فضائيّ أكثر امتدادًا من آخر. لو حدث وأن جزّأتُ ألمي، فإنّي سأجدُ نفسي عاجزًا عن التّفكير بتّنوع الكثافة الّتي أريد تقييمها: إذا ما كان ألمي هو نفسه منذ الصّباح إلى حدود هذه اللّحظة، فلا يمكنني أن أجده أقوى هنا وأضعف هناك، سيبقى متطابقًا.

قد تبدو الفكرة غامضة. لماذا عليّ تجزئة جملة مفاهيم لأمر ماثل أمام إدراكي باستمرار ووضوح؟ لستُ بحاجة إلى معرفة ذلك فأنا أشعر به: الشّيء يتنوّع، يتغيّر، يتحوّل. ومع

ذلك، فإنّ من أهمّ مهامّ الكائن المُفكّر، وأكبر الصّعوبات الّتي يواجهها هي التّالي: استيعاب مقارنة الشّيء بذاته لا بشيء آخر من خلال الكلمات. فالتّجربة الأساسيّة الّتي يعيشها أيّ جسم حيّ، جسم يشعر بكلّ تغيير يطرأ من حوله، هي تجربة متكوّنة من سلسلة لا نهائيّة من العمليّات المجهريّة الّتي من شأنها أن تربط الكائن ربطًا مستمرًّا بما كان عليه الماضي عبر ذاكرته، هكذا يبدو لنا هذا الشّخص أو ذاك أطول بقليل أو أقلّ ضخامة إلخ... بكلّ حال يبدو لنا مختلفًا عمّا كان عليه، وهكذا يحدث أيضًا مع الطّفل الّذي كبر منذ آخر مرّة رأيناه فيها، وهكذا يبدو لنا الحبّ الّذي وُلِدَ فينا والبحر الّذي لا يكفّ عن الارتفاع أمام أعيننا والشّجرة الّتي قطعناها نهاية ذات شتاء. لكنّ خصائص هذه الأشياء تتقلّب أيضًا: شأن الضّوء الّذي يتناقص والبرد الّذي يزداد انتشارًا وضجيج الحفلات الّذي يزداد انخفاضًا. وبما أنّني قادرٌ على التّكلّم فإنّه يتحتّمُ عليّ أن أفكّر في التّعبير عن هذه التّقلّبات الِّتي تحدث أمام عينيّ.

لذلك كانت فكرة القوّة هي الفكرة التي فُرضت على الفكر الغربيّ التّقليديّ من أجل تحديد مفهوم التّنوّع الذّاتيّ.

فـ«الدّيناميكيّـة» اليونانيّـة القديمـة كما يعرّفها أرسـطو كانت قبل كلّ شيء آليّة رائعة لمقارنة كلّ كائن بنفسه.

وإنّ البرعم أو الطّفل هُمَا ما هُمَا عَلَيْه، لكنّهما في الوقت نفسـه وفق منطق القوّة هما ما سـيصبحان في المسـتقبل. لقد ظلّت القوّة - الّتي هي نفسـها الدّيناميكيّة الإغريقيّة - لقرون عديدة الأداة الأساسـيّة الّتي اسـتخدمتها الفلسـفة الغربيّة من أجل هدف وحيد أوحد وهو إعادة الموضوع إلى ذاته: عبارة عن شـكل تمّ زرعه في قلب الأشياء، خلاصة القول إنّ القوّة كانـت «التّـدرّج الدّاخلـيّ» لكلّ شـيء كما هو. وبمـا أنّ كلّ شـيء يحتوي في داخله على فكرة تَحَقُّقِهِ (مآله في الحركة)، فـإنّ الفكـر الإغريقـيّ ومـن بعـده المسـيحيّ، قد تـزوّد بأداة للقيـاس مـن أجـل الفهـم والإدراك حتّـى تتسـنّى مقارنة هذا الشّـيء الّـذي هنـا، أمامنا، بشـكله المثالـيّ الّـذي يحمله في داخله كأمثل ما يكون والّذي يمكن أن يتحوّل إلى حركة. لي أن ألمـح مثـلًا في كتلـة من الرّخـام ما يمكـن أن يصبح عليه الحجر في المسـتقبل -أجمل التّماثيل بالخصوص- كما لي أن أخمّـن فِي البرعم زهرة متفتّحة وفي الطّفل رجلًا ناضجًا، وهكـذا يتحـدّد تمامًا في أذهاننا كلّ تصوّر فريد لشـيء ينتمي

إلى العالم وفق سُلّم داخليّ يرافق تلك الأشياء، وهو ما يتيح لنا أيضًا تحديد في المستوى الّذي يتحقّق فيه الشّيء في ذاته وفي تمثيله الذّهنيّ eidos (أي المستوى الّذي سيحقّق شكله الأمثل).

إنّنا ندرك تمامًا إلى أيّ درجةٍ سمحت «الكسمولوجيا La cosmologie[1]» المُتوارثة عن أرسطو لِلْعيْن والعقل البشريّين بأن يتحكّما في الكثافة الفيزيائيّة أو الرّوحيّة، أي في ترتيب الفوضى من حول الإنسان وفق منطق ازدياد القوّة المنبعثة من كلّ شيء ونقصانها.

وبما أنّ كلّ كائنٍ طبيعيٍّ يُخفي مثل هذا المعيار الدّاخليّ والمثاليّ، فإنّ لا شيء يظلّ مستقلاً بذاته: فأنا نفسي، ومن أجل أن أوجّه نفسي في هذا الوجود، أتيحت لي فرصة التّواجد عامًا بعد عام، على بعض المقاييس الحميمة، حيث تشير الدّرجة القصوى إلى تحقّقي الكامل للحركة وبذلك أشغل في كلّ لحظة درجة متوسّطة. لقد كانت القوّة عبارةً عن هذا التدرّج في الكثافات الذّاتيّة الّتي يحملها كلّ كائن في داخله مثل هويّته الأكثر ضرورةً. هكذا كانت الكائناتُ

(١) الكسمولوجيا: علم الكون.

مشحونةً -تحت التّأثير الأرسطيّ - إلى حدود العصر الكلاسيكيّ بكثافة داخليّة مدهشة: تنغلق كلّ من الشّجرة والإنسان والتّمثال، على فكرتها في عمق كينونتها، أي على درجتها القصوى من التّحقّق، ويمكن أن تُدفعَ بالفكر إلى تلك الحالة القصوى من الاكتمال، إذ الفكر ليس شيئًا آخر عدا قياس مستمرّ للمسافة الفاصلة بين الشّيء الآنيّ والشّيء المثاليّ والمكتمل.

أكثر أو أقلّ

لا يمكن لنماء كلّ كائن طبيعيّ أن ينحصر على الرّغم من ذلك كلّه في علاقته بفكرته الخاصّة. هذا لأنّ تقييم درجة الكمال المتعلّقة بكلّ مادّة يُعدّ إشكاليّة حقيقيّة، فقياس التّنوّع البسيط الّذي قد يطرأ على نوعيّة هذه المادّة يتضمّن أشياء أخرى: مثل لمعان مساحة ما وبياضها المتزايديْن أو المتناقصيْن بلا انقطاع، وإني أدرك هذه التّحويرات ولكن كيف لي أن أفكّر فيها؟

لا تبدو العمليّة الّتي يصبح فيها الضّوء أكثر أو أقلّ قوّة وأكثر أو أقلّ وضوحًا، واسعة الامتداد تمامًا. نطلق صفة

«الامتداد» هذه انطلاقًا من المقارنة بين أشياء منفصلة، وهي مقارنة تخصّ علاقة خارجيّة تمامًا: يُضاف إلى الشّيء الأصغر حجمًا كميّة من المادّة أو حيّز فضائيّ بالطّريقة نفسها الّتي يُضاف وفقها ١ إلى ٤ كي يكوّنا ال-٥. غير أنّ الكثافة الّتي لَمْ تُسَمَّ بهذا الاسم من قِبل أرسطو والّتي ظلّت مفهومًا غامضًا إلى حدود العصور الوسطى تمثّل -اليوم- تحدّيًا غريبًا أمام الفكر: هو وجه أليف للتّغيّر ويفترض تغيّرًا غير ممتدّ للصّفات. شيء لا يمتدّ ولا يتقلّص في تغيّره ولا يتحوّل إلى شيء آخر رغم ذلك. شيء لا يُضاف إليه شيء من الخارج لكنه يبدو من الدّاخل متناميًا أو متناقصًا وفي الوقت نفسه متشبّثًا بما هو عليه. هو فقط الضّوء نفسه الّذي يزداد وضوحًا أو غموضًا. يتّجهُ الاهتمام في النّصوص الأرسطيّة إلى انفعالات الجسد (كالحرارة والضّوء) كما يتّجه إلى انفعالات الرّوح (كالغضب والرّغبة المتزايدة أو المتناقصة في النفس). وقد تساءل أرسطو في مرّاتٍ عدّةٍ حول ما يتيح قيَاس مثل هذا التّنوّع، الزّائد أو النّاقص، والّذي لا يفترض إضافة أيّ جزء من خلال جزء آخر، ولا أيّ إنقاص أو زيادة خارجيّتيْنِ؟ كيف يمكن إذن مقارنة صفة بنفسها؟ كيف

نجدها متطابقة وفي الوقت نفسه «أكثر أو أقلّ ممّا هي عليه»؟

عندما يزداد الحائط بياضًا أكثر فأكثر، عندما يزداد المشهد وضوحًا، عندما يزداد غضبي أكثر فأكثر، فإنّه في حقيقة الأمر، لا الحائط ولا المشهد ولا حتّى أنا قد تغيّرنا. إنّها ركيزة الكائن أي جوهره وهي ليست عرضة للتّغيّر النّوعيّ. لكن، على هذه الرّافعة الثّابتة الخاصّة بالكائن والّتي تمثّلُ الجوهر ثمّة بعض الصّفات الّتي عَلِقَتْ - مثل اللّون والوزن والحرارة أو العواطف - وهي صفات في غدوٍّ ورواحٍ دؤوبيْنِ.

أن نفهم كيفَ لشيءٍ أن يصبح أكثر أو أقلّ حرارةً، أكثر أو أقلّ وضوحًا، أكثر أو أقلّ صلابةً، أكثر أو أقلّ دقّةً يعني التّفطّن إلى الطّريقةِ الّتي وفقها شهدت الصّفات «تكثيفًا» (ما يعني الازدياد) أو «فتورًا» (ما يعني النّقصان) وأن نستعيد الانعكاس الذي بدأه أرسطو حول التّصنيفات: «مرّة أخرى، يقال على الشّيء إنّه أكثر كذا وكذا أو أقلّ كذا وكذا من ذاته، ويُقَال على الجسم الشّاحب إنّه أكثر شحوبًا ممّا كان عليه...» فبالنّسبة إلى أرسطو، يعني التّكثيف والفتور دون شكّ نوعًا من التّحوّل المحدود الّذي لا يطال عمق الأشياء. ويقصد

أرسطو بهذا «التّحوّل» تغيّرًا ما، كأن يتحوّل الشّيء إلى شيءٍ آخر. أمّا في الحالات الّتي تهمّنا، يبقى الشّـيء هو نفسه لكنّه يزداد أو يفتُرُ على مستوى كثافة إحدى خاصّيّاته. يتغيّر الشّيء نعم، لكنّ يظلّ الشّيء ذاتَه.

يبـدو أنّ أرسـطو قـد حسـم هـذه المفارقـة مـن خـلال استخدامه مـرّةً أخـرى لتصنيفات تخـصّ القـوّة والفعل: إنّ تنوّع كثافة صفة ما يرتبط بوظيفة عكسـية، فكلّما زادت القوّة المعاكسة للصّفة، أصبحت الصفة أكثر فعاليّةً. بعبارة أخرى: مـا دامـت قتامة الجدار أقلّ واقعيّة ولكـن أكثر إمكانيّة يصبح وضـوح الجـدار أكثـر واقعيّة ولكن أقـلّ إمكانيّـة. لقد كانت القـوّة إذن مبدأ للتّفسـير الّـذي لا يطال فقط التّنـوّع التّكامليّ لـدى الكائنـات الطّبيعيّة بـل يتجاوزها إلى تنـوّع الكثافة الّتي تميّـز صفاتهـا. كثيـرة هـي المعـارف اليونانيّـة واللاّتينيّـة والمسـيحيّة والعربيّة الإسـلاميّة الّتي قامت على هذه الفكرة، والّتي سمحت بعقلنة الهويّة والتّغيّر.

لـم يعد هذا المبدأ مرضيًا بعد ذلك.

إنّ تاريخ ما يُسمّى «خطوط عرض الأشكال» قد أتاحت لفلسـفة القرون الوسـطى فَهْمَ الكيفيّة التي أدّت فيها مشـكلة

التّكثيف l'intensio والفتور la remissio في الصّفات إلى التّخلّي التّدريجيّ عن أيّ تفسير للتّغيّر من خلال قوّة قياس ذلك التغيّر عبر الكميّات والأحجام الممتدّة. في الغرب، تمّ التخلّي عن الإيمان بفكرة القوّة شيئًا فشيئًا. إذ تبدو مسألة «الأكثر أو الأقلّ» المتوارثة عن أرسطو قد وفّرت في بدايتها عددًا من الحلول من خلال محاولة الملاءمة بين القوّة والقياس. بعد ذلك، تمّ توجيه هذين المعطييْن بشكل يقلّص من كثافة القوّة إلى الامتداد.

يكمن الخلل في كلّ تفسير ميتافيزيقيّ قائم على القوّة بلا شكّ في كونها تفسيرات لم تكن تسمح بتحديد كمّي للتّنوّع وفي حين أصبح من المهمّ أكثر فأكثر بالنّسبة إلى العلوم الأوروبيّة السّعي إلى وضع قياس كمّيّ للحركة، كان من الضّروري التّوصّل إلى التفكير بأنّ التغيّرات التي تطرأ على الضّوء والضّجيج وكلّ الخصائصِ الأخرى المُشابهة لم تعد تتمسّك سوى باللّعبة الميتافيزيقيّة الدّائرة بين القوّة وتحديث صفات كلّ شيء على حدة، غير أنها كانت نتيجة تّغيّر فيزيائيّ قابل للقياس. لقد كان يمكن تقييم مدى انخفاض الضّوء، ومدى ارتفاع الضّجيج. لهذا السّبب، تمّ إخضاع

المفهوم النّوعيّ المحض للتّنوّع عند أرسطو لتأويل كمّي متزايد من قبل فلاسفة القرون الوسطى، وصولًا إلى التّحديد الكمّيِّ الكامل للصّفات والحركة ممّا سمح بوضع مفهوم للمادّة بوصفها امتدادًا من قِبَلِ ديكارت وصولًا إلى تشكيل الميكانيكا عند نيوتن.

إنّ مشكلة القرون الوسطى الأساسيّة قد تلخّصت في السّؤال عن تكثيف أو فتور «المحبة» وبالتّالي الحبّ السّاكن في الرّوح البشريّة. عندما أُحِبُّ أكثر في منظور أرسطو، فلا إمكانيّة لإضافة القليل من الحب على ما لديّ في الأصل. تظلّ الصّفة الشّاملة كما هي بلا تغيّر يُذكر، فالعلاقة الدّاخليّة بين مصطلحيه المتناقضين هي فقط الّتي تشكّل تحدّيًا في توازن القوى. لذلك يمنع هذا المفهوم قياس درجة الحبّ في كلّ لحظة هذا لأنّي سأجد نفسي حبيس حلقة مفرغة: إنّ تحديد كمّية الحبّ الّتي في قلبي خلال اللّحظة «ت»، ليست غير تحديد كمّيّة اللّاحبّ المقابلة لها، ويقتضي تعريف هذه تعريف تِلْكَ. ففي غياب آلة قياس خارجيّة يستحيل قياس أيّ شيء يزيد أو ينقص.

من أجل تحقيقِ ذلك، لابدّ من الاعتراف كما فعل

مفسّرو القرون الوسطى مع نظريّة أرسطو، بأنّ الصّفات ليست كائنات محدّدة بدقّة، وبأنّها تستوجب «خطّ عرض» قابل للقياس والجمع أو الطّرح في ذاته، دون أن يتحوّل رغم ذلك إلى شيءٍ آخر. فوضوح النّهار هو ذاك الّذي أستطيع أن أنقص منه كمّية صغيرة من دون أن يكفّ عن كونه وضوحًا. تفترض مثل هذه الفكرة بكلّ تأكيد أنّ صفةً ما تستطيع أن تكون قابلة للتّقسيم إلى أجزاء صغيرة قابلة للقياس الكمّيّ. ثمّة درجات فرح ودرجات ألم إذن مثلها مثل الدّرجات الّتي قد تميّز اللّون الأبيض، إنّ فكرة هذه «الكميّة المكثّفة» أو ذاك «الحجم المكثّف» هي مفتاح فهم للعقلنة من خلال علوم طبيعة التّغيّر أي مقارنة الذات بالذات.

يمكن أن نتوقّع في البداية نوعًا من التّردّد الفلسفيّ طويل الأمد الّذي ساد القرون الوسطى حول شروط هذه العقلنة. ففي مفهوم «جودفري دي فونتاينز[١]» على سبيل المثال أو حتّى «والتر برلي[٢]» تتجدّد كلُّ صفة كليًّا ما إن تتغيّر: فمن

(١) جودفري دي فونتاينز (١٢٥٠-١٣٠٩)، فيلسوف علميّ ولاهوتيّ من أصل فرنسيّ.

(٢) والتر برلي (١٢٧٥-١٣٤٤)، فيلسوف إنجليزّي وعالم منطق له أعمال عديدة تُعنى بالمنطق والفلسفة الطّبيعيّة.

ثانية إلى أخرى، يصبح هذا المشهد الّذي أتأمله الآن والذي يزداد قتامةً في الظلام مشهدًا آخر عدّة مرّات. إنّه في كلّ لحظة مشهد مستقلّ بذاته تحت درجة معيّنة من الضّوء. بعد برهة، وعلى الرّغم من أنّه يبدو مشهدًا جديدًا لكنّه يظلّ من النّوع نفسه، إلاّ أنّه مشهد جديد حقًّا، أكثر قتامةً وعلى استعداد كامل لاستيعاب قتامة أشدّ. أمّا إذا ما كنت أشعر بفرح متعاظم في قلبي أكثر فأكثر، فذلك يعني أنّ قلبي يزداد انعدامًا بين اللّحظة والأخرى ليحلّ محلّه قلب آخر حيث يكون فيه الفرح مكتملًا. ها هنا يمثّل تعريف كلّ ما هو متنوّع إشكاليّة حقيقيّة: إذ يجب التّمكن من تجزئة الوقت إلى سلسلة لا نهائيّةٍ من البُرْهاتِ، أي إلى نُسخ لا نهائيّة من الشّيء نفسه، لتخضع كلّ واحدة إلى كثافة معيّنة. وهكذا نفقد مكسب الكثافة بوصفها مقياسًا لمقارنة الشّيء بذاتِهِ: بما أنّ كلّ درجة تعادلُ شيئًا مميّزا.

لذلك فقط فَهِمَت «الرّهبنة الفرنسيسكانيّة» les franciscains[1] برؤيتها القائمة على التنميةِ المُستدامة مثلها

---

(١) الرّهبنة الفرنسيسكانيّة: رهبنة كاثوليكيّة تأسّست على يد القدّيس «فرنسيس الأسيزي» (١١٨١-١٢٢٦) في شمال إيطاليا وتقوم =

مثل الجماعة المُسمّاة بـ «رياضيّي أوكسفورد» calculateurs d'Oxford[1] التّكثيفَ على أنّه إضافة جزئيّة تخصّ الصّفة وليس تجديدًا تامًّا. فإذا ما كنتُ أشعرُ بأنّني أقلّ حزنًا فهذا يعني أنّ جزءًا صغيرًا من حزني قد اختفى. وهكذا يتمّ معالجة الصّفة بوصفها كميّةً: لم يعد الحزن والفرح والبياض والوضوح والعطر يُعتبر أشكالًا غير قابلة للتّجزئة، ولكنّ هذه الأشكال تُعتبر مثل نتيجة عمليّة البناء والتّفكيك، جزءًا تلو آجر، يمكن قياسها وحسابها.

لم يعد الأمر يتعلّق بقوّة داخليّة إذن: فكلّ ما هو قابلٌ للتنوّع قابل لأن يتقلّص مع مرور السّنوات الجيّدة والسيّئة إلى كمّية، وبكلّ الأحوال، إلى فضاء متجانس مُجزّأ جزءًا جزءًا يسمح بالمقارنة والقياس. نصبح في هذه الحال أمام

= على الاهتمام بالفقراء والعمل على تحسين وضعهم عبر ما يُسمونه «التّنمية المستدامة» فقد تخلّى الأسيزي عن ثروته لصالح الفقراء ليصبح فقيرًا مثل المسيح.

(١) حاسبو أوكسفورد: حركة فكريّة ظهرت خلال القرن الرّابع عشر بجامعة أوكسفورد وتقوم على تقديم مقاربة رياضيّة لكلّ قضيّة فلسفيّة، ومن أهمّ ممثلي هذه الحركة توماس برادواردن (١٣٠٠-١٣٤٩) وجان دمبلوتون (١٣١٠-١٣٤٩).

عالم لم يعد متكوّنًا من موادّ متميّزةٍ، عالمٍ تغصّ كلّ مادّة من موادّه بالطّاقةِ وترضخُ كلّ صفاتِه للتّنوِّع تبعًا لعلاقة قوة خفية بين الصفة ونقيضها. إنّنا أمام عالم عقلانيّ حيث يتميّز كلّ شيء فيه بالامتداد وبقابليّته للتّجزئة ومهيّأ لأن يخضع لأيّ قوّة كونيّةٍ.

بفضل القوّة

يمثّل العصر الكلاسيكيّ من ناحية العلوم اللّحظة الّتي تراجعت فيها كلّ كثافة إلى حدّ انعدامها: فقد كان الفكر الكلاسيكيّ يعرّف الموضوعيّة أنّها غياب للكثافة ما يعني غيابًا للامتداد أيضًا، وهو الأمر الّذي فسح الطّريق أمام تشكّل ميكانيكا نيوتن العامّة. لم يكن ثمّة تلك «الأكثر أو الأقلّ» في عمق الأشياء. وقد مثّل «الجوهر الممتدّ» الدّيكارتيّ، بوصفه دعمًا بسيطًا للتّحوّلات الهندسيّة، الأمل في الحصول على مادّة متجانسة وغير متمايزة، والّتي لا تتكوّن من موادّ مفردة تحمل كل واحدة منها القوّة، إنّما تتكوّن من عجينة قابلة للتمدّد والتّشكل مثل عصيدة خالية من الأفكار والطاقة: فهذه المادّة المبهمة الموضوعة على ذمّة العلم الحديث هي ذاتها في كلّ نقطة من نقاطها، حيث تُضاف أجزاؤها الواحد

إلـى الآخـر من الخارج وذلـك عبر التّركيـب أو التّفكيك. لا شـيء في المادّة من شـأنه أن يُخفيَ كثافات متنوّعة أو بمعنى أدقّ لا شيء في الطّبيعة أكثر أو أقلّ ممّا هو عليه.

إليكـم الموضـوع الّـذي انكبّ عليـه العلم الكلاسـيكيّ ومـن بعـده الحديث: كائن موزّع بالتّسـاوي وهو تماما ما هو عليـه. لا وجـود لجـزء من العالـم أفضـل أو أكثـر اكتمالًا من جـزءٍ آخـر: فهو قابـل للقياس مـن الخارج، حيـث يمكننا أن نحدّد حجمه وكتلته وأن نخضعه لقوّة متغيّرة. لكنّه يظلّ جزءًا مساويًا لذاته مثله مثل أيّ جزء آخر من الطّبيعة، جزء مجهول بلا هويّة ولا خصوصيّة على الإطلاق.

وقد أُعلِن عن القرار النّيوتنيّ بوضوحٍ في «كتاب الأصول الرّياضيّـة للفلسـفة الطّبيعيّـة[1]»: «ينبغي التّعامـل معَ صفات الأجسـام الّتـي لا تقبـل الكثافة ولا الفُتـور التّدريجـيّ والّتي تنتمي إلى كلّ الأجسام القابلة لكي نجري عليها تجربتنا على أنّها صفات عالميّة لهذه الأجسام كيفما كانت.»

---

(١) الأصـول الرّياضيّـة للفلسـفة الطّبيعيّـة: عمـل متكـوّن مـن ثلاثة كتبٍ لإسحاق نيوتن (١٦٤٢-١٧٢٧) وفيه صياغةٌ لقوانين الحركة النّيوتنيّة الّتي تُعدّ أساس الميكانيكا الكلاسيكيّة.

في حين كانت القوّة داخليّة إلى حدّ ما، تسكنُ وتلازمُ كلّ كيان ينتمي إلى عالمنا، فإنّ القوّة الّتي حدّد لها نيوتن مفهومًا علميًّا على الرّغم من عدم وجود تعريف صارم لها في «كتاب الأصول» (إذ يبقى المصطلحُ بدائيًّا يسمح بتعريف الأشياء الأخرى ولكنه لا يقدر على ذلك مع نفسه)، تتلقّى القوّة كلّ الكثافة الّتي تلفظها المادّة ويسجنها الفعل المبهم لكلّ ما يدفع الأجسامَ إلى الحركة. لنلخّص الأمر على النّحو التّالي: تقسّم الحقبة الكلاسيكيّة الكائن إلى جانب سلبيّ وغير مكثّف على الإطلاق (المادّة أو الأجسام) وجانب آخر مكثّف لكنّه غير متناسق (القوّة). كلّ ما يتمّ تحريكه هو بلا كثافة وكلّ ما يدفع إلى الحركة هو متنوّعٌ ما يعني أنّه كثيفٌ. كلّ ما يتمّ تحريكه هو جسم من الأجسام وكلّ ما يَدْفع إلى الحركة هو بلا جسم. وهكذا تصبح القوّة كثافة اللاشيء المسلّطة على كلّ شيء.

إنّ من أهمّ البوادر وأكثرها إثارة للتّعليقات ضمن «قوانين» نيوتن هي تلك البادرة الّتي جدّت على إثر وضع شروط «للمنطق الاستقرائيّ» والمتمثّلة في قرار التّخلّي عن الاهتمام بصفات الأشياء الّتي تتزايد وتتناقص وفق درجات

معيّنة: فمن أجل أن تعقلن الميكانيكا الكلاسيكيّة الحركةَ، سَعَتْ في مرحلة أولى إلى محو التّنوّعات الّتي تخصّ الضّوء والحرارة والأصوات والرّوائح. وهكذا، لم يعد من قبيلِ التّميّز أن يكون الشّيء قابلا للقياس والإحصاء بواسطة العقل.

ما هي القوّةُ عند نيوتن؟ يمكن القول إنّها قوّة الأشياء المتفرّدة الّتي تجرّدت من شكلها الخاصّ ومن جوهرها الخفيّ ليتمّ إلحاقها خارجيًّا بالمادّة الممتدّة والمبهمة للعالم. للكثير من الموادّ المنفصلة إذن الكثير من القوى: هكذا كان نظام الكون في الماضي، هذا النّظام الّذي أصبحَ قديما في نظرنا. لا تُوجَدُ إلاّ قوّة واحدة وفق الفيزياء الكلاسيكيّة، وهي قوّة لا تسكن عمق كلّ كينونةٍ على حدة، بل هي مبدأ يقع خارج الأشياء، تنطبع على كلّ شيء من الخارج بعشوائيّة وتساوٍ. إنّ القوّةَ كما يفهمها نيوتن - على عكسِ القوّة وفق النّظرة الأرسطيّة الّتي كانت تُعطي شكلًا خاصّا لكلّ كينونة- هي قوّة لا تولي اهتمامًا لكلّ ما يشكّل هويّة الأشياء، بل تمثّل جملة من القيود الّتي لا تختلف عن الكيانات التي تتفاعل معها، إنّها تُمارس لا بزيادة أو بنقصان على كتلة متساوية

وشـكل يشبه البلّوط أو الزّان، الخشب أو الرّصاص، المعدن أو الجلد لا فرق. إنّها القوّة الكونيّة نفسـها الّتي تدفع بإنسـان إلى السّـقوط وبحصان إلى خوض سباقه وبريح إلى الهبوب أو بحجر إلى التّدحرجِ من علٍ.

فـي الحقيقةِ، تُوجَدُ قوّتان منفصلتـان أو بالأحرى تُوجَدُ سِـمَتان منفصلتان لهذه القوّة نفسـها الّتـي حدّدها نيوتن: قوّة مـن الدّاخل وهي قوّة القصـور الذّاتي، ما يعني صمود المادّة أمـام كلّ مـا ينطبع عليها وكلّ ما يمـارس عليها ضغطًا، وقوّة من الخارج تتمثّل في الضّغط بالمعنى المباشـر للكلمة، مثل الصّدمة الّتي يمارسها جسمٌ على جسمٍ آخر وفق قانون تكافؤ الفعل وردّ الفعل. تمثّل «قوّة القصور الذّاتي» و«قوّة الضّغط» وجهيْ الكتلة الجبليَّة نفسـها لهذه القوّة الهائلة الّتي لا تملك تعريفًا.

لإنهاء العلاقة مع الطّابع الميتافيزيقيّ للحراكيّة الأرسطيّة dynamis «البنومـاPneuma[1]» والرّواقيّـة[2] أو مـع مفاهيم

---

(١) البنوما Pneuma: انظر سابقا.

(٢) الرّواقيّـة: مذهب فلسـفي هِلنسـتيّ نشـأ على يـد الفيلسـوف اليوناني زينـون السّيشـومي فـي أثينا (بداية القـرن الثّالث قبـل الميلاد) وهي =

أخرى للطّاقة في معانيها البدائيّة المُعَبَّرُ عنها ضمن ثقافات «الكي qi»[١] و«البرانا prāṇa »[٢] و«السّوما Soma »[٣] فإنّ القوّةَ كفّت عن ادّعاء كونها مبدأ ميتافيزيقيّا واكتفت بأن تكون «فيزيائيّة». إلاّ أنّها ظلّت مبدأ على الرغم من ذلك، بما أنّها تمثّل موضوع تعريف دائريّ: فمن أجل أن نعرّف القوّة لا بدّ من افتراضِها مُسبقًا.

وقد أقنع استخدام مفهوم القوّة المسبقُ أتباعَ نيوتن الإنجليز على ما يبدو. ولكنّه سرعان ما أصبح مفهومًا غير مقبول بعد إن انتشر مشروع عقلنة الميكانيكا. كتب ترويسديل[٤] ملاحظا «بأنّ مفهوم القوّة يمثّل ضعفًا منهجيًّا لدى نيوتن، هذا الضّعف الّذي أدركه بكلّ وضوح أرنست

= فلسفة أساسها الأخلاقيّات الشّخصيّة الّتي تُستمدّ مباشرة من الطبيعة وقوانينها.

(١) الكي أو التشي qi: انظر سابقا

(٢) البارانا Prāṇa: انظر سابقا.

(٣) السّوما Sôma: كلمة مركّبة من "سو" وتعني الضّغط و "ما" وتعني الفعل وهي منحدرة من اللّغة السّنسكريتيّة القديمة وهي الطّاقة المقدّسة عموما.

(٤) كليفورد ترويسديل (١٩١٩-٢٠٠٠)، رياضيّ ومؤرّخ للعلوم أمريكي.

ماخ[١] على غرار لايبنتس[٢] ودالمبير[٣].» بعد قرابة خمسين سنة من ظهور «كتاب الأصول»، كان دالمبير يأمل فعليًّا اختزال القوّة إلى مجرّد مظهر بسيط من مظاهر الحركة، مستحضرًا القوى العاملة عند نويتن معتبرًا أنّها «كائنات غامضة وميتافيزيقيّة غير قادرة على فعل أيّ شيء ما عدا أن تلقيها ظلالُهَا على علم واضح في ذاته.» مثّل مفهوم القوّة الّذي ظلّ بلا تحديد حرجًا بالنّسبَة إلى الرّؤى الأكثر ماديّة، حرجًا أشدّ من ذاك الذي خلّفته [مادّة] «الأثير» في الفيزياء الكلاسيكيّة، لذلك كان لا بدّ من تحليله بواسطة مصطلحات من شأنها تبريره أو فليتمّ طرده إلى خارج دائرة العلم نهائيًّا.

---

(١) إرنست ماخ (١٨٣٨-١٩١٦)، فيزيائي وفيلسوف نمساوي مختصّ في دراسة حركة الأجسام وسرعتها. وقد عُرف بنقده لنيوتن.

(٢) غوتفريد لايبنتس (١٦٤٦-١٧١٦)، فيلسوف وعالم رياضة وعالم طبيعة ومحام ألمانيّ وقد عُرِف بتأسيسه لما يُسمّى علم التّفاضل والتّكامل في الرّياضيّات بشكل مختلف عن نيوتن.

(٣) لورن دالمبير (١٧١٧-١٧٨٣)، رياضي وفيلسوف فرنسيّ معروف بالخصوص بإشرافه على موسوعة الفنون والعلوم والحرف بالاشتراك مع الفيلسوف الفرنسي الشّهير «دنيس ديدرو» (١٧١٣-١٧٨٤) وبأبحاثه في الرّياضيّات وخصوصًا وضعه لأسس «الديناميكا» ودراسة قوانين الحركة.

وقد حاول ماخ وكيرشوف[1] بعد دالمبير أن يعيدا صياغة مشروع نيوتن في الميكانيكا العامّة وذلك عبر تجنّب الاعتماد على مفهوم القوّة ما أمكن دون أن يتوصّلا إلى إقناع الهيئة العلميّة مطلقًا.

كما لخّص بوانكاريه[2] خلال مؤتمر باريس الدّولي الّذي انعقد سنة ١٩٠٠ قَرْنَيْنِ من البحوث متسائلًا على الملأ إذا ما كانت المعادلة « ma=F » قابلة للتّحقّق تجريبيًّا، بما أنّنا -كما قال معترفًا -«ما زلنا لا نعرف ما تعنيه الكتلة [m] ولا القوّة [F]». ونقرأ في كُتيّب الفيزياء الصّادر مؤخّرًا لصاحبه «درانسفيلد» بأنّ القوّة «ليست قابلةً للتّعريف». هي سبب التّسارع، هي فعلًا سبب شيء حقيقيّ، شيء مرئيّ وقابلٍ للتّحديد الكمّي وهذا ما يجعلنا ننتهي إلى خلاصة مفادُهَا أنّ القوّة حقيقيّة رغم كلّ شيء. لكنّنا لا نملك ولو دليلًا واحدًا على ذلك.

---

(١) غوستاف روبرت كيرشوف (١٨٢٤-١٨٨٧)، فيزيائي ألماني معروف بـ«قوانين كيرشوف» المتعلّقة بإشعاع الجسم الأسود والتّحليل الطيفي والدّوائر الكهربائيّة والكيمياء الحراريّة.

(٢) هنري بوانكاريه (١٨٥٤-١٩١٢)، عالم فرنسيّ مختصّ في الرّياضيّات والفيزياء النّظريّة وكان فيلسوف علوم أيضًا. لبوانكاريه مساهماتٌ عديدةٌ في مجال الرّياضيّات التّطبيقيّة.

من المستحيل عقلنة القوّة، ومن المستحيل تجاوز ذلك.

إنّ القـوّة ضمن المنظومة النّيوتنيّـة الّتي ترثها أوروبّا منذ القرن الثّامن عشـر هي الكثافة الحقيقيّة والوحيدة. كلّ شـيء كما هو عليه لا أكثر ولا أقلّ: وحدها القوّة تتنوّع. إنّها القاعدة الّتي ستمثّل مفتاح العقلانيّة الكلاسيكيّة: لا شـيء يتنوّع في ذاته، ليست التّفاحة ولا أنا نفسي أكثر أو أقلّ ممّا نحنُ عليه. وهكذَا يُفسَّرُ كلّ تنوّع داخل الكائن فيزيائيًّا من خلال ممارسة قوّة ما.

وإنّ العقلانيّة الأوروبيّة هي في الأسـاس هذه المشـاركة العظيمـة: تتّجـه كل الهويـة صـوب الكينونـات، وتتجـه كلّ الكثافـة صـوب القوة. فالقوّة هـي التّنوّع الوحيد، وإنّ أشـياء العالـم لا تشـهد تغيّرًا من تلقاء نفسـها. لا وجود لإنسـان أكثرَ أو أقلَّ ممّا هو عليه. لا وجود لغُصَيْنٍ أكثَرَ أو أقلّ من الغُصين الّذي هو عليه. سيُعدُّ كلّ تفكير عكسَ ذلك تظاهرًا بقياسِ ما لا يُقاس: تغيّر الكائن في ذاته.

أمّا القوّة، فهي ليسـت سـوى تنوّع. ليسـت سـوى «أكثر أو أقلّ». لذلك فقط لا هويّة لها، والثّمن الّذي نحن مطالبون

بدفعـه مقابـل هذه الآليّـة هو أنّ القوّة ليسـت كيانًا: فهي غير قابلة للتّجسّـدِ وليسـت شـيئًا من تلك الأشـياء الّتي تُمارَسُ عليهـا فـي العالـم. إنّ القـوّة مجـرّد شـبح. إنّهـا كثافـةٌ غيـر ملموسـة وغيـر قابلـة للتّعريـف. فمـا هـو ملمـوس وقابـل للتّعريفِ لا يسـتوعب أيّ تنوّع في كثافة كيانه. وبالتّالي فإنّ تنوّع التّكثيف الكونيّ الّذي هو القوّة ليس ملموسًا ولا قابلًا للتّعريف.

ها هنا يكمن مصير العقلانيّة: فكلّما كان كلّ شيء مفسّرًا انفلت مبدأ التّفسـير من مجال الشّـيء المُفسَّـرِ، هـي الطّريقة نفسـها الّتـي وفقهـا يمضي مصـدر الضّوء في عـزل نقطة ظلّ تدريجيًّـا بينما هو يشـعّ علـى كلّ المكان. يمكـن أن نبرّر كلّ شيء باستثناء المنطق الّذي توخّيناه من أجل ذاك التّبرير. هذا هـو المفهوم الحديـث للقوّة بوصفهـا الأداة المتميّـزة لعقلنة الميكانيـكا والّتـي تظلّ على نحـو يائس عصيّة على التّفسـير رغم أنّ استخدامها قد أتاح لنا ذلك.

لقد أصبح العلم الّذي انفتح على كلّ شيء متعلّق بالقُوَى عاجزًا أكثر فأكثر عن إدراك ماهية القوّة في حدّ ذاتها.

اكتئاب ما بعد النّيوتنيّة post-newtonienne

دبّ خوف سرّيّ بعد انقضاء لحظة النّشوة الّتي خلّفها المشروع النّيوتنيّ، وهو خوف راح ينتقل من قرن إلى آخر عبر الفكر قبل أن يمتزج بكلّ الانتقادات الحديثة: وهو ما أنتج رهابَ اكتئاب العقل المُفتقر إلى كلّ كثافة. ونقصد بكلمة «اكتئاب» هنا، معناها السّيكولوجي المباشر والحرفيّ الدّقيق: انكماش الكائن الّذي يَهْوِي مثل فرقعة صادرة من فقّاعة مليئة بالتّخمينات الما قبل حداثيّة ليبدوَ مثلما هو، كائنًا مسطّحا تمامًا.

وقد أنتجت عقلنة العالم في الفكر الأوروبّيّ - وسط غياب كلّيّ لفكرة الكثافة -استحالة وصف فكرة أن يكون الشّيء أكثر أو أقلّ ممّا هو عليه خارج اللاّعقلانية، فالأمر يتجاوز قدرة حساب العقل خلال النّظر في مقياس الكيان فيما يتعلق بنفسه. الجبل جبلٌ في النّهاية. وإنّه الجبل الّذي هو عليهِ. فلا نقدر على مدحه إن كان جيّدًا بشكل خاصّ ولا على لومه إن كان أضعف بكثير ممّا ينبغي أن يكون عليه. عندما تتّضح ألوانه مع مطلع الشّمس، يمكنني تحليل ذاك

التّنوّع الّذي يطرأ على الأطياف المشعّة بكلّ موضوعيّة وأن أقيسها من ناحية اتّساع التّردّد أيضًا. وهكذا يمكنني أن أختزل مظهر تنوّع مكثّف إلى مجرّد سلسلة من الحالات المتتالية القابلة للعدّ.

يجب على كلّ تغيّر يطرأ على كثافة أيّ كائن أن يكون إمّا مُجزّأ ومفسّرًا عبر مصطلحات شموليّة، أو مُستنتجًا من الموضوع الّذي يدركه: ليست الكثافة الخالصة من هذا العالم وإنّما هي الشّعور بالعالم. إذا ما كنت متعبًا، سيبدو لي كلّ شيء بطيئًا، وإذا ما كنتُ نعسانًا سيبدو لي اليومُ شاحبًا. كما سيبدو العالم نفسه حيويًّا لإنسان يتلظّى من الشّهوة ورتيبًا لآخر غير مهتمّ بالحياة. لكنّ العالم في ذاته ليس حيويًّا ولا رتيبًا. كيف هو إذن؟ إنّه ممتدّ بكلّ بساطة. وإنّه يستحوذ على الفضاء والزّمن. لكنّه بلا كثافة. لا وجود لجزء من أجزائه أكثر قيمة من جزء آخر في ذاته. لا وجود لجزئيّة من هذا العالمِ هي أهل لكرامة أنطولوجيّة تفوق كرامة أيّ جزئيّة أخرى: لقطعةٍ من الرّخامِ الحجم نفسه للمادّة نفسها وهي مُتحلّلة، ولسنتيمتر مربّع من بشرةِ أجملِ امرأة المساحة نفسها لسنتمترٍ مربّع لبشرة امرأة مصابة بالجذام. ليس الجسم

الميّت أكثر من الجسم الّذي يعيش فهو يحتلّ الحيّز الفضائيّ نفسه. وليس للكائن درجة، هكذا يفكّر كلّ من يقتحم أبواب الحداثـة. فيما عدا ذلك، لو بدا لي بأنّه يمتلكها، فهذا التدرّج لا يتعلّق إلاّ بي دون غيري.

لنفتـرض الآتـي، وهـو أمـر كثيرًا مـا يحدث، بـأنّ العالـم سـيبدو لـي أقـلّ توهّجًـا وأكثر قتامـة كلّما تقدّمت فـي العمر وكلّمـا ازداد شـبابي ابتعادًا، قـد أقبَلُ فكـرة أنّ العالـم في حدّ ذاته ليس أقلّ توهّجًا من ذي قبل وأنّ تقلّباته تلك لا تتعلّق إلاّ بمزاجـي الخاصّ. لكنّني هنا أقصـي كلّ كثافة متعلّقة بالعالـم ليتـمّ حبسـها داخلـي أنـا، داخلـي الّـذي يصبـح مسـتودعها الوحيـد. فالأشـياء لا تمتلـك أيّ كثافة في ذاتهـا، فهي ما هي عليـه، قـد أضيـف إليهـا بعـض التّنوّعـات الخاصّـة بالنّبـرة والحيويّـة الّتـي ليسـت أكثر من انعـكاس لحالتي النّفسـيّة أو الجسديّة. كلّ شيء ممتدّ في الخارج، وكلّ شيء قابل للقياس قطعة بعد أخرى. أمّا في داخلي أنا، سيكون الشّعور الأكثر أو الأقـلّ كثافـة هـو مـا يلـوّن العالـم الخارجـيّ بتلك المسـحة المتغيّرة بحسب مزاجي.

أن نعرف الحقيقة بالنّسبة إلى العقليّة الحديثة هو إذن أن

نعلن الحداد على كلّ كثافة موضوعيّة تتعلّق بكلّ الأشياء وأن نقبل بأنه ليس هناك وجود لكثافات إلاّ في انطباعات كائنات حيّة دون غيرها وهي كائنات بشريّة على وجه الخصوص. لكنّ كلّ جزء من هذا العالم، بشكل موضوعيّ بعيد من كلّ ذاتيّة، ليس أكثر أو أقلّ من أيّ جزء آخر. لا شيء أكثر أو أقلّ ممّا هو عليه. وحدها القوّة المبذولة هي الّتي تتنوّع بحقّ.

هكذا إذن تظهر أولى بوادر اكتئابِ الوعي الحديث: لا يملك الموضوع مصادره إلاّ في ذاته من أجل العثور على شيء مكثّف. أمّا خارجه، فالحقيقة تقول إنّ لا شيء أفضل ولا شيء أقلّ. يتساوى كلّ شيء. ثمّة القوّة بالطّبع لتفسير الحركة والتّغيّر لكنها قوّة عمياء ومبهمة: فهي تتنوّع لكنّها غير ملموسة وتستحيل تجربتها بطريقة مباشرة.

إنّ الثّقافة الغربيّة المتوارثة عن عالم متكوّن من مادّة بلا كثافة وقوّة كونيّة تُمارَسُ من الخارج لا يمكن إثبات وجودها إلاّ من خلال آثارها قد شعرت بنقص قاس وبعجز واضح عن التّعريف. وإنّ العقلانيّة الحديثة قد تسكن أمام توسّع العالم في عمليّة الاكتمال، ذلك الشّعور الغامض بعالم أصبح

غير صالح للحياة، أو بصفة أدقّ بعالم صار غير قادر على توفير سبب واحد من شأنه التّحفيز كفايةً على مزيد من العيش والسّكن والتّجربة فيه، عالم عاجز عن إسعاف مخيّلتنا بصورة واقعيّة مؤثّرة ومثيرة.

فكرة لصورة ما.

ها هنا تمامًا برزت الكهرباء كمنقذة للموضوع الأوروبيّ الحديث من الرّكود التّامّ الّذي يهدّدها، فقد قامت بدور صورة جديدة للكثافة الّتي لم تعد العقلانيّة تسمح بتصوّرها في العالم بين الأشياء نفسها.

قد نفهم الآن بشكل أفضل ذلك الافتتان بالكهرباء الّذي هزّ الجمهور الأوروبيّ: لقد انتشلت المغناطيسيّة ومن بعدها الكهرباء الإنسان المعاصر من انهيار وشيك، سواء كان ذلك بوعي أو بلا وعي، وخلّصته من جزعه من العيش في عالم خال من كلّ كثافة خاصّة بكينونته كمقابل للحداثة. لكن لا! لقد تمّ شحن المادّة بالكامل! كان هناك تغيّر محفور في الطّبيعة، وكان يمرّ عبر الحياة والفكر، ولم يمثّل هذا التّغيّرُ القوّةَ القديمة الأرسطيّة، بل كانَ شحنة قيد الاحتمال، وكان

تِرْسًا تفاضليًّا بصدد إنتاج تيّار، شيئًا بصدد التّقدّم، شيئًا بصدد التّحوّل، بصددِ إحداث شرْخ في الكائن الممتدّ امتدادًا ساذجًا، بصدد هزّ المادّة هزًّا، شيئًا راح يفسّر الإحساس ويسعفه بقيمة ما في ذاته. لم تكن الكهرباء الّتي اعترف بها العلم الأوروبيّ لاعقلانيّة تمامًا: فعلى الرّغم من أنّها تبدو مختلفة في ظاهرها عن المادّة الخامّ وعن الحركة في شكلها المرئيّ إلاّ أنّها ظلّت قابلة لمختلف التأمّلات والقياسات غير المباشرة. لم تكن فكرة ميتافيزيقيّة مجرّدة، أو مبدأ يستحيل إثباته. لقد كانت بالأحرى حقيقة أدخلت في عمق المفهومِ العقلانيّ الحديث للعالم كثافةً وقياسًا لا للكميّة القابلة للتّجزئة جزءًا بعد جزءٍ فحسب وإنّما قياسًا لِدَفَقٍ من الطّاقةِ.

يمكننا التّأكيد إذن على وجود فكرة للكثافة إلى حدود القرن الثّامن عشر لكنّها ظلّت فكرة لا صورة لها. فالجدار الأكثر أو الأقلّ بياضًا، والمحبّة الأكثر أو الأقلّ ترسّخًا في الرّوح، والنّهار الأكثر أو الأقلّ ضياء تظلّ أشياء صادرة عن تُرّهات مدرسيّة - لها أهميّة في شكلها النّظريّ - لكن لا علاقة لها بالشّعور الإنسانيّ. بعد ذلك تخلّلت تاريخَ تَمَثُّلاَتِنا كصورة بديعة.

بـرزت من تلك الصّورة الفكرةُ الّتي كانت مخيّبة للآمال كما بـدت حينذاك: فالكهربـاء الّتي تمّ عقلنتهـا علميًّا بعد أن فقدت سرّها واُخْتُزلت إلى مجرّد مادّة ذات خصائص دقيقة لـم تفِ بوعودها النّظريّـة. لقد كانت في النّهاية: انتقالَ أجزاء صغيـرة أوّليّة ومشـحونة للمادّة إلى عمق مـادّة مُوصلة تحت تأثير تباين المقدرة الكهربائيّة.

لذلـك تهيّأ لنا بأنّ تحالفًـا غريبًا قد انعقد في عمق العقل الحديـث، تحالفًـا بين صورة تحتاج إلى فكـرة وفكرة تحتاج إلـى صورة: فبعد أن صرفت العقلانيّة الكلاسـيكيّة النّظر عن فكـرة كثافـة خالصة، ها هي الفكرة ذاتهـا تصبح اليوم مجرّدة وكأنّهـا تنبـع مـن الأرشـيف الأرسـطيّ أو السّكولاسـتيّ scolastique[1] ومـن التّغيّـر النّوعـيّ ومـن خطـوط العرض للأشـكال. لقد عانيْنا الكثير من أجل تمثّل عقلانيّ لما تكون عليـه الكثافـة فـي العالـم الّـذي أُعِيـدَ بناؤه مـن قِبَـلِ الفيزياء الجديـدة. وكانـت كثافـة التّيّـار الكهربائـيّ من ناحيـة أخرى

---

(١) السكولاسـتي scolastique: تعنـي الكلمـة "المدرسـيّ" وتطلـق على مدرسـة فلسفيّة سـادت في أوروبّا في العصور الوسـطى وكانت تنبني أساسًا على تحليلٍ فلسفيّ ونقديّ ينبني على أنموذج مسيحيّ ألوهيّ.

صـورة فائقـة الرّوعة سـحرت لـبّ الجمهور الأوروبـيّ إبّان اكتشـاف الكهرباء، وكانت ظاهرة نتعمّق في دراستها ونسعى إلـى تحليلها وتحديدهـا، فإنّ التيّار الكهربائـي الّذي مثّل في الآن نفسـه صـورة سـحريّة وعقلانيّـة باعتباره صـورة جديدة للتّحـوّل وللتّفريغ الطاقيّ وللرّغبة بل وللحياة نفسـها، قد بدا مطابقا لفكرة الخذلان.

هذا إضافة إلى أنّ صورة الكهرباء ودون تنسيق مسبق قد انتقلـت إلى عمق الفكرة القديمة المتعلّقة بالكثافة، لتتجسّـد هذه الفكرة العتيقة نفسها في صورة الكهرباء الحديثة، وهكذا نتـج مفهـوم جديد يمكن العثـور على أولى آثاره فـي المثاليّة الألـمانيّـة عند كانط[١] وشـيلن[٢] وهيجـل[٣] لتصبح فيما بعد

---

(١) إيمانويـل كانـط (١٧٢٤-١٨٠٤)، فيلسـوف ألمانـي وهـو أحـد أهمّ الفلاسفة الّذي نظّروا للمعرفة الكلاسيكيّة وكان من الّذين ساهموا في فلسفة عصر التّنوير.

(٢) فريديريك فيلهيلم يوزف شيلن (١٧٧٥-١٨٥٤) فيلسوف ألمانيّ من المساهمين في وضع المثاليّة الألمانيّة.

(٣) جـورج فيلهلـم فريدريش هيجـل (١٧٧٠-١٨٣١) فيلسـوف ألمانيّ ولعلّـه أهمّهـم معـروف بتطويـره للمنهج الجدلـي الّذي مـازال تأُثيره واضحا على الفلسفات المعاصرة.

الشّـخصيّة الرّئيسيّة الّتي تتصدّر المشـهد الفلسفيّ وذلك في الميتافيزيقا الحديثة لنيتشـه[1] وبرغسون[2] ووايتهيد[3] وحتّى دولوز[4].

وهكـذا أصبحتْ كلمة «الكثافة» تعنـي الآن التّغيّر الّذي يطـرأ على الصّفة وفي الوقت نفسـه المقيـاس الّذي به نقارن الشّـيء بذاتـه، أي مقياس التّغيّـر والصّيرورة. هـي عبارة عن اختلاف خالص، الأمر الّذي يتيح لنا تفسـير حساسـيّة الكائن الحـيّ والرّغبـة والّذي يجعـل الحياة جديـرة بالعيش، لذلك

---

(١) فريدريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠)، فيلسوف وناقد ولغويّ ألمانيّ من المساهمين الفعّالين في وضع أسس الفلسـفة الأوروبيّة المعاصرة.

(٢) هنري برغسون (١٨٥٩-١٩٤١)، فيلسوف فرنسيّ حصل على جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٢٧ ويُعدّ من أهمّ الفلاسفة في العصر الحديث.

(٣) ألفريـد نـورث وايتهيد (١٨٦١-١٩٤٧)، فيلسـوف وعالم رياضيّات إنجليزي، ويعرف بتأسيسه لما يُسمّى «فلسفة الصّيرورة» الّتي مازالت فاعلة إلى الآن وخصوصا في المجال الإيكولوجي وكذلك في التربية والفيزياء ومجالات علمية أخرى عديدة.

(٤) جيـل دولوز (١٩٢٥-١٩٩٥) فيلسـوف فرنسـيّ له أعمـال غزيرة في تخصّصـات عديـدة فـي الفلسـفة والفـنّ والنظريّـات الأدبيّـة وما بعد الحداثة.

فالكثافة تعني أيضًا قيمة كلّ ما ينفلت من الكمّيّة والامتداد - إنّها عبارة عن وميض كهربائيّ نهاية.

لو يُتَاح لنا إجراء تأصيل ما للكثافة بوصفها مبدأ للحياة الحديثة، سنكتشف لا محالة بأنّ هذا الأنموذج الّذي طالما وجّه حياتنا هو وليد فكرة مجرّدة للغاية وصورة ملموسة تماما، وقد انصهرتا الواحدة في الأخرى من أجل بثّ الحياة في سؤال نظريّ قديم راح ينبعث على شكل شرارة من الكثافة الكهربائيّة وينعش حقيقة الكهرباء كصفة ميتافيزيقيّة غامضة.

ومن هذا التّحالف برز مفهوم جديد.

٣

مفهوم ما
«ينبغي تأويل كلّ شيء وفق الكثافة»

الكثافة بوصفها استثناء.

فيمَ يتمثّل مفهوم الكثافة الّذي نشأ في الفلسفة الأوربيّة ولا سيّما الألمانيّة خلال القرن التّاسع عشر على وجه الدّقّة؟ إنّه يمثّل الكثافة الّتي لم يعد عدم قابليّتها للاختزال عيبًا يجب معالجته، بل صفة يجب الدّفاع عنها. أصبحت الكثافة مفهوما ميتافيزيقيّا في مجملها بوصفها تحالفا يجمع فكرة «الأكثر والأقلّ» والتّغيّر النّوعيّ والصّورة المرغوبة للتيّارِ الكهربائيّ: ففي الوقت الّذي كان فيه الفكر مرتبكًا أمام ما يميّز التّغيّر النّوعيّ للكمّيّات القابلة للقياس، حلّت الكهرباء كأنموذج مذهل لتقلب مفهومنا رأسًا على عقب، إلى درجة أنّ كلّ ما لا يقبل الاختزال من الكميّات المكثّفة لم يعد نقيصة بل صار ميزة.

نحا مفهوم «الحجم المكثّف» ابتداء من القرن التّاسع عشر منحى قياس شيء غير قابل للجمع بواسطة العدد أو بتجزئة الفضاء إلى أجزاء متوالية أو حتّى بالزّيادة والتّخفيضِ في كمّية ما. ففي مقابل مفهوم الامتداد الذي يكرّس التقسيم والنظام الكمّي، برز مفهوم الكثافة الذي يجمع كلّ ما ينفلت من «الحجم الممتدّ».

وقد بدأت كلمة «مكثّف» تخصّ الشّيء الّذي يبرز، مهما كان المجال الّذي ينتمي إليه، بوصفه كُلِّيَةً لا مجرّد مجموعة من الأجزاء الّتي يمكن تبيّنها، إنّه كلّ ما هو مباشر لا ما هو متعاقب، كلّ ما يمتلك حجما دون أن يكون قابلًا للتّرقيم بصفة مباشرة، كلّ ما هو متغيّر دون أن يتلاءم مع سلسلة من الحالات المنفصلة، كلّ ما يمتلك قيمة لكنّه غير قابل للمقارنة الفوريّة بأيّ شيء آخر، كلّ ما هو مستمرٌ دون أن يكون سرّيًا، كلّ ما يَنْتُج عن التّجربة الإدراكيّة الحميمة والدّاخليّة لا ذاك الّذي ينتج عن جملة من السّمات الظّاهرة والخارجيّة الخاصّة بأيّ ظاهرة. إنّ الكثافة تصبح قلعة، حِصْنًا حصينًا لمقاومة الامتداد والفضاء والعدد والكمّية ونظام التّكافؤ والتّبادل والعقلنة والتّعميم. فهي مقياس كلّ

شـيء متفـرّد بكلّ تنوّعاتـه الدّاخليّة - هذا علـى الرّغم من أنّ العلـم مكـرّس لمعرفـة ونَمْذَجَـةِ modélisation التّجربـة العموميّة وقوانينها، وكلّ ما يظهر أكثر من مرّة، وكل ما يتكرّر أكثر من مرّة.

وهكـذا تتّخذ الكثافـة وجها من أوجه الاسـتثناء بامتياز: فمـا يُعْتَبَـرُ مكثّفا هو كلّ ما تمّ اسـتثناؤه بسـبب عقلنة العالم، وكلّ ما هو متروك للإدراك الحميم والمتفرّد. إذْ يتعارض في أغلـب ميتافيزيقيّـات القـرن التّاسـع عشـر مَفْهُومَـا الامتـداد والكثافـة ليتكاملا منطقيًا، فيعطي المنطق لكلّ منهما ما يعود إليـه: للامتداد موضوعيّةَ العالـم الخارجيّ والطّبيعة الرّاضخة لـلإدراك والمادّة والأشـياء وللكثافـةِ ذاتيّةَ التّجربـة الدّاخليّة وإدراك الطّبيعة والرّوح والصّفات.

يعنـي «الحجـم المكثّف» بالنّسـبة إلى كانط على سـبيل المثال في كتابه «نقد العقل المحض» كلّ ما يمكن توقّعه من الظّواهـر بواسـطة الإدراك: فـي حيـن بإمكان الحـدس توقّع الحجـم الممتـدّ لهـذه الظّواهـر، أي مـا دامت الظّواهـر قابلة للتّجزئـة قطعةً فقطعةٍ، وما دام الوصول إلى كلّيتها ممكنًا عبر ربـط هذه الأجزاء ببعضهـا بعضًا، وما دامت نابعة من الفضاء

وراضخـة للرّقـم أي للرّياضيّـات، فبإمـكان الإدراك توقّـع الحقيقـة الّتـي مفادهـا أنّ الإحسـاس والواقع اللّذيْـنِ يمثّلان عمق الظّاهرة سيمتلكان «حجمًا مكثّفًا» بدرجةٍ معيّنة.

يمكننا على الأقلّ أن نستنتج الآتي من هذا المنطق الّذي يمثّل عمق المنظومة الكانطيّة، هذا دون أن نأخذ بعين الاعتبار الآثار الّتي ترتّبت عنه: فمن أجل أن يكون العالم الّذي ورثناه عـن نيوتن قابـلا للإدراك والتّجريب أي للعيـش فيه في نهاية المطـاف، ينبغـي أن يكـون كلّ جـزء مُـدرَك مـن هـذا العالم المسـطّح مُستثمَرًا من داخل درجة وكثافة محدّدتين. وإنّ أيّ وعي شـكليّ خالص بالظّواهر ممكـن إذا ما تمّ تخفيض هذه الكثافـة إلى الدّرجة الصّفر. وهكذا نحصل على واقع محطّم من خلال الفتور، فلا يبقى سـوى شكل الشّيء القابل للفهم. في حين يكون واقع هذا الشّيء في عمق الإدراك واقعا متأثّرًا بعامل من العوامل، ولا يمثّل هذا العامل حجمًا ممتدًّا طبعًا، بـل هـو ما تـمّ تحصيله جـزءًا تلـو آخر. وإنّـه يؤثّر بنا بشـكل مفاجِـئ: يصيبنـا الشّـعور الكلّـيّ بالواقـع ضربة واحـدة، من الممكن بعد ذلك أن نحاول تحليله وأن نقيّم تنوّعاته، غير أنّ هذا الحجم المكثّف يظلّ في الحقيقة نوعا من مقياس الضّغط

الدّاخليّ للتّجربة الذّاتيّة الّتي ستحدّد على الفور درجة ظهور ما هو موجود.

لقد كانت العمليّة الكانطيّة حاسمة في هذا الصّدد: صارت الكثافة تعني درجة التّعبئة الدّاخليّة للعالم الممتدّ والخارجيّ، وصار الموضوع على ذمّة المعرفة العلميّة. فليست درجة الالتزام هذه شيئًا سوى الواقع الّذي يعتمد على الوقت. وهكذا يرتبط الحجم الكانطيّ المكثّف بمعناه الدّاخليّ والزّمنيّ كما يرتبط الحجم الممتدّ بالمعنى الخارجيّ والفضاء عمومًا.

لنفترض أنّني بصدد النّظر إلى السّماء. يحدث بمرور الوقت وبانطباع نابع من انفصالي عنها بأن تبدو لي السّماء الزّرقاء والبيضاء الّتي أنا بصدد تأمّلها أقلّ واقعيّة أكثر فأكثر، هذا دون أن تتغيّر في واقع الحال، ببساطة لأنّ وعيي الّذي يتأمّلها لم يكفّ عن التّنامي. وإنّي أشعر في غمرة تلك اللّحظات المعلّقة أنّ الإحساس الموجود في نظري الخاصّ للمشهد يزداد صعودًا وكأنّه شاشة سينما: وهنا يفوز التمثّل على ما يتمّ تمثيله. قد تكفي أحيانًا رمشة من عينيّ الاثنتين حتّى تعاود السّماء ظهورها كحقيقة بعيدة منّي، يتملّكني

الشّعور مصحوبًا بدوار طفيف ناتج عن حضورها ووجودها في ذاته، عبر الضّوء الّذي يشقّ مداها إلى أن يصل إلى تلك الحدود الضّبابيّة الّتي تحدّ الغلاف الجويّ الأرضيّ، هناك في الأعلى: أدْرِكُ أنّها تبتعد من شبكيّة عينيّ لتتضخّم ثمّ تكتنف.

إنّ رابط القوّة الّذي يجمع بين هذا الإحساس التّأمّليّ للتّمثيل والشّعور بنشوة الإدراك الخارج عن الذّات هُوَ في الحقيقة شبيه بخطّ متواصل تختلف على امتداده كثافة الواقع. وإنّ هذه الكثافة بالنّسبة إلى كائن يمكن أن تنخفض إلى أن تصل الدّرجة الصّفر، ممّا يشير إلى انتصار الوعي المحض على موضوعه، في حين لا وجود في المقابل لكثافة قصوى ونهائيّة من شأنها أن تعلن انتصار المُدْرَكِ على الإدراكِ.

ثمّة الشّكل الفارغ لإدراكنا المحتمل للعالم، وثمّة الواقع الّذي يملأ ذلك الإدراك ويعطيه انطباعًا بوجود ما هو «أكثر أو أقلّ» وبأنّه أكثر قوّة أو أقلّ وفق ما يرافق إدراكنا من شعور: الشّعور بالكثافة. إنّ الأمر الّذي يعلن عن حضوره في هذا المضمار هو وجود رابط قوّة مستمرّ بين العقل المحض

وأقصى ما يمكن من الواقع. وإنّ ما نسمّيه واقعًا يصبح تعبئة مكثّفة للوعي بالموضوع. تعبئة قد تتناقص أحيانًا وقد تتزايد أحيانًا أخرى. لن تكفّ تجربتنا الحميمة عن محاولة قياسه ولو تقريبيًّا في كلّ حالات اليقظة ونصف اليقظة وفي الأحلام أو في حالات الصّفاء الأقصى.

غير أنّ هدف كانط يكمن في البحث عن إمكانيّة وجود كثافة مساوية للصّفر من شأنها أن توفّر ظروفًا ملائمة للوعي المحض، وعي مفرغ من كلّ كثافة في علاقة بالواقع، وعليه ينبغي أن نضع في الحسبان الافتراض التّالي: من الأجدر أن تكون الحياة الحديثة بحثًا متواصلًا -عكس ما يرى كانط - عن كثافة مُتّصلة بواقع محض، ما يعني خوض تجربة قويّة في التّعبئة الدّاخليّة القصوى للعالم المُدرَك - إذ ينبغي أن يتضخّم وأن يفيض حتّى نشعر بالحياة. ينبغي أن يسود المُدرَكُ على الإدراك الانعكاسيّ وأن يُغْرِقَهُ في يقين متّجه نحو أقصى ما أراه وألمسه وأحبّه وهو يتنامى بينما ينخفض وعيي بتأمّلي الخاصّ وبأعصابي وبقلبي وبانغلاقي على نفسي وبتفكيري في موضوع واع محكوم باستيعاب كون محبظ تتساوى فيه كلّ نقطة بشكل موضوعيّ مع أيّ نقطة أخرى.

إنّي أعرف ألاّ شيء أكثر أو أقلّ ممّا هو عليه. وأعرف أنّ كلّ شيء موجود في المقابل، لكنّي أشعر بشكل مختلف عن ذلك: أشعر بأنّ كلّ ما أراه قادر على تنويع كثافته.

استثناءٌ جامحٌ.

إنّ الكثافة بالنّسبة إلى كانط أو هيجل، خصوصا عندما عرّف هذا الأخير «الكمّ الممتدّ» و«الكمّ المكثّف» في علم المنطق، ليست فقط مستثناةً من مملكة الامتداد، بل هي ندّ لهذا الامتداد حيث تكون الشّريكة والمدّعى عليها والطّرف المقابل. شكّلت الكثافة والامتداد ثنائيّا متوازنا في الفكر الأوربيّ في ذاك الزّمن. وقد تميّزت برعاية عن الامتداد وتوافقت معه بانسجام، الأمر الّذي يتناغم تمامًا مع فكرة التّطويع، حتّى إنّه بات بإمكاننا أن نصنّفها ككثافةٍ «مُدَجَّنَةٍ» وفق هذا المفهوم.

لكنّ خاصّية الكثافة تكمن أساسًا في عدم قابليّتها للاختزال: فإذا ما اختُزِلت إلى مجرّد مكمّلة للامتداد فإنّها تفقد ميزتها الخاصّة. ثمّة عمليّة ستندلع حتمًا في أذهان الميتافيزيقيّين، عمليّة ستدفع بالفكر إلى الانخراط في إنقاذ

الكثافة من الاستحواذ عليها وتدجينها. هذا لأنّ على الكثافة الحقيقيّة أن تكون مختلفة اختلافًا جذريًّا عن تلك الكثافة المزعومة الّتي سرعان ما نربطها بالامتداد.

كيف السّبيل إلى توضيحها؟ عمد طفل إلى قرْصِ جلدتي بلُطْفٍ فأحدث عندي ما يشبه الدّغدغة، ثمّ راحت قرْصَته تزداد قوّة، تمكّن من شدّ جزء أكبر من جلدتي فراح ذاك الشّعور النّاعم يحتدّ حتّى تحوّل إلى انزعاج تامّ، أكثر صعوبة وأكثر ألمًا في النّهاية. إنّ تزايُدَ الكثافة في الإحساس نفسه أدّى إلى تحريفه كلّيًّا وإلى تحوّله النّوعيّ من دغدغة إلى ألم. عندما اهتمّ برغسون بهذه الخصوصيّة المتعلّقة بحالات الوعي والإدراك، حرص على أن يُثْبِتَ بأنّ فكرة الحجم القابل للقياس في كلّ كثافة تنشأ في العقل من تمثُّل أسباب الإحساس وقد افترض بأنّ السّبب (القرْص في المثال المذكور) ممتدّ وبأنّه يحتلّ حيّزًا مكانيًّا قابلًا للقياس بدوره (بإمكاني تحديد تنوّع القوّة الّتي بذلها الطّفل في قرْصِه لي)، تنتقل الفكرة الكميّة إذن من سبب الإحساس إلى أن تصل إلى الإحساس ذاته. إنّ كثافة القرْصِ الّذي لم يكن إلاّ بعض تلوّن في نوعيّة إحساسي صارت حجمًا، كما صارت بعدًا

قابلًا للقياس. وإنّ انعكاس حالاتي النّفسيّة على الفضاء ينقل لهم ذلك الشّكل المجزّأ جزءًا تلو جزء والقابل للقياس الكمّيِّ.

وجّه برغسون نقدًا جذريًّا مُرْتكِزًا على هذا التّحليل للاستخدام المختلف لمصطلح الكثافة في علم النّفس وهو الأمر الّذي مكّنه من التّمييز بين نوعيْنِ من التّعدّد: تعدّد كمّيّ وهو منفصل وتعدّد نوعيّ وهو متّصل. إنّ كلّ «ما يشغل الفضاء» ينتمي للنّوع الأوّل من التّعدّد لكنّ الثّاني منه دائم الإفلات والصّمود في وجه التّموقع. فالفضاء مبدأ تَمَايُزٍ مختلف عن مبدأ التّمايز النّوعيّ: في الفضاء يمكن تمييز كلّ شيء عدديًّا، لكن لا شيء يتميّز نوعيًّا. سبق وأن أشرنا إلى ذلك بوضوح، إذ هنا تتّضح تمامًا نتيجة الحطّ من شأن الفضاء عند ديكارت ونيوتن في العصر الكلاسيكيّ. وبالتّالي فإنّ مبدأ التّمايز النّوعيّ ليس فضائيًّا: وهو ما تمّ التّعبير عنه من طرف برغسون عبر ما أسماه «المُدَّةَ»، وهو عبارة عن تعدّدٍ غير واضح وغير قابل للتّقسيم أحيانًا كثيرة من حالات العالم المفتقرة للتّجانسِ. إنّها الكثافة الحقيقيّة وإنّها الاستثناء الخالص.

بعبارة أخرى، تتمثّل حركة برغسون الاستراتيجيّة في التّدليل على أنّ ما يسمّى «الكثافة» ليست سوى شكل مدجّن من الكثافة الحقيقيّة ومن أجل التّأسيس لمفهوم حقيقيّ للكثافة لا بدّ من الانخراط في سباق حديث ضدّ ترويض المكثّف وضدّ اختزاله إلى مجرّد «لا مُكَثَّفٍ». لا بدّ أيضًا من النّضالِ فكريًّا من أجل الحفاظ على طابعه الاستثنائيّ.

وإنّ طبيعة مفهوم الكثافة وفق ما استنتجناه على إثر محاولتنا السّريعة لتأصيله قد كشفت لنا بأنّه مفهوم ناتج عن التّحالف بين فكرة التّغيّر النّوعيّ والصّورة المبهرة للكهرباء، وقد خلّفت هذه الطبيعة شيئًا ما وحشيًّا على المفهوم، شيئًا مستعصيًا على كلّ تدجين: إذ يُعتبر مكثّفًا كلّ ما ينفلت من التّصنيف وكلّ ما لا يسمح بالاختزال. وإنّ أولى المحاولات الفكريّة الّتي سعت إلى إسعاف هذا المفهوم بوظيفة مُكَمِّلٍ بسيط للامتداد قد باءت بالفشل. لا يمكن للمكثّف أن يكتفي بأن يكون مميّزًا بشكل ممتدّ مقارنة بأيّ مبدأ للتّمييز الممتدّ بين الأشياء - هذا لأنّ الامتداد سيكون في الوقت نفسه حَكَمًا وجزءًا من التّمييز ذاته.

إنّ اعتبار الكثافة استثناء عن الامتداد وتحديدها على

أنّها ذاتيّة بالمطلق هو بمثابة إعطائها وظيفة في مكان لا وظيفة لها فيه وهو إنكارٌ لا للفكرة الّتي تسكن مفهومها فقط بل أيضًا للصّورة الّتي انتقلت إليها بفضل أصلها الكهربائيّ: محاولة وحشيّة لتفريغ الشّحنة، وشيء غير قابل للتّطويع ولا للفهم ولا للتّصنيف داخل الفكر.

وعندما أدخلت الميتافيزيقيّات الحديثة مفهومَ الكثافة متوخّية كلّ الحذر في منظوماتها الكبرى المتعلّقة بالتّصنيف والتّمييز فإنّها لم تكن تشكّ للحظة واحدة بأنّها أدخلت الذّئب إلى الحظيرة، وبأنّها أدخلت المبدأ ذاته الّذي سيتكفّل بتهديم كلّ تصنيف وكلّ تمييز في عمق لوحاتها التّصنيفيّة الهائلة.

الاستثناء يصبح القاعدة.

لماذا وكيف كفّ مفهوم الكثافة عن أن يمثّل استثناء ميتافيزيقيّا بسيطًا؟ لقد كان يسمح بتصوّر عالم متكوّن من كيانات فرديّة لكنّها لم تكن منغلقة على ذاتها. من المؤكّد أنّ المادّة القديمة كانت تسمح بأن تُفرِّدَ وتصنِّفَ الأشياء - الإنسان، الشّجرة، الطّاولة - لكنّها كانت تنتج أشياء في ذاتها،

وقـد كانت مجـرّد دعائم ووسـائط للتّغيّـر، غير أنّهـا لم تكن راضخة لأيّ تغّير. خصوصًا وقد كانت الطّاقة منحصرة داخل المـوادّ. بينما كانت القوّة الكلاسـيكيّة على عكس ذلك طاقة متحـرّرة وكونيّـة ذات آثار قابلة للقياس فريدة ومجهولة أيضًا غيـر أنّها كانت تُمارَسُ على مـادّة مخيّبة للآمال وغير متفرّدة ومفرغة من كلّ كثافة.

أمّـا الكثافات فهي متفرّدة غير أنّها ليسـت هي ما هي في ذاتهـا، إنّها تجمع بين مزايا القـوّة والطّاقة في آن: الكثافة هي قـوّةٌ نوعيّـة. ولا حاجة للتّفكيـر في نوع يقـع خارجها: فتنوّع الكثافة هو نفسه النّوع.

تمكّنت الكثافة بوصفها استثناءً من أن تستقلّ بذاتها حتّى تصبـح القاعـدة: كلّ شـيء مكثّـف وكلّ شـيء كثافـة! إنّهـا المفاجـأة. فالشّـجرة المتطابقة مع نفسـها ليسـت سـوى أثر، الأمر شـبيه بانعكاسـها على صفحة الماء أو في واقعها الّذي هـي عليـه: ثمّـة تنوّعـات مسـتمرّة للكائنـات، ثمّـة خطـوط الصّيرورة الّتي تظهر لي في وقت مسـتقرّ مثل جسـم فضائيّ. لكنّي إذا ما اعتبرت كلّ شـيء مصنوعًا من كثافات فلن تعود هناك شجرة. ليس هناك سوى إجراءات تؤدي إلى "تشجّرها"

(أي تحوّلها إلى شجرة): ستسقط، ستتحلّل عناصرها. حتّى إنّ الخريف حين يحلّ، تفقد الشّجرة بعضًا من أجزائها: تتساقط منها ورقة، ويهترئُ بعض قشور جذعها. لكن ما أسمّيه شجرة ليس سوى عقدة الكائنِ، نسيج من خطوط متحوّلة، خطوط من كثافة الأرض الّتي تجفّ وتبتلّ، كثافة غابة بصدد النّموّ، كثافة النّسغ الّذي ينمو، مبادلات للطّاقة بين المكوّنات الحيّة ومحيطها، إلخ.

وهكذا انتقلت الكثافة بعد انعكاس القيم الّتي تميّز العقل الحديث من الاستثناء إلى الامتداد الّذي كانت عليه لتصبح اسم كلّ شيء موجود في ذاته. وليصبح الامتداد مجرّد استثناء تابع للكثافة نفسها.

من الطّبيعيّ أن يكون هذا العالم المتكوّن أساسًا من كثافات قد عاش متاهات عديدة وفقًا للمنظوماتِ الفلسفيّة. فقد اقترح كلٌّ من نيتشه ووايتهيد ودولوز رؤية خاصّة بِكَوْنٍ لم يعد ممتدًّا، كوْنٍ متألّف من أجزاء قابلة للتّرتيب ومكثّفة تمامًا، حيث الأجزاء المستقرّة فيها ظاهريًّا ليست أكثر من أوهام في الإدراك المحدود الذي نملكه.

وهكـذا كان عالـم القـوّة النّيتشـويّ تمثّـلًا باهـرًا لكثافـة واحدة بصورتها الشّبيهة بالمحيط الهائل الّذي لا يحتاج أيّ شـيء آخر، محيط لا خـارج له. لنحاول تصـوّر كثافة واحدة فسيحة ومتغيّرة لكلّ ما هو موجود في ذاته، سيكون على هذا الموجـود أن ينشـطر شـطريْن وأن يعـود إلـى نفسـه من أجل التّحـوّل إلـى موضـوع، سـيكون عليـه أن ينقسـم إلـى فاعـل ومفعول به. غير أنّه في الحقيقة لا وجود سوى لكثافة واحدة محيطيّـة وفسـيحة وهي الّتـي تتغيّر بصفة داخليّة لا شـموليّة. فكلّ شيء كثافةٌ بالنّسبة إلى نيتشه القائل بشظايا «إرادة القوّة»، لهذا السّبب بالذّات تُعتبَرُ الكثافة مطلقة. وبما أنّها مطلقة فإنّ مجموعها غير قابل للتّنوع. كلّ شيء كثافة إذن (طالما أنّ كلّ شـيء متنـوّع)، عدا الكثافة فـي ذاتها الّتي هـي مطلقة (طالما أنّها غير قابلة للتّنوّع): إنّها محيط من القوى الطّليقة، لا بداية لهـا ولا نهاية، هي كتلة واحـدة لا تكبر ولا تصغر، عبارة عن «اقتصـاد بـلا إنفـاق ولا خسـران»، «بلا ربـح وبلا نمـوّ». إنّ الكثافـة واحدة ومتعدّدة فـي آن، عندما تواجه ذاتها تتوحّد ثـمّ تنقسـم إلى كثافات متعدّدة ومتقلّبة، متزايدة هنا متناقصة أكثر هناك.

لا شيءٍ غير مكثّف بالنّسبة إلى نيتشه إذن، بل هو الكلّيّ المطلق للكثافة نفسها. أمّا ما يبدو لنا غير مكثّف داخل العالم وبالتّالي مستقرًّا ومتطابقًا [مع نفسه] فليس أكثر من أثر خدّاع من آثار كثافة ضعيفة. إنّ الكثافة في الحقيقة بلا نقيض، لأنّ «اللّامكثّف» ما هو إلاّ الدّرجة الأضعف من درجات كثافة الكائن. ونعني بـ«الكثافة» في هذه الحال إضفاء صفة المطلق على كلّ ما هو غير ذلك: على التّنوّع تحديدًا. وحده التّنوّع في ذاته لا يتنوّع. وإنّ ملامح ديمومة الشّيء أو المفهوم أو الفكرة ما هي سوى حيلة من حيل الكثافة الشّموليّة الّتي تتناقص داخليًّا من أجل تجريب إمكانيّة من إمكانيّاتها اللانهائيّة على نفسها. لذلك لن يكون هناك عامل تأسيسيّ وفق ما يراه أتباع نيتشه الّذين عاشوا بالقرن العشرين على غرار ميشال فوكو[1]، بل سيكون هناك «عوامل محفّزة على الذّاتيّة»: يرتبط كلُّ شيء بالتّغيّرات التّاريخيّة أساسًا الّتي يمكن أن نتعرّف إلى مختلف فتراتها الكبرى عبر اقتفاء علم

(١) ميشال فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤)، من أهم فلاسفة النّصف الثّاني من القرن العشرين عالج مواضيع عدة مثل الجنون والإجرام والعقوبات والسّجون. معروف بابتكاره لمصطلح «أركيولوجيّة المعرفة» من أهمّ مؤلّفاته «تاريخ الجنسانيّة» و«تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي»...

الأنساب. لكن لا يوجد في العمق كائن متطابق مع ذاته بل توجد كثافات لا أكثر. وهكذا انقلب نظام أولويّات المبادئ الأساسيّة رأسًا على عقبٍ: أصبحت الكثافات طبيعيّة وذات أولويّة، أمّا «الهويّات» المزعومة فهي مُكْتَسَبَةٌ وثانويّة.

ومع ذلك، فإنّ هذا المفهوم قد خدم كأنطولوجيا ضمنيّة (أي كنظريّة حول كينونة الأشياء نفسها) العديد من أولئك الّذين لم يعودوا يرغبون في تأسيس عمل أنطولوجيّ في عصر الحداثة: ففي واقع الأمر -كما لا يكفّون عن القول- لا شيء موجود في ذاته خارج إدراكنا. لا شيء يمتاز بالتّطابق - فكلّ شيء مختلف، وكلّ شيء مكثّف! أمّا خارج الكثافة، فهو اللاشيء. وليست تمثُّلاتنا للكينونات البسيطة الثّابتة والدّائمة والأبديّة إلاّ تظاهرًا بالثّبات وفق سُلّمِ إدراكنا التّاريخيّ المحدود الّذي يتوهّم اللاكثافة المطلقة في حين أنّها ليست سوى كثافة ضعيفة.

وبما أنّه لا وجود إلاّ لكثافة هائلة، فإنّ هذه الكثافة الّتي لا يمكن مقارنتها بأيّ شيءٍ آخر غير قابلة للزّيادة أو النّقصان، ما يوحي أن الكائن في كلّيته غير موجود بشكل أكثر أو أقلّ من ذاته على الإطلاق: ففي عمق العالم تصبح الكثافة

متعـدّدةً، ويمكن لكثافة ما أن تـزداد لتتناقص أخرى. وما هو هـذا العالـم؟ إنّـه ليـس شيئًا آخـر عدا لعبـة كثافات يسـاوي مجموعها الصّفر.

هـا هنـا يتلخّص الفكر النّيتشـويّ. تُضاف بعـد ذلك إلى هـذه الرّؤيـة الأولـى المتعلّقة بكثافـة كونيّة وأبديّـة رؤية ثانية تكميليّة: ليسـت لعبة تنتهي إلى ما مجموعه صفر وإنّما مسار مكثّف في ذاته ودائم التّجدّد. وبهذا المعنى الثّاني والّذي قد يتجّلـى كأفضـل ما يكـون في كتـاب «الصّيـرورة والواقع[1]» لنورث وايتهيد، تشارك كثافات الكائن المتعدّدة في الصّيرورة العامّـة مـن حيث ينبـع الجديد باسـتمرار: كلّ شـيء مكثّف، بمعنـى أنّ كلّ شـيء يتغيّـر أي أن كلّ شـيء يمثّـل «تلاحمًـا» مؤقّتًا لكثافات متعدّدة، يجتمع هذا التّعدّد ويتلاحم فتنتج عن ذلـك وحدة جديـدة تُضاف إلـى التّعدّديـة في شـكلها العامّ. وهكـذا يكـون الجُـزَيْءُ [الكيميائـيّ] تجمّعًـا ديناميكيًّـا مـن الـذّرّات الّتـي هـي الأخـرى تجمّـع ديناميكـيّ مـن البروتون proton والإلكتـرون électron والّتـي هـي أيضًـا تجمّـع من

---

(١) الصّيـرورة والواقـع: دراسـة كونيّة، كتاب لألفريد نورث وايتهيد نُشِـرَ سنة ١٩٢٩ وفيه يعرض وايتهيد أفكاره حول «فلسفة الصّيرورة».

الجُسيْماتِ أو ناقلات لقوى أوّليّة. يمثّل كلّ عنصر هنا نتيجة لكنّها ليست نتيجة حسابيّة بسيطة، إنّها بالأحرى كلّيّة نشيطة بصدد تحويل جزيئاتها الخاصّة، بالطّريقة نفسها الّتي وفقها يؤثّر الجُزَيْءُ في تكَوُّنِهِ على الذّرّات الّتي يتألّف منها. وإنّ العلاقة الّتي تربط بين الكينونتيْن هي كينونة إضافيّة تُضاف إليهما، ممّا يوفّر إمكانيّة متجدّدة لتوتّر سيجمع بين ثلاثة مصطلحات. هكذا تعثر المفاهيم النّشيطة على قيمتها في أنطولوجيا وايتهيد: التّلاحم، والذي يمثّل إجراء، وليس تجريدها الذي يمثّل النّتيجة النّهائيّة. لأجل إعطاء علامة معرفية نحْويّة بسيطة، نقوم غالبًا بتحديد فلسفات الكثافة هذه وفق ما يمكن لصيغة الحاضر مثل يشكّل أو يبدع إرجاعه بشكل منهجيّ إلى صيغة الماضي مثل شَكَّلَ أو أَبْدَعَ: إنّ الكائن هو صيرورة قبل كلّ شيء وليس نتيجة هذه الصّيرورة. وقد وجّهت هذه الرؤية المبدعة للكثافة كلّ العقول الحديثة الّتي ترفض فكرة أنّ الكائن الطّبيعيّ هو كائن في تشكّل دائم، معتبرة أنّه لا يمكن لمُشكَّلٍ أن يكون هو الأصل وإنّما هو عمل قيد الصّيرورة. وهكذا نكتشف بأنّ الكثافة ليست ناتجة عن ضغط جامع بين كينونتيْن، كما لو أنّه وجدت في البدء

كينونات ثابته، وكما لو أنّ العلاقة الجامعة بينهما قد أُضيفت إليهما ميكانيكيًّا. غير أنّ الواقع يدلّ على أنّ كلّ كينونات العالم المرئيّة إنّما هي نتيجة لكثافات ما، مثلما يكون المتنوّع نتيجةً للتّنويع وليس العكس.

وفي رؤية ثالثة وأخيرة وهي رؤية دولوز على وجه التّحديد، تسمح الكثافة بتسمية ذلك التّنوّع على أنّه «اختلاف محض»: اختلاف الاختلاف. قد نتذكّر جيّدًا بأنّ الكثافة الكهربائيّة تكمن في اختلاف القوّة بين قطبيْن. لكنّ دولوز يشير في كتابه «الاختلاف والتّكرار[1]» إلى أنّ تلك الكثافة الّتي يتحدّث عنها العلماء ليست كثافة الميتافيزيقيّين تمامًا: ليست الكثافة الكهربائيّة أكثر من مؤشّر فيزيائيّ يسمح لنفسه بأن يتمثّل الكثافة الحقيقيّة. فإذا ما كانت الكثافة الكهربائيّة تتمسّك باختلاف الشّحنة ينبغي إذن أن نتصوّر بأنّ كلّ شحنة في ذاتها هي نتيجة للاختلاف. أمّا الكثافة الميتافيزيقيّة فإنّها لا تتوقّف هنا: لا ينبغي أن نفهم من خلال «الكثافة» الاختلاف

(١) الاختلاف والتّكرار: كتاب لجيل دولوز نُشر سنة ١٩٦٨ ويمثّل أَطروحة الفيلسوف الفرنسيّ الأساسيّة حيثُ يعارض الكاتب سيادة الفلسفة التّحليليّة ومختلف أشكال الرّجوع إلى الأصول. كما يتضمّن الكتابُ تحليلًا للاختلاف المحض ومفهوم التّكرار العميق.

القائم بين كينونتيْنِ قابلتيْنِ للتّحديد، بل الاختلاف الفاصل بيـن مصطلحيْـنِ لا يعـدوان أن يكونـا بدورهمـا أكثـر من أثر لاختـلاف ما بيـن مصطلحين آخريـن هما أيضًـا مرتبطان... وهكذا دواليك.

نلاحـظ فـي كلّ رؤية من هـذه الرّؤى بأنّ تتويـج الكثافة بوصفهـا صفة أساسـيّة للكائن يعود إلى انقـلاب ذكيّ: بينما كان يُعتقـد في الماضي أنّ الكثافـة هي أثر الإدراك في العالم الممتـدّ، يمكـن عدّهـا وقياسـها، فالحكـم الآن هـو أنّ هـذا المظهر الممتدّ للأشياء ليس سوى أثر من آثار واقعه الّذي هو مكثّف بشـكل أساسـيّ. كلّ شـيء مكثّف - لكنّ إدراكنا تنتج عنه آثار الاستقرار، بسـبب مفاهيمنا ولغتنا وقواعدنا النّحوية الّتـي تجعلنا نرى الكون المكثّـف على أنّه مظهر كلّيّ متكوّن من أشـياء واضحـة في الفضاء، بإمكاننا التّعـرّف إليها وإعادة التّعرّف إليها بمرور الزّمن.

للتخلّـص مـن هـذا الوهـم، كان ينبغـي -وهو مـا يؤكّده برنامج دولوز - أن «نؤوّل كلّ شـيء من خلال الكثافة». ففي الواقـع إنّ كلّ المعـارف الإنسـانيّة - بعيـدًا مـن تلـك الرّؤى الميتافيزيقيّـة فـي أصلها- هي معارف عاشـت تأثّـرًا تدريجيًا

بهذه التّعليمات المُستترة: فمثلما تدرّب الإنسان القديم على العيش في عالم من الموادّ، والإنسان الكلاسيكيّ في عالم تسيّره القوّة فإنّ الإنسان الحديث قد تدرّب هو الآخر على العيش في عالم من الكثافات، وقد أُعِيدَ ترتيب كلّ معارفه حتّى تتمكّن من تلبية هذا المطلب الجديد.

من أجل تأويل كلّ شيء من خلال الكثافات.

يمكن لمثل هذه التّصوّرات الميتافيزيقيّة عن عوالم مكثّفة تكثيفًا محضًا أن تبدو مجرّدة. على الرّغم من أنّ أزمة تصنيفات معارفنا ناجمة مباشرة وبشكل ملحوظ عن هذا التّكثيف الميتافيزيقيّ.

ولأنّنا نعيش لأجل الفكر في عالم لم يعد متكوّنًا من الموادّ والصّفات، فقد تعلّمنا وبشكل أساسيّ أن ندرك الاختلافات والتنوّعات والكثافات. لهذا السّبب فقط توصّلت الحداثة في علوم الحياة إلى التّخلّي التّدريجيّ عن تصنيف الأجسام جزءًا تلو جزء كما لو أنّها كانت تنتمي إلى أنواع ثابتة، وكما لو كان استطاعتنا ترتيبها وفق مجموعات وتشكيل كلّ شيء يعيش في مساحة واسعة صمّمها العلم

وقسّـمها إلـى أنواع كمـا في كثير مـن الحـالات. يتوافق هذا التّصـوّر التّصنيفـيّ مـع المشـروع الكلاسـيكيّ وليـس مـع المشروع الحديث. إذا ما نظرنا ضمنيًّا إلى أنّ ما كان موجودًا بشـكل أكثر واقعيّة في العالم كان مكوّنًا من تنوّعات أكثر من كونـه مكوّنـا من مواد بسـيطة وثابتة ودائمة، فـإنّ ريادة العقل الحديث فـي أغلب المعـارف كانـت مرتبطة برؤية وتفسير الواقـع العضويّ واللاعضويّ في الكثافـات والتنوّعات أكثر مـن ارتباطها بالكينونات المسـتقرّة. ففي النسـبيّة العامّة على سـبيل المثـال، لم تعـد الأغـراض الفيزيائيّـة هي الّتـي تحدّد خطوط الكون، بل إنّ خطوط الكون هي الّتي تحدّد الأغراض الفيزيائيّة. كما تمّ التّخلّي نهائيًّا، وذلك من أجل معرفة الكائن الحـي، عن فكرة تصنيف الأجسـام في فضـاء منظّم من أنواع ثابتـة، على مدى النّظريّـة الداروينيّة الجديـدة للتّطوّر، لأجل النّظر في عمليّات «الانتواع» spéciation[1]. لا وجود لجوهر محـدّد، ثمّة فقط تأثيرات محدودة [قد نلاحظها] على التّنوّع المستمرّ لمختلف فروع التطوّر العامّ للحياةِ. كيف يتسنّى لنا

(١) الانتـواع Speciation عمليّـةٌ تطوريّة لدراسـة ظهور أنـواعٍ جديدة من الكائنات الحيّة وضعه العالم الإحيائيّ أوراتور فولر كوك سنة ١٩٠٦.

إذن تجزئة إنسانيّة بسيطة وثابتة من بين هذه الكثافات المتنوّعة الّتي يتميّز بها الكائن الحيّ؟ لم يعد التّصنيف يسمح بهذه العمليّة السحرية: فهي ترسم خطوطًا جينيالوجيّة généalogique فوق كلّية كلّ الكائنات الحيّة بدلًا من رسمها لحدود بينها. فالخطّ حقيقة هندسيّة مستمرّة بينما نحن منجرفون بالحداثة حتّى نمثّل تغييرات متنامية عِوَضَ أن نكون المحْمَلَ الثّابت لهذه التّغييرات. لم يعد الإنسان مفصولًا عن بقيّة الحيوانات بخطّ نوعيّ لا يمكن تجاوزه، لأنّ هذا الخطّ نفسه يمثّل تنوّعًا.

من شأن معارفنا الحاليّة أن تجعلنا أكثر انتباها لتلك الكثافات عوض تلك الحدود الّتي تفصل بين الامتدادات المختلفة. لم يعد سؤال الحداثة كما الآتي: أين يبدأ الإنسان وأين ينتهي؟ بل أصبح: كيف تشكّل؟ وكيف سيتحوّل إلى شيء آخر؟

بالطّريقة نفسها الّتي وفقها فسح النّوع المجال أمام مسَارات خاصّة بالانتواع، فقد فسح الصّنف أو الجنس المجالَ لمسارات خاصّة بتحديد الجنس أو ما يُسمّى «الهويّة الجندريّة». لم يعد من الممكن إذن الحديث عن رجال ونساء

بوصفهما جزأيْنِ منفصليْنِ تمامًا عن كلّية ستمثّل البشريّة ما دام كلّ ما نجده في أعماقنا تحت أقنعة الأداء الجنسيّ كثافات متغيّرة، ابتداء ممّن «يزداد تأنّثًا أو يتناقص» إلى من «يزداد ذكوريّة أو يتناقص»: لم تعد الأجناس أسماء بل صارت أفعالًا، هذا لأنّها ترتبط بالممارسات. فهي حقائق مكثّفة. وتنبني معارفنا وممارساتنا على المبدأ التّالي: إنّ الهويّات هي آثار دائمًا، إنّ كلّ ما هو موجود حقًّا هو كثافات. لقد أصبحت الكثافة، بوصفها استثناءً، القاعدة الأصليّة لكلّ معارفنا. فنحن نطلق صفة الوجود الحقيقيّ - بعيدًا من كلّ تصنيفاتنا القديمة ومن بُنْيَتِنَا الثّقافيّة- لا على الهويّات بل على الاختلافات والتّنوّعات المستمرّة، على التّدفّقات والتّطوّرات.

وإنّ لهذا المبدأ الّذي تقوم عليه معارفنا تاريخًا: فلذوقنا تجاه علوم الوراثة أصلٌ. إنّ حذرنا الذي توخّيناه تجاه كلّ ما يتماثل أمامنا على أنّه ثابت ومطلق وأبديّ هو في الحقيقة ليس ثابتًا ولا مطلقًا ولا أبديًّا. إذ هي أمور ترتبط بنوعنا وتميّزه، إنّه أسلوب إنسانيّتنا تقريبًا، إنسانيّتنا الّتي تبنّت مفهوم الكثافة كمبدأ ضمنيّ لكلّ معارفها.

لقد أصبحت معارفنا منتبهة بشكل خاصّ إلى الكثافات -كثافات النّوع والجنس - من أجل التّوصّل إلى تفكيك الهويّات الكلاسيكيّة. وقد كان ذلك بمثابة المسار الّذي لا نهاية له، حيث إنّ كلّ ما تمّ تحديده على هذا النّحو كان يجب أن يتحلّل بدوره إلى كثافات أساسيّة أكثر. فما إن يتمّ التعرّف علميًّا إلى كثافة من الكثافات حتّى تبدو متصلّبة وفي حاجة إلى نقد من أجل معرفة عن أيّ الكثافات الواقعيّة مثّلت الأثر الإيديولوجيّ ومن أيّ بنى اجتماعيّة وتاريخيّة انبعثت. وقد مثّل هذا الحافز المتمثّل في إعادة التّفكير في الهويّات على أنّها كثافات الدّافعَ الحماسيّ لكلّ المعارف الحديثة - قبل أن يغزوها الصّدأ.

ينبغي مساندة الكثافات.

وقد برزت صعوبة غير مسبوقة قياسًا للتّعميم في العلوم والفنون في القرن العشرين بما يتعلّق بمفهوم الكثافة: لطالما بدا انتصار الكثافة المطلق علامة دالّة على هزيمتها وهنا تكمن المفارقة. فأن تصبح الكثافة مطلقة يعني تدميرها. وإنّ التّعرّف في أيّ مجال إلى صفة الكثافة بأيّ شيء من شأنه أن

يُخلّف أثرًا غير مرغوب: فما إن يتمّ التّفطّن إلى كثافة من الكثافات حتّى تكفّ على أن تكون مكثّفة.

قد يكون ذلك هو الثّمن الّذي وجب دفعه في صميم مفهوم الكثافة نفسها: فَبِما أنّ الكثافة استثناء غريب عن مفاهيم التّماثل والكميّة، فإنّها لا تعمل إلاّ بوصفها «تكثيفًا». فإذا ما عُرّفت بأنّها كثافة، فلن تظلّ كذلك. إذ يمنعها الالتفات إلى هويّتها من أن تكون مكثّفة. قد نفهم تمامًا هنا المفارقة الّتي ترتسم أمام أعيننا: فمن خلال تصوّر كل ما يتسرّب من الهويّة، لا يمكن للكثافة أن تُعرّف من دون أن تخسر على الفور الهويّة الّتي حصلت عليها توًّا. سنقول ببساطة أكثر إنّ الكثافة لا تساند نفسها بنفسها: فهي تضيع بتوغّلها في الكائن. لماذا؟ لأنّها تمثّل المفهوم ذاته لكلّ ما يستعصي عن كلّ مفهوم. ولأنّها تمثّل أيضًا مفهوم كلّ ما سيكون وكلّ ما سيختلف وكلّ ما لا يمكن استيعابه وكلّ ما سيصمد أمام حقيقة أن يكون شيئًا من الأشياء.

قد يبدو لنا إذن أنّ إضفاء سمة مطلقة على الفكر الّذي تنتجه الكثافة وأنّ كلّ شيء يمكن تصوّره عبر الكثافة يؤدّي حتمًا إلى نزع صفة الكثافة هذه عن المفهوم بشكل قطعيّ:

كلّما كان كلّ شيء أكثر كثافة تناقصت تلك الكثافة في ذاتها. إنّها تصبح العكس تمامًا: قاعدةً أو معيارًا أو مبدأ كونيًّا للقياس ولتجزئة كينونات العالم. على عكس المفهوم القديم للمادّة الّذي يعني كائنًا موجودًا في ذاته وقادرًا على مساندة كيانه الخاصّ بنفسه، فإنّ مفهوم الكثافة يخصّ نوعًا من الكائنات الزّائلة الّتي تكفّ عن التّزايد ما إن تشرع في الوجود، نوعًا من الكائناتِ الّتي ليست ما هي عليه تمامًا، بل إنّها -وهنا يكمن الثّمن الّذي ينبغي دفعه - لا تساند نفسها بنفسها لذلك فهي تختفي ما إن تظهر.

من المؤكّد أنّ قوّة المفهوم الحديث للكثافة تكمن في ذاك التّحالف البديع الّذي يربط أيّ فكرة بالصّورة الكهربائيّة الّتي أَدْخَلَت في الفكرة نوعًا من الوحشيّةِ وسِمَةً مُتعالية وشرسة، ضرورة الصدمة والاضطراب والإثارة. عندما كان من الضّروريّ تهيئة مكان يتّسع لهذا المفهوم الجديد المتضارب فإنّ تلك الصّفة الّتي تصدر عن صورته والّتي أتاحت لفكرة التّغيّر النّوعيّ والمحض أن لا يُعدّ عيبًا بل سمة، جعلتها غير قابلة للتّخصيص: لقد كانت الكثافة أكثر قوّة من كلّ الوظائف الّتي يمكن أن نوكلها إليها. ثمّة شيء

نابـع من طاقـة الصّـورة الكهربائيّة جعل من التّنـوّع المحض ومـن التّغيّـر النّوعـيّ ومن المحتـوى غير قادرة (هـذه الأمور بأجمعها) على الاكتفاء بتميّزهم رقميًّا عن كلّ اختلافٍ كمّيّ أو عدديّ. أصبحت «الكثافة» الاسم الحديث لشيء غير قابل للاختزال ولكلّ ما ينفلت من مؤسّسة العقل ومن السّعي إلى اعتبار العالـم امتدادًا: تكمن مهمّة العقل الحديث في تحديد كلّ مـا لا يسـمح باختزاله كمّيًّا، كلّ ما لا يتسـاوى بالضّرورة مـع أيّ شـيء آخـر بينما يمكـن مبادلتـه كمّيًّا مع ذاك الشّـيء الآخـر. يُعتبـر كثيفًـا فـي نهايـة المطـاف كلُّ مـا ينفلـت مـن الإحصاء. هذا لأنّنا نقصد بكلمة «الكثافة» تلك النّقطة العمياء المسـتعصية على مؤسّسة العقل: وهو المبدأ نفسه في مقارنة شـيءٍ ما بنفسـه. يمكن لنـا تبديل الهويّة الّتـي كانت تُعدّ وفق المنظومـة القديمة جوهر المـادّة، بالكثافة. وهكذا يصبح كلّ شـيء كثافة: كلّ شيء كان قويًّا ونوعيًّا ومختلفًا لكن بلا ميزة تُذكـر، فقـد كان لكلّ شـيء قيمة دون التمّكّـن رغم ذلك من إحصائـه وتعـداده ومبادلتـه. لكن، مـا إن يتمّ تعريف الشّـيء على أنّه «مكثّفٌ» حتّى يشـرع في أن يكون غير مكثّفٍ بالقدر الكافي.

ليست الميتافيزيقيّات الحديثة المعدودة (نيتشه، وايتهيد، دولوز) فقط من عملت على أن تكون الكثافة أمرًا مُطلقًا بل أيضًا وتحديدًا العمليّات الملموسة الّتي لم تعد بواسطتها المعارف الإنسانية تصنّف الكيانات المستقرّة بل المسارات العمليّة. ها هنا يتجلّى انتصار الكثافة المطلق والّذي كشف عن خلل في منظومتها المفهوماتيّة: فبمجرّد أن يتصوّر العقل بأنّ كلّ شيء مكثّفٌ حتّى تبدو الكثافة محدّدة وبمعنى من المعاني غير مكثّفة في ذاتها. من الطّبيعيّ أن تستغرق هذه «اللاكثافة» وقتًا طويلًا. لكنّها لطالما مثّلت نتيجة حتميّة لبلورة مفاهيم المكثّف ذاته، هذا الّذي يتعارضُ مع كُنهه.

من الواضحِ أنّ الفكر الّذي تنتجه الكثافة لا يمثّل تهديدًا لها وإنّما إدراكها للأشياء: فما إن ترضخ كثافةٌ ما للإدراك حتّى تفقد جزءًا منها، لأنّه جزءٌ تحدّد مرارًا وتكرارًا. لذلك، فمن أجل إدراك كلّ كثافة ينبغي القبول بتحييدها التّامّ. إنّ هذا الضّعف التّأسيسيّ الّذي تتصّف به الكثافة الّتي سرعان ما تضيعُ في عمق الإدراك في حين أنّها مطالبة بالتّعبير عن هذا الإدراك، أصبح الصّيغة السّرّية الّتي تفسّر تغيير الكثافة لوجهتها وللمفهوم الميتافيزيقيّ لتصبح قيمة أخلاقيّة. ثمّة

تاريـخ مثالـيّ يخصّ الكثافة ويسـاندها فـي علاقتها بالإدراك وبالحيـاة سـائر بالتّوازي مـع تاريخ مفهـوم الكثافة في مجال المعرفة المجرّدة.

هـذا لأنّ الكثافـة تهلـك بإدراكنـا لها وبإدراكنـا لها أيضًا يمكـن أن تنجـوَ. ما دامـت الكثافـة المدركَةُ غيرَ قـادرةٍ على مساندة ذاتها، فلا بدّ إذن من تدخّل موضوع ما أو شخصٍ ما يعاملها بشكلٍ ملموس حتّى يتمكّن من تمديد أنفاسها. إذ لا وجـود لعالـم مكثّـف دون كائـن حيّ يسـانده مـن ناحية هذه الكثافة.

لا بـدّ من المقاومة إذن من أجل الحفاظ على الكثافات: لا ينبغـي الاكتفـاء بإدراكٍ بسيطٍ للعالـم، لكن ينبغـي العمل بشكلٍ يؤدّي إلى نقل الكثافات دون انقطاع وإلى تبديل ما تمّ تحديده بآخر لم يُحدّد بعد. كما لا يمكن للموضوع الحديث أن يكتفي باسـتخلاص عالـمٍ مكثّفٍ حتّى لا يسـتنزف كثافته نهائيًّـا بجمـوده: بإمـكانِ موضوعٍ سـلبيٍّ مراقـب أو موضوع محايـد حيـادًا خالصًـا أن يجعـلَ العالـم خاليًـا مـن كلّ كثافةٍ ومرهقًا ومحدّدًا تمامًا. فمن اللّحظةِ الّتي يوجد فيها موضوعٌ للعالـمِ، لا بدّ لهذا الموضوع أن ينخرطَ في مثُلٍ من الكثافات

حتّى يتمكّن من الحفاظ على الكثافة التأسيسيّة للعالمِ.

كان لمفهوم الكثافة بالنّسبة إلى العقل الحديث تلك الجاذبيّة الّتي جعلت الّذاتيّة ضروريّةً مرّةً أخرى. فقد كانت الذّاتية السّكّينَ والضّحيّةَ كما ورد ذلك في قصيدةٍ لشارل بودلير[1] تحمل العنوان نفسه: فهي أداةُ هدمِ كلّ كثافةٍ محايدةٍ بواسطة المعرفة، كما هي في الوقت ذاته أوّل من يشكو من هذا الهدم الّذي يجعل العالمَ غير صالحٍ للعيش. لكنّ الموضوع المُذنب والضّحيّة في آنٍ هو المنقذ الوحيد أيضًا: فالعالم الأكثر كثافةً، هذا المستسلم لإدراك كائناتٍ حيّة سينتهي حتمًا بأن يصبحَ مبتذلًا تمامًا. وحدها الذّاتيّة قادرةٌ على إنقاذه وذلك بأن تجعلَ من البحث عن كثافة كلّ شيءٍ مَثَلًا أعلى وبأن تستبدل الكثافاتِ الميتة بأخرى حيّةٍ وبأن تبثّ الحياة دون انقطاعٍ في كلّ ما يهدّد بأن يتحجّر من خلال الألفة أو العادة أو الهويّة وأن تفرض الجديد والمبهم، بشيءٍ مكهربٍ، بشيء لا يسمحُ للصّيرورة بأن تتجمّد في كائنٍ من

(١) شارل بودلير (١٨٢١-١٨٦٧)، شاعر وناقد فرنسيّ، من أبرز شعراء القرن التّاسع عشر ومن أهمّ رموز الحداثة في العالم. من أهمّ أعماله «زهور الشّر».

الكائنات، وللكثافات في امتـدادات قابلة للقياس وللصّفات في كمّياتٍ متراكمةٍ.

فمـن أجل مسـاندة الكثافة، تطالبُ كثافـة العالـم الجديد بتكوين موضوعٍ متجدّدٍ: بإنسانٍ مُكثّفٍ.

٤
مثالٌ أخلاقيّ
الإنسان المكثّف

نحو نوعٍ جديد من إنسان المكهرب

لا يمكن أن توجد ميتافيزيقا للكثافة دون أن توجد أخلاق لهذه الكثافة: ينبغي في البداية أن يتوافر على الأقلّ موضوع بطوليّ واحد قادر على استيعاب عالم من الاختلافات والتّنوّعات والتّدفُّقات ومن الشّحنات في الطّاقة وألعاب القوّة، وهو موضوع قادر على القبولِ بعَدَمِ ارتباطهِ بهويات ثابتة وأفكار أبديّة وأفق مريح، وقادر أيضًا على أن يحتمي داخل صورة مطمئنة للمطلق من الصّيرورة ومن موج مكثّف من التغيّر. ينبغي إذن تصوّر نوعٍ من الكائنات الشّجاعة المتخلّصة من كلّ نفاق والّتي ترى نفسها كما هي في الواقع وتدعم هذه الصّورة لعالم لا يمكن أن يكون شيئًا آخر عدا الكثافة، حيث لا شيء يظلّ كما هو، وحيث يكون كلّ شيء

إمّـا أكثـر أو أقلّ. ثـمّ إنّ مثل هذا المفهوم عـن العالم يتطلّب انبثـاق موضوع من دونه تلغي الكثافة نفسـها ولا يتمّ الحفاظ عليهـا أبـدًا عبـر الزمـن: هـذا لأنَّ كلّ كثافـة زائلة فـي ذاتها، تتوقّف ما إن تتحقّق ولأنّ على كلّ ما هو مكثّف أن يكون غير قابـل للاختـزال إلى الكائـن، لا بدّ من تدخّل ذاتيّـة ما تدخّلًا فعّالًا وأن تدعم وتسـاند كلّ الكثافات الّتي تخضعها للإدراك - مـن ألـوان وأصوات وأفـكار- لا بدّ لهـذه الذّاتيّة أن تكافح خطـوة إثر أخـرى حتّى تحـول دون انحطاط تلـك الكثافات بسببها (هذا لأنّ الكثافات تشعر وتفكّر) إلى أن تصبح هويّات وكمّيّات. لا بدّ من ذاتيّة مكثّفةٍ إذن، وبما أنّ الكهرباء صارت الصّورة الدّالّة على الكثافة، فلا بدّ من ذاتيّة كهربائيّة.

ظهـر مـع تزايد أهمّيّـة الكهرباء في الحيـاة الحديثة نمط أخلاقيّ جديد: الإنسان المكهرب. لنحاول معا ذكر ملامحه فـي أقـلّ ما يمكن من كلمـات. نحن أمام كائن لـم يعد معنيًّا بوعـود الرّحمة، ولا باحثًا عـن الخلاص أو الحقيقة، بعد أن كِـفّ عـن انتظار حيـاة أخرى من شـأنها أن تريحه من شـقاء هـذه الحياة، وعن توجيه وجـوده بناء على فرضيّة وجود ثان أفضل من الأوّل، فلم يعد يكرّس جهوده إلاّ في اتّجاه واحد:

اتّجاه يعكس أمامه الجسد نفسه والحياة نفسها المخترقيْنِ بتيّارٍ يزداد قوّة بشكل دائم. إنّه الإنسان الّذي لا يقارن تصوّراته بالأفكار، هو يبحث في عمْق تصوّراته عن المورد حتّى يتمكّن من مقارنتها بنفسها، حتّى يبثّ الحماسة في تلك التّصوّارت، حتّى يجعلها أكثر حيويّة وأكثر بريقًا، إنّه إنسان لا يقارن كائنًا بآخرَ، ولاَ يلومُ شيئًا أو شخصًا على أنّهما لمْ يكونا ما ينبغي أن يكونا عليه: إنّهُ يطالبُهما فقط بأن يكونا أكثر طاقة وأكثر إشراقًا ممّا هما عليه، فهو لا يرى في الطّبيعةِ شيئًا مهينًا في ذاته، ولا شيئًا غير جدير بالوجود. فكلّ ما هو موجود قادر على الوجود وضروريّ في ذلك الوجود بما في ذلك الظّواهر الطّبيعيّة الّتي قد نعتبرها بشعة، لكن على كلّ شيء أن يحاول الوجود بأكثر قدر ممكن من الطّاقة. فإنساننا هذا، بوصفه كائنًا عضويًا مطالب بتكثيف طبيعته، ما يعني تكثيف وظائفه الحيويّة وإمكانيّات جهازه الغذائيّ وحواسّه الخمس وقدراته على الانتشاء وتعاطفه [مع الآخر] أو استقلاليّته. إنّه إنسان لا يرى أيّ عيب في كيانه ولا في أيّ كائن آخر مهما كان، إنّه مشغول فقط بمحاولة تحقيق ذاته لا بشكل مطلق (لأنّ لا شيء معنيّ

بالكمال) لكن بشكل صاخب قدر الإمكان. إنّه يستهدف الدّرجة القصوى من إتقان وتكثيف قدراته وأحاسيسه ومفاهيمه. نعني إذن بمصطلح «الإنسان المُكثّف» أو «المُكهْرَبِ» ذلك الشّكل الطلائعيّ للإنسانيّة الّذي تأسّس في القرن الثّامن عشر والّذي يقبل بكلّ إرادة التّدهور واستمراريّة ألوان الحياة ما بين جسده وأفكاره، ما بين جانبه الفيزيولوجيّ وعقله، والّذي يطمح إلى مضاعفة خبراته -الودّيّة والحسّيّة والسّياسيّة والعلميّة- وهي خبرات من شأنها أن تمكّنه من دعم كثافة تصوّراتِهِ بأن يخوضَ صراعًا دمويًّا ضدّ الملل والحسابات الوضيعة والسّذاجة والتّماهي ثمّ صراعًا آخر خلال القرن العشرين ضدّ البيروقراطيّة الحديثة للوجود.

إنّ الإنسان المكثّف يتجنّب التّقاليد. فإذا ما طالب العقل الحديث بالتّجديد فإنّ السّبب الأساسيّ لذلك هو التّالي: لا بدّ من إذكاء نار الجسد والعقل، وهي نار لا تكفّ عن المطالبة بكثَافات متجدّدة والّتي عرّفها القدامى انطلاقًا من جمرات المجهولِ إلى رماد المألوف. هذا لأنّ العالم لا يُشحن بالكثافة إلاّ إذا ما أردنا حقًّا تأجيجها دون انقطاع.

الإباحيُّ، إنسانُ منفعل.

«نريـد أن نكـونَ بمشـاعر منفعلـة - كما يقولـون - وهذا هدف كلّ إنسان يختار الانصراف إلى المتعة، نحن نريد ذلك بالوسـائل الأكثـر حيويّـة، لا يتعلّـق الأمـر إذن بمعرفـة إذا ما كانت أسـاليبنا ستُرضي أو لا تُرضي الكائنَ الّذي يخدمنا بل يتعلّق فقط بأن تهزَ صدمة ما أعصابنا كأعنف ما يكون، إضافة إلى أنّه بات من المؤكّد الآن أنّ الألم ينتج الصّدمات بشـكل أكبر بكثير ممّا تنتجه المتعة، هذه الصّدمات الناتجة عن ذلك الشّعور المُسلّط على الآخرينَ ستكون أساسًا اهتزازات أكثر عنفًـا، ذبذبـات سـيتردّد صداهـا في داخلنـا بأكثر قـوّة مُمكنة وستحشـر العقليّـات الحيوانيّـة فـي دوّامات أكثـر عنفًا، هذه العقليّـات الّتي تتحدد فـي المناطق السّـفليّة من خلال حركة الارتداد الّتي تُعتبر ضروريّة لها، ستسـرّع في تأجيج الأعضاء على المتعة وسـتجعلها في مهبّ النّشوة»، هكذا كتبَ ماركيز دي سـاد[1] مفكّرًا «بشـكل متزايد في إنسان زمنه» وفي إنسان

(١) ماركيـز دي سـاد (١٧٤٠-١٨١٤)، روائـي مثيـرٌ للجـدل، كانَ أرسـتقراطيّا ثائرا تميّزت رواياته بفلسـفتها المتحرّرة والسّاديّة والثّائرة على كلّ المنظوماتِ الأخلاقيّة.

المستقبل في كتابه «الفلسفَة في المخدعِ[1]».

ما تمكّن سَـادْ من اكتشافه هو أنّ السّبب أو الهدف الّذي يكمن وراء كلّ اهتزاز عصبيّ أمر أقلّ حسما من كثافته، ليس مهمًّا في النّهاية أن نجعل «الأداة الّتي تخدمنا» تشـعر بالمتعة أو الألم، بالنّشـوة أو الوجـع، بالفرح أو الحزن، الأكثر أهمّية من كلّ ذلك هي كثافة ما نشعر به، هذا لأنّنا حتّى وإن شهدنا تخلّصًا عنيفًا لأحدهم من الألم فذلك من شأنه أن «يُكهرِبَ» حواسّنا فيوقظهـا ويجعلهـا مُعـدَّةً للمتعة بشـكل متوافق مع الفكرة «السّاديّة[2]» القائلة إنّ النّشوة لا تتعلّق بالنّشوة في حدّ ذاتها بقدر ما تتعلّق بالقوّة الّتي تنتج النّشـوة أو الألـم (ولنا أن نلْحَظَ في هذا المُستوى أنّ الألمَ مؤثّرٌ أكثر من النّشـوةِ). إنّ الحـيَّ من يعتـرفُ بالإثـارةِ مبدأً أساسـيًّا، وهي رؤيـةٌ مُجرّدةٌ لأداتِـهِ وطبعـهِ الأخلاقـيّ أو اللاأخلاقـيِّ من أجـل الآخرين ومـن أجلـهِ أيضًا. لذلك يُمكن أن نعيشَ نشـوةً أعمقَ انطلاقًا من ألـمٍ قويٍّ أكثرَ من عيْشِـهِ من نشـوةٍ ضعيفَةٍ، هذا لأنَّ كثافَةَ

---

(١) كتـاب للماركيـز دي سـاد نُشـرَ سـنة ١٧٩٥ وهـو عبـارةٌ عن سلسـلةٍ مـن المحـاوراتِ الّتـي ترمي إلـى إطلاعِ الآنسـات على أسـرار الحياةِ الجنسيّةِ.

(٢) ساديّة: نسبة لماركيز دي ساد.

ما نشعرُ بِهِ تُعدُّ المقياسَ الوحيدَ والمُطلقَ للحياةِ برمّتِهَا. وإنّ الحيّ أيضًا مَنْ يشعرُ أنّه يعيشُ وفقَ أثرِ قوّةِ الصّدمةِ في شعوره، وأنّ الكائنَ المُخدَّرَ الّذي يتألّم أقلّ ويشعر بشكلٍ أقلَّ هو كائنٌ يعيشُ بشكلٍ أقلَّ أيضًا. غير أنّ هذه القاعدة السّاديّة ترتكزُ على اكتشافِ الطّبيعةِ الكهربائيّةِ للأجسامِ الحسّاسةِ، فالصّدماتُ العصبيّةُ المبثوثةُ داخلَ جسمٍ كهربائيٍّ بكثافةٍ تختلفُ باختلافِ كثافَةِ الإثارةِ في الأعصابِ تتيحُ لنا فهمَ كيفَ يشعرُ الكائنُ أنّه يعيشُ بشكلٍ «أكثرَ أو أقلّ». «ليست المُتعَةُ سوى تصادُمٍ حاصلٍ بينَ ذَرّاتٍ شهوانيّةٍ أو هي ناتجةٌ عن أشياء شهوانيّة فتُلْهبُ الجُسيماتِ الكهربائيّةَ الّتي تسري في تموّجات عصابِنا. لذلكَ، فإنّ المتعةَ إذا ما أردناها كاملةً ينبغي أن تكونَ نابعةً من صدمةٍ من أعنفِ ما يكونُ»، هكذا قالَ الشهوانيّ «سان فون» مُفسّرا لجولييت في رواية ساد.

كانَ الإباحيُّ في القرنِ الثّامن عشر خَصْمًا ومُحاورًا للمُؤمِنِ والفيلسوفِ وكانَ أيضًا من يروّجُ لمفهومٍ ماديٍّ للكونِ، فهو داعمُ التّجريبِ العاطفيِّ والجنسيِّ، وهو قبل كلّ شيءٍ التّجسيدُ الأولّ للإنسانِ المُكَهربِ في الحداثةِ الغربيّة.

إنّ العصبيّـةَ أو بالأحرى، إنّ سـمةَ الحيـاةِ الّتي تعتمدُ العصبيَّةَ أساسًـا هِيَ التّجلّي البديّهيُّ لتسـرُّبِ تيّار كهربائيّ إلى الجسـم البشـريِّ. فالإنسـانَ كائـنٌ عصبيٌّ بامتيـازٍ مثله مثـل أيّ حيوانٍ حسّـاسٍ آخـر ومثـل أيّ كائنٍ مُعـرّضٍ للألمِ والحـزنِ، لذلك يحرصُ الإباحيُّ على تعديل وجودِهِ وفقَ تلك العصبيّة، جاعلًا من أعصَابِهِ، ومن «ألبافِهِ الحسّاسّةِ» وفق تعبير ديدرو في كتابه «حلم دالمبيـر[1]»، الأوتارَ المُهتزّةَ لقيثارةِ جسـمِه الحيّةِ. فَمِن دُونْجـوان[2] إلـى كازانوفا[3]، ومن شـخصيّاتِ كريبيّون[4] إلى

---

(١) حلم دالمبير: كتاب لديدرو وهو عبارة عن محاورات فلسفيّة نُشر سنة ١٨٣٠ وتـدور هـذه المحاورات حـولَ تأملات الكاتـب للطبيعةِ بكل تجلّياتها.

(٢) دونجـوان أو دونخـوان: شـخصيّة أسـطوريّة مـن الإرث الفولكلوري الإسـباني، اشتُهِر فـي القـرن السّـابع عشـر وقـد تمّـت اسـتعادة هـذه الشـخصيّة في عدةّ أعمالٍ لعلّ أهمّها «ماجن إشـبيليا» للشـاعر تيرسو دي مولينـا (١٥٧١-١٦٤٨)، ومسـرحيات الفرنسـي موليـر وبرنارد شو...

(٣) جوكامـو كازانوفـا (١٧٢٥-١٧٩٨)، مغامر ومؤلّـف إيطالي يُعدّ من أشَهر العشّاق في التّاريخ. عُرف خصوصًا بعلاقاته المتعدّدة مع النّساء وتجاربه معهنّ، ويقال إنّه عاش علاقاتٍ مع ٥٦٥ امرأة.

(٤) بروسبر كريبيّون (١٦٧٤-١٧٦٢)، كاتب مسرحي فرنسيّ.

شخصيّاتِ دي لاكلو[1]، من المادّيّين الأوائل إلى سَاد، ظلّت صـورةُ الإنسـانِ المكثّـفِ مُعادلةً لكائنٍ عصبـيٍّ لا يكفّ عن إجـراء تجاربِـه علـى الآخرينَ وعلى نفسـه من أجـل تكثيفِ شـعورِه الجسـديّ الخـاصّ بوجـوده. وإنّ الإباحـيّ الّذي لا يعتـرف بـأيّ معيار أخلاقيّ سـوى تكثيف شـعوره، لا يرغب بحيـاة بعـد الموت أو بحياةٍ في الموت. لا، إنّه يريد أن يعيش حيـاة مُضاعفـة بالمعنـى الدّقيق التّالـي: أن يعيـش ضِعْفَ ما يعيشه الإنسان العاديّ. وهو من المواضيع الّتي طالما تردّدت عنـد كونديّاك[2] حين كتب يقول: "يبدو له أنّ كيانه يزداد وأنّه يكتسبُ وجودًا مزدوجًا".

كان الإباحـيّ في البداية فيلسـوفًا مادّيًّا في القرن السّـابع عشـر ثمّ تحـوّل إلى خبير صالونـات في القرن الثّامن عشـر، لذلـك كانَ رائد شـكل من الأشـكال الإنسـانيَّة الجديدة الّتي تأمـل فـي أن تعيـشِ أكثر، وأن تعـدّل مـا تعرفه وترغـبُ فيه

---

(١) بيير دي لاكلو (١٧٤١-١٨٠٣)، روائي فرنسي، أُشتهر بكتابه «العلاقات الخطيرة» وفيه يتحدّثُ عن المؤامرات العاطفيّة للطّبقة الارستقراطيّة.

(٢) إيتين كونداياك (١٧١٥-١٧٨٠)، فيلسوف فرنسي من فلاسفة التنوير مختصّ في علم النّفس وفلسفة العقل.

وتؤمن به، وفق أعصابها، بقياسِ قوةّ الأشياء وحواسّها وأفكارها بحسب كثافة الذّبذبات الّتي تهزّ جهازها العصبيّ.

الإباحيّ هو إذن الإنسان القادر على دعم تلك الكثافة المتعلّقة بجسمه الخاصّ والّذي يستخلص قيمة كلّ الحقائق المتعلّقَة بإثارة عالية نسبيًا لا تكفّ عن هزِّ أعصابِهِ. لا وجود لمبدأ آخر بالنّسبة إلى أيّ جسم حيّ عدا ذلك الّذي يقوم على قياس كثافة ما يصدمه عصبيًا وما يمنحه المتعة أو الألم. لا تتطلّب الأخلاق قياس أفعالنا بجملة من الأفكار المطلقة والأبديّة بل بتقييم كثافة الانطباعات والأفكار الّتي تصدمنا وفقًا لكثافة التيّار الّذي تولّده تلك الأفكار في أعصابنا.

الرّومانسيّ، إنسان العواصف الرّعديّة.

إذا كانت أعصاب الإباحيِّ قد غادرت الجسد الإنسانيَّ سريعًا لتتجذّرَ في الطّبيعةِ برمّتها: فإنّ الرّومانسيّ هو إباحيّ بشكلٍ من الأشكال لكنّه هجر المدن والصّالونات ليكتشف نوعًا من العصبيّة خارج جسده، عصبية مبثوثة في الطّبيعةِ في مجملها دائمًا ما تثبت العواصف الرّعديّة وجودها. إنّه شاعر

«العاصفة والاندفاع»[1]، شاعر العاصفة والعاطفة. وإنّ الانسان المكثّف الّذي عاش في أواخر القرن الثّامن عشر وبداية القرن التّاسع عشر هو إنسان يتبنّى نموذج الكثافة الطبيعيّة الّتي تتردّد في أعصابه كما تتردّد في السّماء. وهذا تمامًا ما تورده المقاطع الشّعريّة الّتي نظمت ذات طقس متقلّب من طرف اللّورد بايرون[2]: «تموتُ الغيومُ، تشقُّ النّيرانُ صفحةَ السّماء. آه أيّتُها اللّحظةُ الرّهيبة!» وهتفَ روني[3] «استيقظي بسرعةٍ أيّتها العواصفُ المُشتهاةُ!» ليردّد فيكتور هيجو ما يشبه الإجابة: «غدا تأتي العاصفَةُ».

يتزامن الإلهام لدى الشّاعر الرُّومانسي عادةً مع أوّل «رعشة حبّ» وهي صورة مستوْحاة من الصّعقة الكهربائيّة الطّبيعيّة المُفاجئة، من الرّعد والبرق اللّذيْنِ يعيدانه إلى يعتمل في داخله من كهرباء.

---

(١) العاصفة والاندفاع: حركة أدبيّة ألمانيّة تنتمي إلى التيّار الرّومانسي ازدهرت خلال القرن الثّامن عشر ومن أبر ممثّليها «غوته وشيلر».

(٢) اللّورد بايرون (١٧٨٨-١٨٢٤)، شاعر بريطاني من روّاد الشّعر الرّومنسي.

(٣) روني: رواية لدو شاتوبريان (١٧٦٨-١٨٤٨)، نُشرت سنة ١٨٠٢، يدعَى بطلُها روني المعروف بالبحثِ عن ماهيتِهِ.

قد يجسّد الإباحيّ والرّومانسيّ وجهيْنِ لذلك المثال الأخلاقيّ الّذي يقترح جان ديبرون[1] تسميته بـ «التّكاثُفيّة» intensivisme والّذي يحتوي -حسب رأيه- على ثلاثة مفاهيم في الوقت نفسه ألا وهي: الوقت والسّعادة والفرد. وهو ما نعثر على آثار له عند رُوسُّو وماركيز دي ساد. مفهوم يستند إلى اكتشاف هويّة للذّات لم تعد جوهريّة بل صارت راضخة لحركة مشتركة بين الأعصاب والرّوح ومعبّرة عن تقلّبات عميقة تشهدها الشّخصيّة مثلما تفعل التّيّارات الجارفة في عمق المحيط. وهو تمامًا ما لاحظه الطّبيب دو سيز[2] عندما كان يجري بحوثًا فيزيولوجيّة وفلسفيّة حولَ الحساسيّة والحياة الحيوانيّة، «وهكذا بالاعتماد على ذلك الإحساس الّذي يمثّلُ أساس الأحاسيس الأخرى [...] نتأكّد بأنّنا موجودون، ليس فقط لأنّنا نعرف ذلك لكنّ لأنّنا نشعر به: ذاك الشّعور الحيويّ في مرحلة الطّفولة يضيع أو يتداخل

---

(١) جون ديبرون (١٩٢٣-٢٠٠٦)، مؤرّخ فرنسي مختصّ في تاريخ الفلسفة من مؤلّفاته «ساد وعقلنة الأنوار» «تاريخ الحيرة في فرنسا»...

(٢) ستانيلاس دو سيز (١٩٠٣-٢٠٠٠)، بروفيسور طبّ فرنسي وعضو الأكاديمي العالمية للطبّ ويعدّ مؤسس طب الرّوماتزم في فرنسا حيثُ أسس مجلّة مختصّة في الأمر سنة ١٩٦٩.

مع اهتزازات الرّوح واضطراباتها الّتي ترافق سنّ الرّشد». إنّه الشّعور نفسه بالذّات الّذي سكنَ مفكّري القرن السّابع عشر، مثل مان دي بيران[١] وكبانيس[٢]. اكتشف بيران بأنّ الشّعور المطلق بالذّات يكمنُ في كثافة الجهد: فالإنسان الّذي يكون على مشارف الغرق يكتسبُ شعورًا حيويًّا ويكفُّ عن مناقشةِ وجودِ ذاته من عدمها - ذاك الشّعور الّذي لن يتوصّل الفكر المجرّدُ إلى الحسمِ فيه.

كيفَ يمكن التّأكّد من أنّنا نحن ذواتنا؟ إنّه السّؤال الحاسم الّذي يطفو من حين إلى آخر، ليقترح الإنسان المكثّف بمختلف صوره، إباحيّا كان أم رومانسيًّا إجابات فعليّة: لم يعد الفكر المحض قادرًا على ضمان تواصلنا مع أنفسنا ومع هويّتنا، لأنّ هذه الهويّة لم تعد أساسيّة، بل صارت مكثّفة. إضافة إلى ذلك، ينبغي أن نضع في حسباننا الحياة

---

(١) مان دي بيران (١٧٦٦-١٨٢٤)، فيلسوف فرنسي من أوائل الفلاسفة الّذين تناولوا «الإرادة» كموضوع فلسفي.

(٢) بيير جون جورج كبانيس (١٧٥٧-١٨٠٨) فيلسوفٌ وطبيب ورياضيّاتي متأثّر بفلسفةِ الأنوار له مؤلّفاتُ عدّة في مختلف المجالاتِ منها «نظرةٌ على الثّورات وإصلاح الطبّ» و«بعض الملاحظات حول التنظيم الاجتماعيّ»...

الاجتماعيّة الّتي تسعى لاختزالنا وإبعادنا قدر ما يمكن من إحساسنا بذواتنا. لا شيء يمكّن من مجابهة هذا النّوع من التّخدير سوى حركة داخليّة عنيفة وجهد من الكائن في مجمله، ذلك فقط ما سيمكّن الذّات من استعادةِ معناها الأكثر عمقًا ودرجتَها الأكثر عُلوًّا. كان يمكن للإباحيّة والرّومانسيّة أن تكونا نوعًا من المُختبرات الأخلاقيّة والعاطفيّة والسياسيّة لمشروع الصّمود ولتعزيز الشّعور المكثّف بالوجود، هذا الّذي يهدّد دائمًا بالتّناقص بمرور العمر وبالاندماج الاجتماعيّ. إنّ السّعادة القديمة والكلاسيكيّة الّتي كانت تتحدّد في غياب الاضطرابات على أنّها سلام أو سكينة تركت مكانها في عصر الأنوار لشعور حياتيّ قويّ ومضطرب: «فكثافة حياتيّة متعاظمة هي دائمًا سعادة متعاظمة»، هكذا كتبت مدام دي ستايل[١] ذات يوم. فكثافة الحياة هذه إنّما هي شعور عصبيّ جديد من شأنه أن يعقد روابط ما بين الطّبيعة الدّاخليّة والطّبيعيّة الخارجيّة في

(١) مدام دي ستايل (١٧٦٦-١٨١٧)، منظّرة سياسيّة وسيّدة أدب من اللّواتي وجّهت نقدا لنابليون بونبارت الّذي نفاها سنة ١٨١٠، لديها مؤلّفاتٌ كثيرة.

العقل الرّومانسيّ ومن شأنه أيضًا أن يعبّر عن تماثل طاقيّ بين الّذاتِ والعاصفة الرّعديّة.

اكتشف الشّاعر الرّومانسيّ الشّكل البدائيّ للكهرباء في العناصر الطبيعيّة الهائجة، كانت شحنة تعد بأن تكون أكثر فعاليّة من كلّ ما هو مبتذل في الفكر والمجتمع، لذلك قرّر تعديل وجوده الأخلاقيّ بحسب تلك الكثافة الطّبيعيّة. لقد كشفت له الصّاعقة الكهربائيّة هويّته الدّاخليّة الحقيقيّة وطبيعته الأخلاقيّة المتقلّبة. لعلّنا نتذكّر في هذا الخصوص رواية «آلام الشّابّ فرتر» لغوته[1]: «تتحرّك الأشكال الأخّاذة للكون الهائل لتُحيي كلّ الخليقة في عمق الرّوح! ثمّة جبال شاهقة تحيط بي، ثمّة هاوية تنفتح أمامي وسيول العواصف الرعديّة تتدفّق.»

إنّ الأنموذج الأخلاقيّ للكثافة الّذي يمتدّ من الأعصاب إلى حدود العواصف الرّعديّة ومن الجسم الإنسانيّ إلى الطّبيعة بأسرها سينسحب بشكل متسارع على العالم التّقنيّ

---

(١) آلام الشّاب فرتر: رواية ترسّلية للأديب الألماني الشّهير يوهان غوته (١٧٤٩-١٨٣٢) وهي رواية تتحدّثُ عن العاصفة والاندفاع الّتي كانَ لها أثر كبيرٌ في التّيّار الرّومنسي في الأدب.

والثقافيّ. فلوحة فنيّة صغيرة تعود إلى عام ١٨٣٥م، حيث رسم الفنّان جوزيف تيرنر[1] جملة من العواصف الرّعديّة الثّلجيّة ومن السّماوات المتقلّبة والأمطار الغزيرة، لوحة تُعَدّ استعادة صريحة للطّبيعة الكهربائيّة النّابعة من البرق الّذي بدا في جلّ لوحاته مندلعًا دائمًا: ففي ساحةِ البندقيّة وأمام قصر دوجي[2] كان البرق يضيء نصف قبّة كنيسة القدّيس مُرقس وأقواس مكتبة مارسيانا، برق يشقّ السّماء ليرتسم ما يشبه القوس الكهربائيّ ما بين تمثال القدّيس ثُيُودُور والعمود المنتصب في الجزء العلويّ حيثُ ينتصبُ الأسد المُجنّح للقدّيسِ مُرقس. حدثت صدفة عجيبة خلال تلك السّنة نفسها ١٨٣٥، فقد اخترعَ الاسكتلنديّ جيمس بُومانْ لينْدسي[3] أوّل مصباح كهربائيّ متوهّج: إذ أنتج دفق مستمر من الشّحنات الكهربائيّة شرارة تكاد تعمي العيون ما بين

---

(١) جوزيف تيرنر (١٧٧٥-١٨٥١)، فنّان رومانسي إنجليزي عُرف بلوحاتِهِ المستعيدة للطبيعةِ وتقلّباتها، لذلك عرف باسم «رسّام الضّوء».

(٢) قَصر دوجي: قصرٌ قوطيّ في ساحةِ مدينة البندقيّة الإيطاليّة.

(٣) جيمس بومان ليندسي (١٧٦٢-١٧٩٩)، مُخترع اسكتلنديّ لعدّةِ أدوات منها: المصباح الكهربائيّ، التلغراف البحريّ واللّحام القَوسي.

القطبيـن، لم يكن المخترع يملك بـراءة اختراعه حينذاك فتمّ تسـويقها من طرف توماس إديسـون[1] بعد عقـود من الزّمن. خصوصًا وأنّ مصباح ليندسـي لم يكن سـهل الاسـتخدام ما يعني أنّه لم يكن ينتج تلك الشّرارة بشكل متواصل. ولكن في العام نفسـه الّذي ظهر فيه المصباح الكهربائيّ البدائيّ، رسـم تيرنر لوحة «عاصفة فوق البندقيّة» على شكل مصباح طبيعيّ يبشّـر بالأداة المسـتقبليّة للحداثة التي تظهـر مثل طيف حالم في مدينة البندقيّة والتي ترمز إلى الثّقافة الأوروبية الكلاسيكية: كأنّمـا أعمـدة القدّيـس تيـودور والقدّيس مرقس قدْ شـكّلت مسـبقًا الخيطيْـن المُوصليْن وبينهما أسـلاك رقيقـة متوهّجة، هنـاكَ حيـثُ لا يكـفّ البرق عن وميضـه. بينما مثّلت سـاحة القدّيس مرقس برمّتها قاعدة أسفل المصباح العملاق.

سيتسـلّل الفراغ إلـى المصباح فيما بعـد حتّى تطول مدّة اسـتخدامه. غير أنّه قد يُخيّل إلينـا رؤية مصباح متوهّج معلّق فـي الهواء الطّلق ما بين لمسـات فرشـاة تيرنر. وبعد تفاوض دار بيـن المجتمـعِ البُرجـوازيّ والطّاقـة الطّبيعيّـة، قـد يرمـزُ

(١) تومـاس إديسـون (١٨٤٧-١٩٣١)، مختـرع ورجـل أعمـال أمريكي صاحب شركة جنيرال إليكتريك.

مصباح العاصفة الرّعديّة المرسوم في تلك اللّوحة إلى نقطة فاصلة بين نهاية الرّومانسيّة الّتي لم توقف بحثها بعد عن الطّاقة في عمق الطّبيعة والحداثة الّتي تبدو على مستوى عمليّ واجتماعيٍّ مُحرّكًا واعدًا بمزيدِ التّقدّمِ. ليس المصباح الكهربائيّ إلاّ عواصف رعديّة سُرعان ما تمّت السّيطرة عليها وتنظيمها وإحكام حبسها لتضيء مدننا ليلًا ليتمكّن الإنسان من التنقّل والعمل حتّى وإن كان الظّلام مدقعًا.

يمكننا إذن تلخيص تطوّر الملامح الأخلاقيّة للإنسان المكثّفِ على النّحو التّالي: في البدايةِ ساندَ الإباحيُّ الكهرباء العصبيّة الّتي ينتجها جسده، ثمّ اعتمد الرومانسي على أعصابه في الصورة المصغّرة لجسمه ليكشف ما يوازيه في طبيعة العاصفة الرعدية في الكون برمّته. أمّا الإنسانُ الحديثُ فقد سجن تلك العاصفة وأسكنها الفراغ ليستخدمها لأغراضه التّقنيّةِ.

عازفُ الرُّوك، المراهق المكهرب

لقد غيّرت كهربة الأشياء الأنموذج المكثّف الّذي انتقل مَن عالم الطّبيعةِ إلى عالم التّقنية. هذه مقولَة بعيدة من أن تكون مزحة: لنفكّر مثلًا في كهربة بعض الآلات، وخصوصًا الجيثار.

أمّـا في أوركسـترا الجاز، فإنّ حاجة عازفـي الجيتار لأن يُسـمع عزفهـم وسـط آلات نحاسـية مؤمنـة بشـكل متزايـد، ومرتبطة بإمكانية تضخيم ذبذبات الصوت قد أدّت إلى سلسة مـن التجـارب ابتـداءً مـن سـنة ١٩١٠، تمثّلـت فـي زرع مايكروفونـات في مقابـض الكمان والبانجـو والجيثار. لكنّ أحـدًا لـم يتوصّل إلـى التقـاط الذّبذبات من جسـم الآلة عدا بعـض الإشـارات الضّعيفـة والنّاشـزة النّاتجَـة عـن الصّـدى المتردّد بطبعه من صندوق الآلة الموسـيقيّة. فكان أوّل جيثار مكهـرب بشـكل رسـميّ سـنة ١٩٣١، وكان بعـد عبـارة عن جسم مقعّر من خشب شجر القيقبِ. سرعان ما أصبح الجيثار المكهرب جسما مملوءًا بعد محاولات عديدة لتطويره ابتداء من مركز ريكينبايكر Rickenbacker[١] إلى مؤسّساتٍ أخرى مثل دوبـرو Dobro[٢] وأوديوفوكس Audiovox[٣]وإيبيفون

---

(١) ريكينبايكـر Rickenbaker مصنـع أمريكـي للغيثـار البيـس والقيثـار الكهربائيّ تأسس سنة ١٩٣١.

(٢) دوبرو Dobro، الاسم القديم لشركة غيبسون للقيثار ومقرّه الولايات المتّحدة الأمريكيّة بدأ العمل سنة ١٩٢٠.

(٣) أوديوفوكـس Audiovox مصنـع أمريكـي لصنـع الآلات الموسـيقيّة بُعث سنة ١٩٦٠ وقد تغيّرت اسمه سنة ٢٠١٢ ليصبح فوكس voxx.

Epiphone[1]: وقد فهم أحد هواة موسيقى جُزر هاواي يحمل اسم جورج بوشامب[2] بينما كان يحاول كهربة فولاذ الجيثار أنّ الخصائص السّمعيّة للصّوت مثل الرّنين هي خصائص متعارضة مع تصميم أيّ آلَة موسيقيّة كهربائيّة. وكان قد صمّم جيثاره سنة ١٩٣٢ على شاكلة مقلاة من الألومينيوم غير مُعتمِدٍ على القواعد القديمة للرّنين وقد ترك إمكانيّة للزّيادة في حجم ذلك الصّوتِ بفضل ميكروفونٍ مُنقسمٍ إلى مغناطيسين على شكلِ حُذْوةِ حصان لها دور شدّ الأوتار حيث ألصق إليْها لفافة متكوّنة من ستّة أقطاب مُمْغنطة وهو ما أنتج مجالًا مغناطيسيًّا تحت كلّ وتر من شأنه التقاط كلّ الذّبذبات.

كان المكتب الأمريكيّ المختصّ في منح براءات الاختراع قد أبدى تحرّجًا أمام ذلك الشيّء التّقنيّ دون أن يتمكّن من التّقرير إذا ما كان أمام آلة موسيقيّة أم جهاز كهربائيّ. وذلك لأنّه كان كليْهما في واقع الأمر، فتلك الآلة

---

(١) إيبيفون مصنعُ أمريكي للآلات الموسيقيّة تمّ شراؤه سنة ١٩٥٧ من شركةِ غيبسون للقيثار.

(٢) جورج بوشامب (١٨٩٩-١٩٤١)، مخترع أمريكي وهو من صنع القيثار الكهربائيّ.

الكهربائيّة الّتي استخدمت الكثافة في تضخيم الصّوت هي ما يمرّر الموسيقى عبر مكوّن كهربائيّ. وليس هذا كلّ شيء: فقد ربطت أيضًا إذا ما جاز لنا التّعبير كهرباء الأدوات التّقنيّة بكهرباء الجسد وما فيه من عصبيّة طبيعيّة. هذا إلى درجة أنّ الجيثار الكهربائيّ قد أصبح بعد عقود من ذلك شعار التّجسّد الثّالث والأخير لإنساننا المكثّف، فبعد الإباحيّ والرّومانسيّ برز عازف الرُّوكْ المراهق.

إنّ صورة المراهق الثّائر الّتي نجد لها صدى في الشّعر على هيئة إنسان خارج من مرحلة الطّفولة دون أن يبلغ مرحلة الكهولة هي في الحقيقة برعم من براعم الإنسان الرّومانسيّ الّذي اشتدّ عوده في لجّ الثّقافات الشّعبيّة في القرن العشرين ومنها «الرُّوكْ أند رُولْ»[١].

المراهق هو قبل كلّ شيء كائن هرمونيّ منجرف بالرّغبة والغضب والإحباط. وما هو الرّوك؟ إنّه عبارة عن هورمونات

---

(١) موسيقى الرّوك أند رول Rock and roll نوع من الموسيقى الشّعبية الّتي نشأت في الولايات المتحدة الأمريكيّة في أواخر أربعينات القرن العشرين وهي نوعٌ من موسيقى الرّوك ولا تختلفُ عنه إلاّ في اعتمادها القيثار كآلةٍ رئيسيّةٍ.

مُكهربـة. وإنّ تسـجيل الموسـيقى والتّضخيـم الكهربائيّ، لا سيّما الجيتـار، قـد أعطى صـورة صوتيّة مبتهجـة وعنيفة في الوقـت نفسـه لكائن بالغ محروم من حرّيّتـه من طرف الأهل والعائلـة والمجتمع. للشّـابّ والشّـابّة اللّذيْـن ترعرعا داخل مجتمـع استهلاكيّ فـي كنـف الحرّية وعـدم الرّضـى في آن أعصـاب وعاصفـة داخليّـة مهتزّة في عمـق التيّـار الكهربائيّ ومتكوّنـة ومشـوّهة أحيانًـا بواسـطة نغمـات غريبـة تحدثهـا الدّوّاسـات ومتفجّرة عبر مُكبّـرات صوتيّة أمام جمهور هائج مائـج: تختلـط فيـه أعصـاب الإباحـيّ وعاصفـة الرّومانسـيّ اللّـذانِ عثـرا أخيـرًا علـى مخـرج تقنـيّ وصناعيّ فـي كهرباء الرُّوكْ أَنْد رُول الّتي تُمثّل مناسبة للتّخلّص من الانفعال.

ثمّـةَ بالطّبع سـمات أخلاقيّـة للرّوك الكهربائـيّ: إنّه مثلًا الـرّاوي المُحبَـطُ في أغنية «بلوز الصّيـف» للمغنّي الأمريكي إدي كوشـران[١]، الّـذي وجد نفسـه مجبرًا علـى العمل صيفًا مقابـل بعض الـدّولارات والّذي كان يريـد الاتّصال بفتاة من أجـل الفوز بموعد لكنّ رئيس عمله أجابه: «لا مجال لذلك،

---

(١) إدي كوشران (١٩٣٨-١٩٦٠)، ملحّنٌ وعازفُ قيثارةٍ ومُغنّ روك أند رول أمريكي.

ستعمل إلى ساعة متأخّرة»، وهو أيضًا مايك جاغر[1] الّذي لا يكفّ عن تكرار ألاّ وجود للاكتفاء وروجر دالتري[2] الّذي يُردّد أنّه يريد الموت قبل أن يُصبحَ شيخًا ومَارْك بُولاَنْ[3] المُتنكّر في زيّ «مُحاربٍ كهربائيٍّ»، كما هو فيرغل شاركي[4] الّذي كانَ يُريد الاستمتاعَ بمُراهقته طَوَالَ اللّيل وصوته مثقل بالرّغبة. ويصرُخُ أليسْ كُوبَرْ[5]: «أنا في الثّامنةِ عشر ولا أعرف ما أفعل!» بينما يعلن البيان الّذي وضعه النّاقد الموسيقيّ المتخصّص في موسيقى الرّوك إيفْ أدريان[6] في سبعينات القرن العشرين «إنّي أغنّي الرّوك الكهربائيّ»، مُحاكيًا قصيدة والت وايتمان[7]: «أغنّي للجَسَد الكهربائيّ.»

---

(١) مايك جاغر موسيقي وشاعر وملحّن ومغني روك بريطاني مولود في سنة ١٩٤٣.

(٢) روجر هاري دالتري مؤلّف ومغنّي روك وممثّل إنجليزي من موالد سنة ١٩٤٤.

(٣) مارك بولان مغنّ وعازف قيثار بريطانيّ مولود سنة ١٩٤٧.

(٤) فيرغل شاركي مغنٍّ من أصل إيرلنديّ ولد سنة ١٩٥٨.

(٥) أليس كوبر مغنّ وممثّل أمريكي ولد سنة ١٩٤٨.

(٦) إيف أدريان: كاتب وناقد فرنسي ولد سنة ١٩٥١ له مؤلّفاتٌ ومقالاتٌ عديدةٌ حولَ الموسيقى ومختلف التيّارات الفنيّة الحديثة.

(٧) والت ويتمان (١٨١٩-١٨٩٢)، شاعر أمريكي من أكثر الشّعراء تأثيرا على الأدب الأمريكي في القرن التّاسع عشر.

إنّها تلك الرُّومانسيّة المُكهربة الّتي أثارها جُون جاك شُولْ[1] في روايته «وردة الغبار»[2] وجعلت من الرّوك جنسًا موسيقيًا أخلاقيًّا: حيث توجد محاكاة أمينة لحركات الهُرمونات لدى البالـغ، ورغبتـه الجامحة في ممارسـة الجنس وفـي الصّراخ لكنّها تمرّ عبر مصفاة المفاهيم الرومانسـيّةِ والسّـأم والمثاليّة ليتمّ إفراغها عبر شحنات كهربائيّة.

إنّ هـذا الأنمـوذج الشّـبابيّ المكثّـف والمُكهـرب الّذي حـاول التّعبير عن خوالجه إبّان الحـرب العالميّة الثّانية يمثّل ربّمـا آخر أنموذج عظيم للإنسـان الحديث المُتميّز: فقد كان الإعجاب الموجّه لعازفِ الرّوك الشّابّ بمثابة المؤشّر الدّالّ على شغف عصريّ مُتناهٍ تَقَاسَمَهُ جمهور لم يكفّ عن التّزايد نُصـرة لتلـك المنظومـة الأخلاقيّـة - الحيـاة المتسـارعة، الاضطراب الّذي يشوب كلّ المشاعر، الرّغبة في الاستسلام لكثافـة كلّ طـارئ، الشّـعور بـأنّ ذروة الحيـاة واقعة في سـنّ

(١) جون جاك شـول: كاتبٌ فرنسـي وُلدَ سنة ١٩٤١ وحاصل على جائزة غونكور سنة ٢٠٠٠ حولَ روايته «أنجريد كافين».

(٢) وردة الغبار: رواية لجون جاك شـول، قدّم فيها الكاتب قراءةً للتّاريخ الحديثِ بالاعتماد على الموسيقى أو ما يسـمّيه الكاتب نفسه «السّرد الموسيقي» للأحداث.

المراهقة والبلوغ وأنّ تجربة الكهولة ما هي سوى سلسلة من التّسويات والتّنازلات حيث تنخفض كثافة الحياة وتتناقص وتتباطأ. كما كانت صورة عازف الرُّوكْ نتيجة ديمقراطيّة لعدّة تحوّلات طرأت على الأنموذج الأخلاقيِّ على مدى ثلاثة قرون على الأقلّ. لقد كان الرُّوكْ ملكًا للجميع. لذلك رأت الأرستقراطيّة أنّ هذا الأنموذج قد بدأ بالتّجلّي بشكل وقح في التّجريب الإباحيِّ خلال القرن الثَّامن عشر، لينتقل خلال القرن التّاسع عشر إلى البرجوازيّة المُستنيرة الّتي استوعبت التّيار الرّومانسيَّ وليتمّ في النّهاية تدجينه ودمقرطته وإدخال الآلات الكهربائيّة إليه خلال القرن العشرين. أيّد الإنسان المُكثّف في البداية الكثافات في جسده الخاصّ ثمّ أيّدها في الطّبيعةِ بوصفها كليّة لينتهي إلى دمقرطتها عبر تقنيات التّضخيم الصّوتيّ والتّسجيل والبثّ.

إنّ إباحيّ القرن الثّامن عشر ورومانسيّ التّاسع عشر والمراهق عازف الرُّوكْ الّذي سطع نجمُهُ خلال القرن العشرين هم إذن ثلاثة وجوه للقصّة السّريّة نفسها، قصّة أنموذج أوروبيّ اتّسعت دائرته ليصبح غربيًّا وأكثر شعبيّة وقصّة حياة نُظِرَ إليها على أنّها تجربة كهربائيّة لتعزيز كثافة

عالـم حديـث كان على وشـك الانهيـار فيما يشـبه الاكتئاب الفكـريِّ. وهـم أيضًا ثلاثة وجوه للإنسـانيّة نفسـها الحريصة علـى عـدم الاكتفـاء باسـتغلال الكهربـاء مادّيًـا، كأن تكتفـي بجلـب الكهربـاء إلى المسـكن وإلـى آلات التّدفئة ومختلف التّجهيـزاتِ المنزليّـة الأخـرى لكنّها تجـاوزت كلَّ ذلك إلى حُدود السّـماح للكهرباء باختراقها كي تُنعشَ كامل كينونتِهَا. انتشر هذا المشروع انتشارًا واسعًا بين شباب القرن العشرين. وهـي دمقرطـة لم تكن دون فائدة: إذ لـم تعد الكثافة بوصفها أنموذجًـا مُشـتركًا بيـن أكبـر عـدد ممكن من البشـر مـا يمثّل أنموذجًـا أخلاقيًّـا خاصًّا ببعض المتميّزيـن بقدر ما أصبحت طريقـة شـائعة لتعديل الحيـاة. لذلك لم يعد مـن الممكن أن ترتبط بأخلاق اسـتثنائيّة بل صارت ما يوحي بأخلاقيّات أكثر عموميّة.

أخلاق الوصف وإيطيقيا الظّرف.

قـد يرتبـط التّمييـز بيـن الأخـلاق والإيطيقيـا بتحديـد الاختـلاف النّحويّ الصّـرْفِ بين الصّفة والظّرف: يتمّ تحديد موضوع الأخلاق بالاعتماد على الصّفة أمّا موضوع الإيطيقيا

فيُحَدّدُ بواسطة الظّرْف. فحسبَ عبارة لجاك برنشفج[1] ذكرتْهَا أستاذة الفلسفة فريديريك إيلديفونس وهي من تلك المقولات الّتي تنطبق على الرّواقيّة وحتّى على أطروحتيْ أفلاطون وأرسطو «إنّ الإيطيقيا ظرفيّة». لذلك تكمن خصوصيّة الإيطيقيا في تعريف الظّرف الّذي يُشير إلى الطّريقة الّتي وفقها ينبغي أن نَعِيشَ. بينما تكمن الخصوصيّة الأساسيّة للأخلاق في تقييم صفة أو صفات عديدة متعلّقة بالميزات الّتي ينبغي أن نكتسبها. فالأخلاقُ تُلزمني أن أكون عادلًا ولائقًا ومُحترمًا بينما تطالبني الإيطيقيا بأن أمارس تلك الأخلاق بالعدل والاستحقاق والاحترام الّذي أنا عليه. لأنّه من الممكن أن نكونَ غير عادلين بعدل وأن نُؤْذِي بشكل جيّد وأن نُحْسِنَ بشكلٍ سيّئ، إنّها تتعلّق إذن بطريقة الفعل ولذلك فهي ظرفيّة: هي لا تتعلّق بالمُحْتَوى. أمّا الأخلاق فإنّها من جهتها تُثبِّت القيم والأفكار دون حكم مسبق حول طريقة ملاءمة السّلوك لتلك القيم أو تلك الأفكار. ربّما لا وجود لأخلاقٍ دون إيطيقيا كما لا وجود لإيطيقيا دون أخلاق، لكنّ

---

(١) جاك برنشفج (١٩٢٩-٢٠١٠)، جامعي ومؤرّخ فلسفة فرنسيّ، له عدّة مؤلّفات منها «المعرفة اليونانية: قاموس نقدي» الخ...

هـذا التّمييـز البسـيط من شـأنه أن يتيح لنـا فهم كيفيّـة ارتباط القيـم الّتي ينتجها الأفراد بمحتويات أو بطرق إنجاز فعل من الأفعـال. لاحظـتْ فريديـرك إيلديفونـس أنّ معظم الأخلاق القديمـة والمفاهيـم المُتعلّقـة بالسّـيادة والفضيلـة والسّـعادة كانـت دائمـا ما تَرِدُ فـي صيغة المصدر محـدّدة بظرف، مثل: الغاية هي «العيش بشكل ملائم مع الطّبيعة». تكمنُ الإيطيقيا هنـا في عبـارةِ «بشـكل ملائم». لكـن، لنجعل الأمر أشـمل: يرتبـط أيّ مقتـرح إيطيقـيّ منهجيّا بطريقة ما، ويرد في شـكل ظرف أو مركّب ظرفيّ، حيث يمكن للمقترح الإيطيقيِّ نفسه أن يستوعب مضمونيْنِ أخلاقيّيْنِ متعارضيْنِ. يمكن لأيّ فرد أن يتفاعـل بأمانـة مع أمر يدعوه إلى قول الحقيقة أو ربّما إلى الكـذب من أجل الحفاظ على شـخص ما، سـيكون أمينًا في كلتـا الحالتيْـنِ حتّـى وإن تعارضـت أخلاقـه مع نفسـها. كما يمكن لشـخصيْنِ أن يحملا الأخلاق نفسها وهو ما يجعلهما مُشـتركيْنِ في المبادئ نفسـها لكنّهما قد يثبتان تلك الأخلاق بشَكل مختلف فيتصرّفان وفق إيطقيّات متعارضة. إنّنا نعيش دائمًـا نوعيْـنِ مـن الصّداقـاتِ: صداقـات أخلاقيّـة وأخـرى إيطيقيّـة، صداقـات تقوم علـى الصّفة وأخرى علـى الظّرف.

وإنّنا دائمًا ما نتعامل مع أشخاص نشترك معهم في الأفكار والقيم والأذواق والمبادئ نفسها لكنّهم يختلفون تمامًا عن طريقتنا في التّصرّف وعن طريقتنا في التفكير والتفاعل وعن ذكائنا. ثمّ إنّنا أصدقاء لأشخاص آخرين يحملون مبادئ أخلاقيّة أو سياسيّة غريبة عنّا، والّتي قد تصدمنا أحيانا لكنّهم قد يمتلكونَ الطريقة نفسها الّتي نملكها في فعلنا وفكرنا وعلى نحوٍ إيطيقيّ متطابق. إنّ العلاقة الّتي تربطنا مع قيَمِنا هي الّتي تقرّبنا في هذه الحال حتّى وإن فرّقتنا قيمنا الخاصّة. سيبقى المجال مفتوحًا أمام كلّ شخص دون أدنى شكّ في اختيار أصدقاء أخلاقيّين أو إيطيقيّين، أن يولي أهميّة أكبر للمحتويات الأخلاقيّة أو أن يرتبطَ بالطّريقة نفسها مع تلك المضامينِ مهما اختلفت فيما بينها.

قد يبدو لنا لوهلة أنّ الكثافة قد اضطلعت بدور الأخلاق في بادئ الأمر: فالإباحيّ وحتّى الرّومانسي يبحثان عن كثافة عصبيّة وعاطفيّة ووجوديّة، الأمر الّذي أنتج نوعًا من الأنموذجِ الأخلاقيِّ المثير الّذي توخّاه كلّ فرد في سلوكه وفي علاقاته العاطفيّة وفي أقواله: فالحماسة الّتي توارثتها كلّ أوروبّا منذ القرن الثّامن عشر كقيمة أساسيّة للحياة

شكّلت محتوى إيجابيًّا للإثارة في معناها الجنسيّ وللنّضال في معناه الثّوريّ. غير أنّ الكثافة كمفهوم لم تدم أبدًا بوصفها مُحتوى. فهي صنو للصّمود أمام مقولة التّماثل لذلك هي قبل كلّ شيء مفارقة. أمّا على مستوى العلاقة فسرعانَ ما أصبحت الكثافة طريقة أكثر من كونها موضوعًا. وسرعان ما استتبعت أيضًا أخلاق الإنسان المكثّف بإيطيقيا بسيطة. وتمكّنت هذه الإيطقيا من الانتشار على نطاق واسع بما أنّها كانت منسجمة مع كلّ المعتقدات أو تكاد تكون كذلك. هذا لأنّ الكثافة تحوّلت إلى مبدأ إيطيقي أكثر من كونها مبدأ أخلاقيًّا تمّتْ دَمْقَرَطته. وقد يكون العكسُ صحيحًا بالطّبعِ: فلأنّ الأخلاق تحوّلت إلى معطى ديمقراطيٍّ فقد أصبح محتواها أقلّ أهمّية من شكلها الّذي صار في متناول جمهور واسع. قد لا نتّفق إذن على ما ينبغي عيشه لكن من الممكن أن نتفق حول طريقة العيش: أي بشكل مكثّف.

٥

أنموذج إيطيقيّ

العيشُ بكثافة

ضدّ «برْجَزَةِ» emboursgeoisement الكثافات.

يمكـن للطّبـع المكثّـف الّـذي يتميّـز بـه الإباحـيّ كمـا الرّومانسيّ بوصفه مثالًا أخلاقيًا أن يتعارض مع «اللامُكثّف». لكنّ الكثافة الّتي تحوّلت إلى أنموذج إيطيقيّ يشـمل الجميع صارت متاحة لتجريب الأقلّ كثافة وراضخة لإدراك وعرْض مُكهربيْن. يمكن إذن للإنسان الضّعيف نفسه أن يوجد بشكل قويّ.

ظلّـت المُثُـلُ المكثّفة لوقـت طويل قائمة الـذّات بفضل معارضتها لمختلف الرّموز الّتي تجسّـد نفيَ الكثافة الحياتيّة. فقـد تصـدّى الإباحـيّ والرّومانسـيّ والمراهـق المُكهـرَبُ للأعـراف الاجتماعيّة ولأنصار النّظام القائم الّذين تجسّـدوا في شـخوص مثل الكاهن والقاضي والأسـتاذ. شـكلّت هذه

الرّموز المُضادّةُ صدًّا حائلًا دون تحقّق الإنسان المُكثّف لذلك كانت دائمًا محلّ سُخريّة في هامش الثّقافة الرّسميّة وفي القصائد البوهيميّة وفي نوادر المثقّفين «الزّوتيك» les Zutistes[1]. فمثّلت مواضيع للمناشير والنّصوص القادحة والبيانات الوقحة الّتي صدرت عن الطّليعة الرّوسيّة والألمانيّةِ ولبيانات السّرياليّةِ والأمميّة الموقفيّة[2]. كما كانت مُعارضة اللاكثافة الحياتيّة الّتي تسعى النّظمُ الاجتماعيّة لإرسائها بمثابة المحرّك لتلك الرّوح الرّياديّة الجريئة. هكذا انشغل الفنّانون أو الثّوريّون بانتقاد أنماط الحياة العاديّة الّتي لم تكن تقبل بالكثافة الأساسية للعالم.

ما دام الإنسان المكثّف مرتبطًا بمحتوى أخلاقيّ خاصّ فبإمكانه أن يلمس مصلحة في كلّ شيء باستثناء ذلك الملل الّذي يصيب الإنسان الّذي لا يعيش بشكل حقيقيّ. وكي

(١) حلقة المثّقفين الزّوتيك: مجموعةٌ من الشّعراء والرّسامين والموسيقيين الفرنسيين الّذين كانوا يجتمعونَ منذ ١٨٧١ وكانوا يشتركونَ في معارضتهم للسلطة القائمة. وتحتوي عبارة زوتيك على كلمة زوت Zut الّتي قد تعني: أفّ أو تبًا...

(٢) الأمميّة الموقفيّة: حركة ثوريّة سياسيّة وفنيّة تشكلت سنة ١٩٥٧ وهي ذات جذور ماركسية ولا سلطويّة.

نكون أكثر دقّة: قد يهتمّ (الإنسان المكثّف) بهذا الملل على شرط أن يكونَ مللًا قويًا، أي أن يكون مللًا باعثًا على الدّهشة، على شاكلة الوهن العصبيّ غير العاديّ الّذي كانَ يصيبُ «بارتلبي النّساخِ[1]» أو «أوبلوموف[2]» أو حتّى الخمول الّذي أنتجته جماليّات (عدم القدرة على التّواصل) في الستينيات في روايات ألبيرتو مورافيا[3] أو أفلامِ أنطونيوني[4]، ليس عكس الإنسان المكثّف إذن هو الإنسان الّذي يشعر بضعف في كثافته الحياتيّة لأنّ مثل هذه التّجربة

---

(١) بارتلبي النّساخ: قصّة للكاتب الأمريكي هرمان ملفيل (١٨١٩-١٨٩١)، يعملُ بارتلبي النّساخ في مكتب محامٍ ويتميّز بالهدوء وكانَ يُردّد كلما طلب منه رئيسُه في العمل الّذي كان مُحاميًا عجوزًا مهمّةً ما: «الأفضل ألاّ أفعل ذلك.»

(٢) أوبلوموف: رواية للرّوسي إيفان غونتشاروف (١٨١٢-١٨٩١)، حيثُ يعيشُ بطل الرّواية حنينًا متناميًا لطفولته فلا يفعل سوى الاستلقاء على أريكةٍ في غرفتِهِ، الأريكة الّتي يعتبرها أعظم مكوّنٍ في وجودِه.

(٣) ألبيرتو مورافيا (١٩٠٧-١٩٩٠) كاتب إيطالي ومن أشهرهم في القرن العشرين له عدّة روايات شهيرة تحوّل عدد كبير منها إلى أفلامٍ سنيمائيّةٍ.

(٤) مايكل أنجلو أنطونيوني (١٩١٢-٢٠٠٧)، مخرج سينمائي وكاتب سيناريو إيطالي من أشهر أفلامه الليّل، الخسوف والمغامرة.

تبقى مُعدّة لأن تشهد تحوّلًا كثيفًا عبر كيمياء خاصّة بالحداثة الّتي من شأنها أن تحوّل الضّعيف إلى قويّ والصّغير إلى كبير والفارغ وجوديًا إلى كُتلة جماليّة والكسل إلى انشغال. لا، إنّ عكس الإنسان المُكثّف هو بالخصوصِ «الضّعيفُ بشكل ضعيف» ما يعني المتوسّط.

إنّه الإنسان الفاتر.

دائما ما اعتُبِرَ ذاك الفتور في الخطاب العاطفيّ والشّعريّ أو السّياسيِّ أمرًا مُستهجنًا. فنحنُ غالبًا نرى أنّ اللّغة المتّسمَة بالبهجة والحماسة مخصّصة للأفراد المنتمين إلى معسكرنا نفسه. فنستخدم مفردات متّصفة بالصّداميّة والعنف ضدّ ألدّ أعدائنا، أمّا المفردات الّتي تحمل معاني الاشمئزاز والذّلّ فإنّنا نكيل بها كيْلًا لأولئك الّذين لا يختارون، أولئك الّذين يتّصفون بالقليل من كلّ شيء دون تكثيف في أيّ شيء. «ما الّذي يمكننا أن نكنّه لذلك القليل من الرّغبة وذلك القليل من القناعات والشّهيّة الّتي يتّصف بها الفتور؟» تساءل فيليب غارنييه[1] في مقالة له حول هذا الموضوع. فالفاتر محايد

(١) فيليب غارنييه كاتبٌ وصحفيٌّ ومترجمٌ ولدَ سنَة ١٩٤٩، له عدّة مؤلّفاتٍ ما بين الرّواية والكتب الفكريّة منها: أذنُ الأصمّ، عودةٌ في =

أيضًا، ومرفوض بسبب عدم التزامه بشيء، هو صنو للجبن، وهو الإنسان المُتمركز وسط المعبر، المُدّعي للتّقارب مع الجميع في انتظار حسم يأتي من التّاريخ ذاته. إنّه الخائن المُحتمَل لكلّ المعسكرات. هذا لأنّ المحايد هو كلّ من يتهرّب من التّناقضات. وهو من يدّعي ألاّ كثافةَ لديْهِ لا في هذا الاتّجاه ولا في ذاك. فارغٌ كما هو، أي أنّه ليس نقيّا بل مُفتقرا لكلّ فاعلية. إنّه تافه في عمق كينونته.

إنّ التّفاهة - بعيدًا من كونها «المتوسّط الذّهبي» l'aurea mediocritas[1] (أي وسط الأشياء تمامًا) والّذي تغنّى به الشّاعر اللاّتينيّ هوراس[2]- هي أيضًا من المواضيع الّتي لا تكفّ عن التّردّد في الشّعر والرّواية والأفلام والأغاني الحديثة بوصفها نقيصة غير قابلة للإصلاح من نقائص الإنسان «المسطّح». إذ من الأفضل عيش كثافة قويّة في أيّ

= اتّجاه دافيد قوديس، الأركانُ المقطوعة الخ...

(١) المتوسّط الذّهبي حسب أرسطو هو الاعتدال والأخذ بكلّ شيءٍ من طرف.

(٢) هوراس (٦٥ق.م -٨ ق.م)، شاعرٌ غنائيٌّ وناقدٌ أدبيّ لاتينيّ ذاع صيته زمن أغسطس قيصر.

شـيء بما في ذلك المعاناة على عيش حقيقة وجمال أو حياة تافهة.

ربّمـا يتعيّن علينـا الاهتداء إلـى بعض مخلّفـات إيطيقيّة أرستقراطيّة ضمن هذه القناعة في زمن الدّيمقراطيّات. فنحن لـم نعد نحكم على محتوى سـلوك ما بـل صرنا نفضّل تثمين رفعـة طُرُقه وتقييم كثافته. هذا لأنّ النّبل الحقيقيّ يرتكز على الطّريقة لا على المُسـمّى. إن تكن فاشـيًّا أو ثوريًّا أو محافظًا أو بورجوازيًّا صغيرًا أو متأنّقا أو رجلًا صالحًا أو حتّى مُحتالًا وزعيمَ عصابَةٍ - كن ما شئتَ لكن بقوّةٍ. أن تكون إنسانًا مُكثّفًا هـذا ليس كلّ شـيءٍ، ينبغي أن تكونَ الإنسـان المُكثّف الّذي أنـت عليـه. وها هنا تكمن حيلـة الدّيمقراطيّة الّتي اتّصف بها المصطلح.

تتميّـز الكثافة بهذا المعنى بمثاليّة مرنة بما يكفي لتتمكّن مـن الإحاطـة بنقيضها. وقـد حدث بيـن الفيْنَةِ والأخرى أن اتّخذ التّسطيح والحياد والاكتئاب أو التّفاهة في حدّ ذاتها قوّة غيرِ مُتوقّعة. وهنا، اعترف الإنسـان المكثّف بكلّ أمانة بقيمة محتملة للتّفاهة. ففي اللّحظة الّتي ترد فيها التّفاهة بشكل غير تافه، وترد السّـطحيّة بشـكل غير سـطحيّ يمكن لنا أن نجعل

منها تجارب محفّزة. لنا في رواياتِ ويلبك[1] الأولى أحسن مثال. لطالما أشادت الحداثة بالتّناول القويّ لمواضيع مثل الضّجر الوجوديّ واللّحظات المفرغة وتدنّي كثافة المشاعر والإيمان والفكرِ. يمكن أن نجد أوصافا آسرة لمثل تلك المواضيع في أقاصيص لأنطون تشيخوف[2] وريموند كارفر[3] وأليس مونرو[4] الّذين كانوا ينقّبون في أسرار الحياة العاديّة وفي العمق العاطفي لموجودات تبدو طافية على سطح مياهها الرّاكدة. عندما تطوّر الأدب وأصبح يعالج مجالات طالما ظلّت على هامش الحياة اليوميّة الدّيمقراطيّة لزمن طويلٍ، استسلم للكثافة كلّ من قاومها بالأمس. فقد

---

(١) ميشال ويلبك ولد سنة ١٩٥٦ أو ١٩٥٨ وهو روائيّ فرنسيّ ومخرج سينمائي وشاعر مثير للجدل، مختصّ في كتابة قصص الرّعب، يشبّهه منتقدوه بـ «بائعٍ متجوّلٍ ذي بضاعةٍ فاسدة.»

(٢) أنطون تشيخوف (١٨٦٠-١٩٠٤)، طبيب وكاتب روسي معروفٌ بإجادته القصة القصيرة منها: المَحار، السّمين والنّحيف، البداية، السّهوب إلخ...

(٣) ريموند كارفر (١٩٣٨-١٩٨٨)، كاتب وشاعر أمريكي يُعدّ من أهمّ كتاب القصّة القصيرة في القرن العشرين.

(٤) أليس مونرو ولدت سنة ١٩٣١، كاتبة قصّة قصيرة كنديّة حصلت على جائزة بوكر للآدب سنة ٢٠٠٩ ونوبل للآدب سنة ٢٠١٣.

اكتسب كلٌّ من الملل والتّفاهة والحياة القرويّة اكتسبت نوعًا من الكهرباء الجماليّة ومن اللّمعان الباهت كالّذي يتجلّى في روايات جوستاف فلوبير[1].

ما الّذي تبقّى إذن لمقاومةِ هذه الكثافة الجماليّة؟ إنّه التّجسّد الاجتماعيّ «للمتوسّط بشكل متوسّط». هذا التّجسّد الّذي أطلقنا عليه اسما طالما عنى الكثير بالنّسبة إلى العقول الحديثة: إنّه البُرجوازيّ. «إنّ التّفاهة برجوازيّة» هكذا قالت سيمون دي بوفوار[2] ملخّصةً التفاهة في كتابها «مذكّرات طفلة مطيعة». فكلّ أولئك الّذين رغبوا بشدّة بكثافةٍ في العيش والتفكير لأكثر من قرن من الزمن، كرهوا تلك الطّبقة الاجتماعيّة الواقعة في الوسط، فلا هي الوديعة الأرستقراطية للماضي، ولا هي البروليتاريا prolétariat التي بدا المستقبل موعودًا بها. لا توجدُ إهانة للإنسان الحديث أسوأ من:

---

(١) جوستاف فلوبير (١٨٢١-١٨٨٠)، روائي فرنسي ينتمي إلى المدرسة الواقعية اشتهر بروايات مثل: مدام بوفاري، التّربية العاطفية، صالامبو الخ...

(٢) سيمون دي بوفوار (١٩٠٨-١٩٨٦)، كاتبة ومفكّرة نسويّة فرنسيّة وفيلسوفة وجوديّة، اشتهرت بمؤلّفاتٍ عديدة لعلّ أهمّها كتاب «الجنس الآخر».

«بورجوازيّ!» ما الّذي قد تعنيه هذه الكلمة؟ إنّها تعني بالطّبع: «أنت بلا كثافة». فالبرجوازيّ-ونحن نعرف الرّسم الكاريكاتيريّ الّذي يصوّر وجهه على هيئة إجاصة[1] في عهد الملك لويس فيليب- يعني الرّخو. وإنّه الآكل متى جاع والرّاضي عن نفسه دائمًا، هو «السيّد هومي[2]» في رواية «مدام بوفاري» لفلوبير وهو موضعُ سخريّة آرثر رامبو[3] ومحطّ سباب الشّبّان في أغنيةِ جاك بريل[4] («البرجوازيّون،

---

(١) الإجّاصات: رسم كاريكاتوري نُشر سنة ١٨٣١ بمجلّة «الكاريكاتير» في عدد السادس والخمسين وكانَ يرمز لنضال الجمهوريّين ضدّ ما يُسمّى حينذاكَ «مَلَكيّةُ يوليو» تحت حكم لويس فيليب (١٧٧٣-١٨٥٠). أنجز الرّسمَ شارل فيليبون (١٨٠٠-١٨٦٢). وتجدر الإشارة إلى أن اختيار الإجاصةِ كشكلٍ قد يعود أيضا للمعنى اللّغوي للكلمة poire الّتي تعني فيما تعني أيضا السّاذج والأبله.

(٢) السيّد هومي: شخصيّة من شخصيات رواية مادام بوفاري ويتميّزُ بزهوّه بنفسِهِ وادّعائه المعرفة العلمية الأمر الّذي حوّله إلى نمطٍ سلوكيّ يدرّسُ في النّظرياتِ النّفسيّة الحديثة والتّحليل الأدبي.

(٣) آرثر رامبو (١٨٥٤-١٨٩١)، شاعر فرنسيّ له أثر كبير على الأدب والفنون الحداثيّة.

(٤) جاك بريل (١٩٢٩-١٩٧٨)، مغنٍّ وشاعر غنائيّ من أصل بلجيكي كما هو مخرج سينمائيّ.

إنّهم أشبه بالخنازير»). «إنّه في الوسط تمامًا، نباتيٌّ ومستكرشٌ» كما سخر بول فيرلين[١] في بيت شعريّ له هذا من «السّيّد برودهوم[٢]». ظلّ البرجوازيّ من بيتروس بوريل[٣] إلى شارل بودلير إلى أونوريه دُومييه[٤] إلى غوستاف كوربيه[٥] إلى بوب ديلن[٦] (بشخصيّته «السّيّد جونز» العالقة على مدى أغنيته الّتي تحمل عنوان «أغنية رجل رقيق») إنسانًا رافضًا بشكل سلبيٍّ تكثيف حواسّه. إنّه الإنسان الخالي من كهرباء داخلية ومضاء بمصباح صالونه.

---

(١) بول فيرلين (١٨٤٤-١٨٩٦)، شاعر فرنسيّ ينتمي للتيّار الرّمزي في الأدب. له عدّة قصائد شعريّة ساخرة من أين أخِذَت الجملَةُ أعلاه.

(٢) السيّد برودهوم: شخصيّة كاريكاتوريّة للبرجوازيّ الفرنسي الّتي شاعت في القرن التّاسع عشر.

(٣) بيتروس بوريل (١٨٠٩-١٨٥٩)، كاتب وشاعر وصحفي وسياسي فرنسي.

(٤) أونوريه دوميه (١٨٠٨-١٨٧٩)، رسّام كاريكاتير ومصوّر ونحات فرنسي تتسم أعماله بقربها من الحياة الاجتماعية والسياسيّة خلال ذلك العصر.

(٥) غِوستاف كوربيه (١٨١٩-١٨٧٧)، رسّام فرنسي ينتمي إلى المدرسة الواقعيّة، من أشهر لوحاته تيودور جيريكو.

(٦) بوب ديلن مغنّ وملحّن وشاعر أمريكي شهير حصل على جائزة نوبل سنة ٢٠١٦.

إنسان ساكن، مسْتقرٌّ، متزوّج، له حياة مسطّرة، رجلُ أمنٍ ذو عقل ضيّق ومنسّق، ميّال إلى الحبّ باعتدال، لا يعرف إلاّ ما يلزمه من العلوم، تاجر، محاسب، وهو نقطة التّوازن داخل المجتمع. لكنّه يمثّل أيضًا آخر نقطة في المقاومة الاجتماعيّة للكثافة الإيطيقيّة. ومن المفارقات أنه تمكّن بمقاومته هذه من الحفاظ على نفسه. اتّخذت فكرة العيش بكثافة في لجّ مواجهتها مع البورجوازيّة معنى أكثر تجاوزًا وكهربة. فقد مثّل البرجوازيّ نقيض الكثافة الأخير دون شكّ بعد الكاهن والفيلسوف. إلاّ أنّه ليس إنسانًا قادرًا على ركوب المخاطرِ ولا على خوض المُراهنات. هو الّذي لم يَخُضْ تجربة مثيرة واحدة دون أن يتأكّد من سلامتِهِ مُسبقًا. فـ«البرجزة» هي إذن المخاطرة الّتي تُهدّد الرّوح بغياب نهائيّ للمخاطرات: «إنّها انعدام كلّ قلقٍ روحيّ، الأمر الّذي يساعد على ترسّخ السّطحيّة البرجوازيّة»، هكذا أعلن نيكولاس بيرديائيف[1] في كتابه «مصير الإنسان في العالم الحديث» سنة ١٩٣٤.

لكنّ البرجوازيّ أراد هو الآخر أن يكون ما هو عليه

(١) نيكولاس برديائيف (١٨٧٤-١٩٤٨)، فيلسوف وسياسي روسيّ يُعد من أهمّ رواد الفلسفة الوجوديّةِ المسيحيّة.

بكثافة، أن يكون مُستقرًّا في الرّفاهيّة وأن يرتجف من الإثارة جالسًا في مقعده الخاصّ، أن يتلقّى تحفيزات صغيرة بانتظام. لقد كانت تجربة «قبلة لايبزيغ» في نهاية المطاف موجّهة إلى بورجوازيّين. هكذا تمّ تحديد مشهد الكثافات واستهلاكها وتفريغ الشّحنات الكهربائيّة على أثر وعد من مجتمع التّرفيه والألعاب والسّينما والمُنتزهات التّرفيهيّة الخلاّبة. ثمّ انتشرت البضائع في كلّ مكان لتقترح على أولئك الّذين يكسبون لقمة عيشهم بصعوبة أن ينفقوا أموالهم حتّى يشعروا بالحياة. وهكذا نجا آخر مُحتوى أخلاقيّ مُقاوم لتعميم الكثافة الإيطيقيّة.

ها إنّنا قد انقدنا مرّة أخرى إلى الوصف كما في مستهلّ بحثنا وفي خضمّ وضعيّتنا المشتركة.

ما دامت الكثافة لم تعد تُحَدّدُ بوصفها مُحتوى بل بوصفها طريقة فإنّ الجميع قادرون على محاولة الحصول على وسائل من شأنها بثّ بعض الحرارة في وجودهم البارد: شحنة كهربائيّة خفيفة لإدخال بعض الإثارة على الرّتابة اليومِيّة. وهكذا أصبح الإنسان المكثّف في ظلّ تعميم مبدئِهِ الإيطيقيِّ مُجبرا على استنباط حيَلٍ حتّى يتجنّب «البرجزة» الّتي لا تكفّ عن تهديد إحساسه بالحياة.

الحيلةُ الأولى: أن ينوّع.

تهدفُ أولى الحيل إلى إفشال التّبيسط البُرجوازيّ للحياة وتتمثّل في تأويل الكثافة على أنّها تنوّع. اكتشف الإنسان المكثّف من خلال عكسه لقيم الفكر الكلاسيكيِّ أنّ مشاعره تساعده على الانتقال من حالة إلى أخرى أكثر من كونها تساعده على البقاء في الحالة نفسها. لذلك يمكن للتّنوع بوصفه مبدأ أن يعني رفضَ تدجين المشاعر: فأن تُحبّ بشكل حصريّ ووفيّ الشّخص نفسه يعني أن تحكم على مشاعر الحبّ فيك أن تذبل حتّى وإن كانت في ذروتها. لا بدّ من التّنويع إذن من أجل إيقاظ الرّغبة وتحفيزها، لا بدّ من عيش مشاعر مختلفة ومن تجريب كلّ أنواع الحبّ ومن قياس مستمرّ لما يفصل تلك الأنواع، لا بدّ من سبر أغوار المجهول، لأنّ التّجربة الإنسانيّة لا تنبلور إلاّ بتنوّعٍ دائم في موضوعاتها. نفهم إذن من خلال وجهة النّظر هذه أن التّطابق يضعف الشّعور أمّا التنوّع فيقوّيه.

لا بدّ من تعديل التّجارب من أجل تجنّب الوقوع في «البرجزةِ». لذلك يخوض الإنسان المكثّف سباقًا ضدّ كلّ

شـكل من أشـكال تحديـد ما هو عليـه وتحديـد كلّ ما يعرفه وكلّ ما يحسّ به.

قد يكون الإدراك معنيًّا أساسًا بالبتّ في العلاقات لذلك لا يهتمّ الإنسـان المكثّف بالشّـيء في ذاته لكنّه يهتمّ بما يميّز ذلكَ الشّيء عن غيره أو بالهمزات الواصلة اللامرئيّة الّتي قد تربط بين لحظتين أو بين كائنين. لا يمكن لكائن حسّـاس أن يثبت حساسيّته إلاّ بتماسّه مع كائن آخر، كما لا يمكن لطبيعته تلـك أن تحقّـق ممكناتها إلاّ بالانتقال مـن علاقة إلى أخرى. ينبغـي الاعتراف إذن بأنّ الإنسـان المكَثّف سـريع الملل. إنّه يريـد دائمًـا أن يكون شـخصًا آخـر. وإنّه ليشـعر بذلك الملل بسـبب خوفه الدّائم من «البرجـزة». كل ما يعده بتفكيرٍ مثاليّ ونهائي يفسـدُ بسـرعة فيشـعر بحاجة ملحّة إلى أن ينتقل إلى تجريبِ شيء آخر. ما يظلُّ ثابتًا قد يكون صحيحًا ولكنه ليس حيًّا. فما يظلّ على بساطته ورسوخه وثباته يرضي العقل دون شـكّ العقل - الذي هو الجزء الميّت من جسـدنا- لكنّه يهين الشّـعور بالحيـاة الذي لا يتجلّـى إلا عندما تنعكس مشـاعره المختلفـة كمـا هـي الحال في لعبـة مائيّة أو في سـماءٍ مُتغيّرة بفعل الموسيقى.

وإنّ الحذر الّذي يتوخّاه الإنسان المكثّف تجاه الفكر والمعارف واللّغة وكلّ ما يختزل التّنوّع الحيّ إلى مجرّد وحدات ثابتة وكمّيّات وكلّ ما يجعل العالم غير معدّ للحياة، هو ما يدفعه إلى مراوغة فكره الخاصّ وإلى ابتكار استعارة أصليّة للسّيطرة على كلّ ما يتجاوزه. فهو الّذي يفضّل إسعاف روحه وعقلِهِ بشيء مزهر، بكائن دائم التّنوّع، بنوع من الحركة الّتي لا تملك دافعًا واضحًا. وبما أنّ الأمر يتعلّق بمقاومة كلّ استقرار نهائيّ وكلّ إحساس متحجّر ناحية الحياة، فإنّ تلك الحيلة غالبا ما تتجلّى في مقارنة الحياة الحقيقيّة بالمُوسيقى. لقد وفّر الشّكل المُوسيقيّ منذ الرّومنسيّة إلى حدود ظهور الرُّوك الصّورةَ الأكثر وفاء لكلّ من يرفض الاستعبادَ، لذلك حرّكت كلّ القلوب وكلّ اللّغات وكلّ المفاهيم وهزّت كلّ سكون. إنّها «حركة دون دعامة» وفق تعبير الملحّن أندريه بوكوريشلييف[١]. قد تفيد الموسيقى كإيطيقيا حرّة بما أنّنا لو عدنا إلى تحليل برنارد سِيفْ[٢] في كتابه «التّدهور الموسيقيّ»:

---

(١) أندريه بوكوريشلييف (١٩٢٥-١٩٧٧)، ملحّن وناقد موسيقي من أصل بلغاري حصل فيما بعد على الجنسيّة الفرنسيّة له إلى جانبِ معزوفاتِه الكثيرة مؤلّفاتٌ تعنى بالموسيقى.

(٢) برنارد سيف أستاذ الجماليّات والفلسفة جامعة شارل دي غول الفرنسيّة وُلِدَ سنة ١٩٥١.

«لا شـيء يظلّ في مكانه خلالَ المعزوفة الموسيقيّة، لا شيء فيهـا متطابـق مع ذاته، يكفي تمديد بسـيط في إحـدى نُوتاتها خلال زمن معيّن حتّى وإن بدت اسـتعادة متطابقة مع الأصل حتّى نحصل على إنتاج مختلف.»

ولأنّ الإنسـان الحديثَ صارَ مدفوعا بأنموذج ظرفيّ في كلّ أفعاله ومشاعره وأفكاره بالطّريقة نفسها الّتي يتعرّض فيها لصعقـة كهربائيّة، ولأنّه يقاوم ضـدّ «برجزةِ» ذاتِه فقد صار لا يتأثّـرُ بدايـةً بما هـو ثابت. إذ فقدَ طعم الهويّـات فصار بالكاد قـادرًا على رؤية ما لا يتنـوّع: أي أنّ كلّ فعلٍ متكرّر إلى أجل غير مسـمّى في عمـل محدّد يصبح غير محتمل بالنّسـبةِ إليه، كمـا أنّ فكـرة الخلود نفسـها تجعله يتثـاءب، والرّخام يجعلُ البُـرودة تتسـرب فـي أوصالـه، كلُّ مـا يُنْكِـرُ الحيـاةَ وتنوّعها الموسـيقيَّ يغضبـه: تبدو له معطيـات مثل المُطلـق والكمال شبيهة بخلل في الوجودِ برمّته وعجز عن الاستمرار ناتج عن افتقـار مضامينِـه من كلّ كثافة. كما تبدو له الأهداف السّـامية للتأمّـل الدّينـيّ أو الحكمـة تعبيرًا صريحًا عـن الضّعفِ إذا ما ارتبطـت بِمُثلٍ حيّـةٍ للتّنوّع. لذلكَ أحبّ في الموسـيقى ذلكَ التّغيّـر لأنّ التّكـرار صـورة مسبقة للجحيـم. وإنّـه لا يكتفي

بالاختناق ما إن تتناقص ممكناته مثل إنسان «كيركغور[1]» بل ما إن يجد نفسه مُهدّدا بإعادة التّعرف إلى ما يعرفه من قبل. وإنّه لا يهتمّ بكلّ ما يبدو له متطابقا لأنّه يريده إمّا «أكثر أو أقلّ»، ويفضّل تغيير أرائه المشكوك فيها على أن يكتفي بيقين راسخ. إنّه فضوليٌّ في كلّ شيء، لذلك يمكن له أن يعيش الألم كما المتعة طالما أنّ شعوره متغيّر وأنّه يشعر بالحركة وبمعزوفة - متناسقة كانت أو متنافرة - لا يهمّ، تهزّ إحساسه بالحياة.

الحيلة الثّانية: أن يُسرّعَ

بإمكانِ أيّ طريقة أن تتحوّل سريعًا إلى مُحتوى رغم ذلك، وتهدّد كلّ إيطيقيا بأن تُختزَلَ إلى قيم أخلاقيّة: فأن نفعل كلّ شيء بتنويع من شأنه أن يحوّل الأمر إلى مُجرّد تنويع لا أكثر. أن ننوّع بشكل ثابت. وهي حالة نفسية شائعة: كالّذي لا يعيش إلاّ من أجل التآمر والوقاحة فينتهي بأن

---

(١) إنسان كيركغور: نسبةً للفيلسوفِ الدّنماركي سورين كيركغور (١٨١٣-١٨٥٥)، وهو فيلسوفٌ وجوديٌّ وشاعرٌ ولاهوتيٌّ انتقد الدّين المنظّم والأخلاقَ الثّابتةَ وعلم النّفسِ وفلسفة الدّين ويعتبر الفردَ «منفردا» بذاتِهِ لذلك من المهمّ أن يختار وأن يلتزمَ بما يلائمه.

يحـوّل هـذا النّوع من التّجـاوز إلى معيار. ها هـو يتحوّل إلى برجوازيّ رغم أنفه. وهو الاحتمال الغامض الّذي ليس سوى طيف من أطياف الإنسـان الحديث المُكثّف الّذي يطمح إلى الحفاظ على كثافته الخاصّة فيمنعها من اتّخاذ شكل المعيار.

ينبغي عليه إذن أن يستنبط حيلة فكريّة جديدة حتّى يراوغ تلك «البرجزة» المُحْدِقَةِ به. فإنساننا المكثّف الّذي يقاوم أيّ مأسَسَةٍ مرفّهة لمشاعره لا يرى الكثافة مجرّد منظومة تنوع بل يراهـا تزايـدًا مسـتمرًّا: ليس من الكافـي أن تتنـوّع الكثافات، ينبغي عليها أن تتزايد أيضًا. لا بدّ للأشـياء أن تزداد قوّة حتّى لا تنتهـي بالتّجمّد. لقـد تعوّدت على الانتقال الموسـميّ من الألم إلى اللّذّة ومن الفرح إلى الحزن ومن الظّلمة إلى النّور: إنّه نظام راسخ إلى حدّ الآن ويتّسم بالهدوء والطّمأنينة. فبعد المطـر يحـلّ الطّقـس الجميـل. فـي مقابل هـذا التعـوّد على الكثافـات، بـات من الضّروري أن يتزايـد الألـم، وأن يعصف بـي دائمًـا بطريقـة تبعث علـى المزيد من الذّهـول، وأن يغزو أطرافـي اكتفـاء متزايد القـوة، وأن تكون اسـتفزازاتي صادمة أكثـر فأكثـر، وأن تتطرّف الفكـرة الّتي ترشـدني، وأيًا أن يبدو الليـل أكثـر قتامـةً، وأن ينفجـر الضّجيـج أعلـى فأعلـى، وأن

يجرفني الحبّ بشكلٍ أكثر عُنفًا. على إنساننا المكثّف أن يكون راغبًا في تأجيج كلّ الرّموز وكلّ الآثار الّتي قد تنجرّ عن حيويّته على أمل أن يتغلّب على الاستقرار الوجوديِّ أو على هذا القصور الّذي يصيب الرّغبة. لا يوجد سقف للتزايد الضروري للكثافات. إنّه تكثيف لا نهائيّ ممتزج بالجهد الحياتيّ ذاته ومفتوح ما أمكن على كل الآمال: فتطوّر العلوم، وصيرورة التّاريخ، والنّموّ الاقتصاديّ وازدهاره من شأنه أن يحفّز الإنسان المكثّف، هذا الّذي لا يمكنه الحفاظ على الكثافة إلا بشرط أن يجعل كلّ شيء أكثر حيويّة وسرعة. لذلك، سرعان ما تحوّل الإنسان المكثّف الّذي كان ينتمي إلى الإباحيّة أو الرّومانسيّة إلى إنسان متحمّس للحركات الرّياديّة مثل السّرياليّة والحركة المُستقبليّة[١] والبنائيّة[٢]

---

(١) المستقبليّة: حركة فنيّة تأسّست في إيطاليا بدايةَ القرن العشرين، تفرّعت عنها حركاتٌ مماثلة فيما بعد. يُعدّ الكاتب فيليبو توماسو مارينيتي (١٨٧٦-١٩٤٢) مؤسّسًا لها. وهي حركةٌ ترفضُ كلّ الفنون السّابقة بهدف بناءِ فنّ مستقبليٍّ.

(٢) البنائيّة أو المنهج البنائيّ: نظريّةٌ تُستخدمُ في التّعليم وتوضّح الطّريقةَ الّتي يبني الكائن معارفه وفقها ويُعتبر «جان بياجيه» (١٨٩٦-١٩٨٠) من مؤسّسيها الأساسيّين.

وحامل مشروع الإنسانيّة الجديدة. يطمح إلى «التقدّم بخطوات واثقة» على حدّ عبارة رامبو. وإنّه على مدى الأجيال يدعو إلى التّقدّم وإلى اختراق حاسم في مجال الشّعر والفكر والفنون البصريّة والسّياسة أو الأعرافِ. إلى الأمام! يتسارع باستمرار مثل السيّارات والقطارات والطائرات من شأنه أن يبعدنا أكثر عن عصر ما قبل التّاريخ والأسطورة حيث كان التّكرار يمثّل القيمة الأعلى للثّقافة. أمّا عندما يعبّر شعراء مثل غيّوم أبّولينير(١) ومارينيتي أو بيسّوا(٢) عن سأمهم من العالم القديم فهم في الحقيقة يأملون من الحياة الحديثة أن توسّع إدراكنا وأن تقتلعنا من ابتذال الأفكار القديمة ومن ثقل الأعمال الكلاسيكيّة. تصبح الحداثة من خلال وجهة النّظر هذه الأفيون العقليّ الأكثر قوّة: الأفيون الّذي يضمن الإثارة المفرطة الّتي تدفع بإنسانيّتنا قاطبة لاقتلاع نفسها من التّفاهة. لنا أن نُدمن هذا الأفيون

---

(١) غيوم أبولينير (١٨٨٠-١٩١٨)، شاعر ومسرحي وروائي وناقد فني فَرنسي من أصل بولندي يُعتبر من أهمّ روّاد التّيار السريالي.

(٢) فرناندو بيسّوا (١٨٨٨-١٩٣٥)، كاتب وشاعر وفيلسوف برتغالي من أهمّ أعماله: كتاب اللاطمأنينة، لستُ ذا شأن، نشيد بحري...

بالطّبعِ. هـذا ليس أمـرًا خطيرًا: ينبغي أن نزيـد في الجُرُعات وأن نسرّع أكثر فأكثرَ من وتيرة التّفكيرِ.

كانَ جـان بودريّارد[1] قد أشـار إلـى أنّنا ما إن نفهم منهج التّاريـخ حتّـى نتمكّن من تجاوزه بواسـطة العقـل. «وإنّ هذه الطّفـرة ناتجـة عـن تسـارع ما: فنحـن نحاول السّير بسـرعة متفاقمـة حتّى نجد أنفسـنا قـد بلغنـا النّهاية فعليًّـا. افتراضيًّا! لكنّنـا هنـاك علـى أيّ حـال». لقـد تـمّ اسـتعادة هـذه الحيلـة الحداثيّة نفسـها مـن قبل نظريّات مثل نظريّـة التّفرّد والحركة «التّسـريعيّة»[2] لنيـك سرنيسـيك وأليكـس ويليامـز لتحوّلها لصالحها. لم تعد السّـرعة الحديثة كافية لسحر لبّ الشّعراء،

---

(١) جـان بوردريّـارد (١٩٢٩-٢٠٠٧)، فيلسـوف وعالم اجتماع فرنسيّ يُعـرَفُ خصوصًا بكتاباته حول النزعة الاسـتهلاكية ووسـائط الاتصال الحديثـة وأثرهـا علـى المجتمع، من أشـهر أعماله: حـرب الخليج لم تحدث، مرآة الإنتاج، مجتمع الاستهلاك: الأساطير والبُنى.

(٢) الحركة التّسريعيّة: اتّجاه ذو منحى سياسيّ يرى أنّ التّحوّلات الجذريّة الّتي يشـهدها المجتمع تسـتدعي تسارعا رأسـماليّا وفي كلّ العمليّاتِ المرتبطـة بهـا تاريخيّـا. حـرّر الفيلسـوفان البريطانيّان والأسـتاذان في جامعة لندن نيك سرنيسيك وأليكس وليامز بيانا تأسيسيّا لهذه الحركةِ في كتابهما المشترك الّذي يحمل عنوان «رأسماليّة المنصّةِ الرّقمية».

تمامًا مثلما أصبحت السيّارات القديمة شديدة البُطء في غضونِ نصفِ قرن من الزّمن. يمكننا التّحمّس لسرعة السيّارات الحاليّةِ مع أنّنا متأكّدون من أنّها أبطأ من سيّارات الغد. لا ينبغي رغم ذلك التوقّف في منتصفِ الطّريق: ينبغي التّقدّم بحركة أسرع من الحركة الحاليّة. وهكذا يمثّل التّفرّد التكنولوجيّ التّسارع الّذي يميّز التّطوّر التكنولوجيّ إلى حدّ بلوغ نقطة إذا ما تجاوزناها تحلّ الآلةُ ذات الذكاء الخارق محلّ الذّكاء الإنسانيّ. أمّا بيان الحركة «التّسريعيّة» لسنة ٢٠١٣ فقد رفض ما وُجِّهَ من انتقادات متردّدة لليبراليّة الجديدة والتّطوّر التّقنيّ من طرفِ اليسارِ القديم ليدافع عن تسارعها بالفكر التّقدّمي: لا يتعلّق التّحرّر بإبطاء كثافة التّقدّم وإنّما بالإسراع فيها أكثر عبر الفكرِ وعبر تصوّرِ «مستقبلٍ أكثر حداثةً». مستقبل يحتاج إلى إعادة بثّ الاحساس لذلك يجب تحسين تمثّله الذي أصبح مألوفًا أكثر من اللاّزم. لا ينبغي مثلًا أن نقبل بمتاعب النّفوس المحافظة بل ينبغي أن نبتكر أكثَر وأن نزداد تحرّرًا بشكل أفضل. فأن نستمرّ في التّقدّم على الشّاكلة القديمة يعني الوقوف دون حراك وإمكانيّة التّراجع في أقرب ما يمكن، أي التّحوّل إلى الرّجعيّة في نهاية

المطاف. علينا أن نحثّ الخُطى، أن نسير بشكل أسرع من الموسيقى ذاتها. ولن نتقدّم إلاّ بدفع الثّمن التّالي: «أن نسرّع عمليّة التّطوير التّكنولوجيّ باستمرار».

من الطّبيعيّ أن تنبع لذّة التّسارع من منطق الإدمان. فهو مُعطى يرافق فكرة التّطوّر مثلما يرافق الشّعورُ بالرّضا المتزايد استهلاك مادّة المُورفين. وقد وصف توماس دي كوينسي[1] وحلّل في مرحلة مبكرّة جدًّا هذا التّعوّد بقوله: «يشعر كلّ جسم تلقّى مادّة المُورفين لوقت مُعيّن بحاجة متنامية لتلقّي جرعات متزايدة: إنّها حاجة جسديّة [...] لا وجود لإنسان في اعتقادنا مهما كان صلبًا وعالِمًا وحيويًا يستطيع أن يُستثنى من هذه القاعدة» إنّ تأثير المورفين والأفيون الّذي وصفه دي كوينسي منذ سنة ١٨٢٢ على أنّه «سمّ مقدّس» هو تأثير مُتناقض: فهو زيادة (في المتعة)، زيادة ستتناقص لو ظلّت في المستوى نفسه، ولا يمكن الحفاظ عليها إلا إذا ما تزايدت أكثر فأكثر. لقد كان دي كوينسي الّذي ترجمه شارل بودلير

(١) توماس دي كوينسي (١٧٨٥-١٨٥٩)، كاتب إنجليزي اشتهر خصوصا بكتابة سيرته الذّاتية حيثُ سردَ تأثير إدمانه الكحول على حياتِهِ إلى جانب مؤلّفاتٍ أخرى تراوحت بين التّاريخيّ والسياسيّ.

من أوائل الّذين تفطّنوا إلى هذه المُفارقة: فما يظلّ على حاله يتناقصُ، مثلما تنتهي دائمًا زيادةٌ مُنتظمَةٌ بأن تبدوَ للحساسيّةِ كأنّها حالةٌ ثابتةٌ. في كلّ تقدمٍ ملموس، يكتشف الإنسان المكثّف أنّ عطشه صوب التزايد لا يمكنه أن يُروى إلا بزيادة مضاعفةٍ. فهو يشعر بشكل ملتبس بأنّه كلّما ازداد إحساسه، صار من الصعب أن يجعله ينمو أكثر.

وها هنا تتوالد في روحه حيلة ثالثة وأخيرة.

الحيلة الثّالثة: الحنينُ إلى البدايةِ (البريمافيريزم)

عندما يصبح الشّعور بالتّطوّر مُنفلتًا من كلّ محاولة للسّيطرة عليه يلجأ الإنسان المكثّف إلى تمثّل تجربة تبقى الأقوى من ضمن كلّ تجاربه، فهي تجربة لا تحتاج الزّيادة من أجل رسوخها. «هذا لأنّ المرّة الأولى تظلّ الأجمل يا سيّدتي!»، هكذا كتب الشّاعرُ بول-جان توليت[1] يومًا. كما غنّى رامبو في قصيدتِهِ «صبيحَة سُكْرٍ»، للقوّة الّتي تميّز المرّة

(١) بول- جان توليت (١٨٦٧-١٩٢٠)، كاتبٌ وشاعر فرنسيّ، اشتهر بما يسمّيه «القافية المضادّة» التي بلورَها بنفسِهِ، له عدّة مؤلّفات شعريّة ونثريّة من أهمّها: السيّد مور، رجلٌ شعبيّ، زوج دون كيخوتة، الطّفلة الصّغيرة الخضراء، القوافي المضادّة إالخ...

الأولـى: «يا للفعـلِ المجهولِ النّابعِ من الجسـدِ البديعِ للمرّةِ الأولى!» على العكسِ تمامًا من «السمّ المقدّس» الّذي تغنّى به دي كوينسي والّذي يتراجع أثره كلّما استوجب الزّيادة في جرعـات منـه، فالمرّة الأولـى الّتي تغنّى بها رامبو، هي «سـمّ سيسـري في عروقنا كلّها رغم كلّ شيء، وستدقّ الطّبول كي نعـود إلى فوضى البـدء». يترك هذا الوعـد الخالص المتمثّل في التّجربة الأولى المجال للتّكرار وللتّعوّد ولتفتّت المشاعر مع مرور العمر. لكنّ الإنسـان المكثّف يرى في صموده أمام «البرجـزةِ» أنّ كنـز البـراءة كثافـة قصـوى، مـن حيـث نبعـت التّجربـة أوّل مـرّة. هـذه صورة من شـأنها أن تريحَهُ من تطوّر الإدمـان الذي يصبح الحفاظ عليه مؤلمًا بشـكلٍ متزايد. إنّها بلسـم شـاف لآلام ناتجـة عـن تطـوّر قسـريّ: الحنيـن. لكنّ الحنين شـعور قديم، فـي حين أنّ الإنسـان المكثّف حديث، لذلـك كان عليـه التّغلّـب علـى المصاعـب النّابعـة من دعمه للتّطوّر المتسارع كضرورة وذلك باستنباط حيلة قد تكون من أكثر حيَلِهِ دهاء رغم تناقضها: أن يميل وعيه ناحية البراءةِ، أن يعتـرف اعتمادا على تجربتـه المكثّفة بالكثافـة القصوى الّتي تتصف بها «المرّات الأولى».

تساءل مغنّي الرّاب دريكْ[1]: «متى كانت آخر مرّة قُمْتَ فيها بشيء لأوّل مرّة؟» فإنساننا يتنوّع، إنسانُنا يتطوّر ويتسارع، لكنّه يحتفظ بأفعاله الأولى وبلقاءاته الأولى مُعتبرًا أنّ خبراته اللاّحقة ذات الكثافات المتزايدة تبعده بحتميّة ما عن النّقطة الأولى حيث كان أثر تلك الخبرات أكثر قوّة على أحاسيسه، وحيث كانت درجة الكثافة أعلى ما يمكن. إنّه الشّعور نفسه الّذي عبّرت عنه أغنية روبيرتا فلاك[2] «أوّل مرّة رأيتُ وجهكَ»، بلازمتها الّتي لا تكفّ عن التّكرّر فيما بعد: «أوّل مرّة قبّلتُ ثغرَكَ»، «أوّل مرّة استلقيْتُ بجانبك»... من المؤكّد أن تتمنّى المغنّية في آخر الأغنية أن يدوم ذلك الحبّ إلى الأبد، لكنّها تجعلك تشعر بأنّ أوّل مرّة تلك ستكون الأقوى على الإطلاق، ستظلّ ذكرى قويّة من شأنها أن تغذّي المرّات اللاحقة. أوّل مرّة شربت فيها، أوّل مرّة دخّنت فيها أوّل

---

(١) دريك واسمه الحقيقي أوبري دريك غراهام (من مواليد ١٩٨٦) في كندا، ممثّل معروف ومغنيّ راب. لعب دور جيمي بروكس في مسلسل: الجيل التّالي إلى جانب أدوار كثيرة أخرى، له في مجال الرّاب عدّة ألبومات.

(٢) روبيرتا فلاك (من مواليد سنة ١٩٣٧)، موسيقيّة ومغنيّة «سول» أمريكيّة.

سيجارة، أوّل مرّة أحببت فيها، أوّل مرّة قبّلت فيها، أوّل مرّة أنجبت فيها طفلي الأوّل... قد تسمح المرّة الثّانيَة بالزّيادة وبالتّهذيب وبتعديل شعور التّجربة الأولى أو تعميقه. لكنّ التّجربَةَ الأولى دون غيرها هي الّتي تمنح الشّعور كاملا. كلّ ما يتوافر لنا في المرّة الثّانية يكون بكثافة متناقصة بالمعنى التّالي الدّقيق: المرّة الأولى هي المرّة الوحيدة الّتي يمكنها أن تكون الأولى. أمّا المرّة الثّانية فلم تعد التّجربة الوحيدةَ. بالعودة إلى كلمة «بريمافيرا primavera» الّتي تعني الرّبيع في اللّغة الإيطاليّة وإلى «فيريزم vérisme»، الحركة الجماليّة الّتي تبحث عن الحقيقة في الواقع، نقترح أن نسمّي بـ «البريمافيريزم: الحنين إلى البداية» هذا التّوق الّذي يهزّ الإنسان المكثّف الّذي لا يكتفي بالتّنوع والتّطوّر فيعتبر التّجربة الأولى بما فيها من الطّفولة والبلوغ والمرّات المبكّرة أو المراحل الأولى من التّاريخ حمّالة للحقيقة القصوى. «يحنُّ إلى البدايةِ» إذن كلّ من يعتبر في عمقه ألاّ وجود لما هو أقوى من أيّ شيء في بدايته، أمّا كلّ ما يتقدّم أو يكبر أو ينمو فهو في الحقيقة يفقد كثافته. إن التّقديس المبالغ فيه الّذي نجده اليوم في الثّقافة الشّعبيّة لسنّ المراهقة واعتبار

تلك المرحلة حاملةً حقيقةَ المشاعر الإنسانيّة أمر يعود بدوره إلى «الحنينِ إلى البدايةِ»: إنّه الرّبيعُ الحامل للإحساس الحقيقي في كلّ كائنٍ لأنّ أحاسيس الجسم الذي استقبل الحياة لتوّه هي الأقوى على الإطلاق. وهو ما يفسّر معظم الحركات الجماليّة للنّهضة والآمال المتعلّقة بالعودة إلى أغاني الشّبابِ أو كليشيهاتها clichés. يمكننا أن نشرح من خلال هذا المبدأ نفسه الذوق البدائيّ للفن الحديث بالنسبة إلى الفنّ الأوّل أو الفنّ السّاذج[1] ويمكننا أيضًا أن نشرح انقلابَ حركة التطوّر الّذي اعتمده بعض الفنّانينَ مثل الرّسّام جوليس بروتون[2] مُفضّلين دائمًا «الرّؤية البدائيّة» على الجفاف النّاتج عن الوعي أو العقلنة. وهنا ندرك الآثار غير المباشرة لمفهوم روسّو المتعلّق بالتّباعد التّاريخيّ عن الشّعور الطّبيعيِّ الأكثر حيويّة. فقد استعاد الإباحيّون هذا «الحنينَ للبدايةِ» بطريقة مثيرة. كأن تستمع الماركيزة دي

(١) الفنّ السّاذج، ويسمّى أيضًا الفنّ الخارجي وغالبا ما يكونُ حمّالا لحالاتٍ عقليّةٍ متطرّفَةٍ وخياليّةٍ.

(٢) جوليس بروتون (١٨٢٧-١٩٠٦)، رسّام وشاعر فرنسي يعتبر من أوائل الرّسامين الّذي غاصوا في عوالم الأريافِ من أشهر لوحاته «بؤسٌ ويأس».

ميرتوي[1] ببراءة «سيسيل دي فولانـج» البدائيّة بما أنّ «ربيع الاحساس» هذا مُحَرّم على الماركيزةِ بسبب وعيها العميق. وأن يرغبَ لورانزانشيو[2] «أن يرى على طفلَةٍ في الخامسة عشرة من عمرها التّحولات القادمة»، بالتّالي حصول الفساد الشّعوريّ الّذي يرفق البراءة.

إنّنا نفهم الحيلة تمامًا: تبقى الكثافة أنموذجًا مثاليًّا، لكنّها بـدلًا مـن أن تظـلّ أمامنـا كهدف من مشـمولات المسـتقبل، تنتقل إلى الماضي لتصبح أصلًا ومسكنًا.

لكـنّ الحيلَ الثّلاثَ المتوخّاة لضمانِ عيشٍ مُكثّفٍ، هذه الحيل المتمثّلة في التّنويع والتّسـريع وإسناد الكثافةِ القصوى إلـى المرّةِ الأولى (والتّحسّـر عليْها)، تُهـدّد بأن يعطّلَ بعضُها

(١) الماركيزة دي ميرتوي: الشّخصيّة الرّئيسيّةُ لروايةِ «العلاقات الخطرة» للكاتب الفرنسي بيير دي شودرلو لاكلـو (١٧٤١-١٨٠٣)، وكانت الماركيـزة تستعمل الإغـراءَ كسـلاحٍ لإذلال الآخريـن والحـطّ مـن شأنهم، عبـارة عـن ألعابٍ مسـليّة تهدف إلـى تصوير انحطـاط الطّبقة الأرستقراطيّةِ حينذاك.

(٢) لورانزنشيو أو لورنزو: الشّخصيّة المحوريّةُ في مسرحيّة تحمل عنوانَ بطلها لألفريـد دي موسـيه (١٨١٠-١٨٥٧) عن فكرةٍ لجورج سـاند (١٨٠٤-١٨٧٦)، وهي مسرحيّةٌ تنتمي إلى التيار الرّومنسيّ.

بعضًا على المدى الطّويلِ. فأن ننوّعَ أكثرَ فأكثرَ بشكلٍ محمومٍ هو أن نتخلّى عن تطوير الفكرة نفسها أو الشّعور نفسه. وأن نزيد في حجم الفكرة أو الشّعور هو أن نزداد بعدًا من التّجربة الأولى الّتي نعتبرها الأقوى. وأن نعتبر بألا شيء يفوق صدمة المرّة الأولى هو أن نتخلّى عن إيجاد قوةّ أكبر في علاقة بربط الصّلة وتنويع التّجارب.

لذلك يبدو أنموذج الكثافة ملغومًا بالتّناقضات الدّاخليّة ما بين مختلف طرق تحقّقه. أَلا يمكن أن نكون مكثّفين بهذه الطّريقة بشكل أقلّ ممّا يمكن أن نكونه بطريقة أخرى؟ كلّما ازداد النّاس احتيالا وكلّما ازداد دفاعهم عن كثافات الحياة ضدّ هويّتهم وضدّ السّعي إلى تحييدهم، استسلموا دون أن يشعروا للتّطابق والتّحييد. فأن نحمي كثافات حياة هو أن نعرّيها بمفارقة ما. وأن نضاعف في الكثافات هو أن نعرّضها للتّجزئة. وإنّ الجمع بينها هو نفسه أن نطرح منها بعضها وإنّ مضاعفتها هي التّقليل منها وإن تنويعها هو توحيدها أيضًا.

على الرّغم من أنّ الغموض ما زال يغلب على بحثنا في هذا المستوى، إلاّ أنّ المفارقة في غاية البساطة: ما زال أنموذج الكثافةِ أقلّيًا لذلك لم يُفْصح بعد عن طابعه المتناقض

إلاّ قليـلًا. لكـنّ بمجرّد أن يصبح هذا الأنمـوذج ظرفيًّا وعامًّا وديمقراطيًّا فإنّه سيكشـف شـيئًا فشـيئًا عن خللـه المفهوميّ: فمـا يؤجّـج الشّـعور بالحيـاة يمكـن دائمًـا أن يضعفـه أكثـر. سـيكون من الضّـروريّ إذن الإفراط في هذا الشّـعور المبهج مـن أجـل الحفاظ عليه ومن أجل حمايتـه من تعارض الدّافع الأوّل: لا بدّ من العيش بكثافة متنامية أكثر فأكثر.

إلى حدّ الانهيار

إنّ المعيار ليس شـيئا آخر سـوى أنموذج توارثناه أي أنّنا لـم نختره. لذلـك، فإنّ هذا الأنمـوذج الّذي اختاره الإنسـان المكثّـف المنتمي للحداثة قد تحـوّل إلى قيمة مفروضة على أناس العالـم الحديث. لقد طفتْ الشّخصيّة المركزيّة للّيبيراليّة مـع انهيـار معظم الأنظمـة الشّـيوعيّة ومع عولمـة المبادلات التّجاريّـة وتصغيـر الاتّصـالات السّـلكيّة ودمقرطتها وتطوير اقتصاد الخدمات، فصار إنسانًا تكثيفيًّا إلى جانبِ كونه مكثّفًا. ونعنـي بـ«الإنسـانِ التّكثيفـيّ» كلّ إنسـان بوصفـه موضوعـا خاضعا لضرورة أن يكون مكثّفًا، والّذي ينبغي عليه أن يتعلّم التّلاعـب بكلّ الحيَلِ الممكنة، يـد على التّنويع وأخرى على

التّسريع وأخرى على «حنينه للبداية»، هذا من أجل الاستجابة لواجبه الاجتماعيّ في أن يحبّ ويعمل ويستمتع بكثافة متزايدة.

من المؤكّد أن تمثّل عبارة الكثافة بوصفها معيارًا ضربًا من التّناقض: فهي المفهوم الوحشيّ الّذي يميّز كلّ ما لا يمكن اختزاله إلى الكائن، لذلك تُنتفى الكثافة ما إن تُفرض كاستحقاق، وهو تمامًا ما يدفع كلّ الأفراد الخاضعينَ لهذا المعيار إلى إعادة تكثيفها وشحنها وإعادتها إلى عنفها ضراوتها الأوليْنِ.

ينبغي عليهم أن يجعلوها غير ضروريّة. ينبغي أن يختاروا معيارهم. وإنّها لمهمّة متناقضة.

اجتاحت الكثافة - بعد أن تمّ توحيد معاييرها- للمجال الاجتماعيّ كمبدأ لقياس الأداء الحرّ للأفراد. فانتهى تحديدها الكمّيّ وإحصاؤها واتّخاذها موضوعًا لدراسات إحصائيّة بأن تصبح معاكسة لنفسها تمامًا. فقد تمكّنت من تحقيق عقلنة المجال الاجتماعيّ من خلال تقسيم متناقض لكلّ ما ينفلت من العقلنة، ولكلّ الدّيناميّات dynamiques وللطّاقات المقيّمة والمشفّرة والمقارَنة. وهكذا انقلبت

الموازين، فانتقلنا من الإنسان المكثّف الحداثيّ إلى الإنسان المكثّف المعاصر: وانتقل بذلك التّأكيد على كثافة مضادّة للامتداد والكمّ والعدد إلى تأكيد على كثافة قابلة للامتداد والقياس الكمّي والعدديّ.

لنأخذ مثالًا على ذلك. يمكن بالنّظر إلى مجال الرّياضة أن نتبيّن وجهًا من أوجه الإنسان المكثّف ثم الإنسان التّكثيفيّ وأخيرًا تحدّي المعيار باسم النّموذج وهو ما يمكن قراءته بكلّ وضوح في التّاريخ الحديث. لقد نتجت الرّياضة الحديثة عن تصوّر إنسان جديد يبدو في ظاهره مستعيدًا الأنموذج الأولمبيّ اليونانيّ لكنّه في الحقيقة يريد التّعبير عن كلّ ممكنات جسده وتكثيفها. الأمر بعيد من أن يكون مجرّد إحياء لطقوس غابرة تابعة لحضارة قديمة إنّما هو تمجيد للحماسة الحديثة تجاه كلّ القدرات والوظائف الإنسانيّة الّتي أسعفتها التخصّصات الرّياضيّة -فرديّة كانت أو جماعيّة بقوانين سُنّت في القرن التّاسع عشر. يمكن للعبارة الشّهيرةِ للكاهن هنري ديدون[1] الّتي عاد إليها البارون بيير دي

(١) هنري ديدون (١٨٤٠-١٩٠٠)، رجل دين فرنسيّ وكانَ أيضا منظّم تظاهراتٍ رياضيّةٍ وهو من استنبط شعار الألعاب الأولمبية: *Citius, Altius, Fortius*: *أسرع، أعلى، أقوى*

كوبيرتان[1] فيما بعد ليجعلَ منها شعارًا للأولمبياد أن تلخّص كأروع ما يكون التلخيص التّكثيف المنشود: «أسرع، أعلى، أقوى». وقد وردت باللاّتينيّة ما يضفي عليها طابعًا عتيقًا، وهو شعار يعكس تمامًا الرّغبة في قياس ودفع حدود أدائنا إلى أقصاها في كلّ الاتّجاهات الممكنة من الفضاء وفي اكتشافِ نوع من خزّان الطّاقة في الجسم القادر على توفير سرعة وقوّة وتفجّر عضليّ. وإنّ استخدام صيغة المقارنة في العبارةِ اللاّتينيّة «أقوى» لدليل بيّن على الانتصار الخياليّ المكثّف على الخياليّ الممتدّ. مثّلت الرّياضة الحديثة في البداية أنموذجًا مثاليًّا للجسم وتمثّلًا مثاليًّا للطّاقة الجسديّة الإنسانيّة الصّرفة. ينبغي على الرّياضة إذن أن تخوّل كلّ فرد منّا تنويع كيانِه وتضخيمه. إذ لا يتعلّق الأمر بالفوز بقدر ما يتعلّق بالمشاركة.

يمكننا إلى جانب ذلك الانتباه سريعًا إلى الانزلاق القاسي من الأنموذج إلى المعيار. وسرعان ما تتفوّق المقارنة المنهجيّة بين الأداءات، وخصوصًا قياسها، على حماسة

---

(١) بيير دي كوبيرتان (١٨٦٣-١٩٣٧)، مؤسس الألعاب الأولمبيّة الحديثة ومصمم رموزها.

الطّاقة الجسدية ذاتها. وقد أدّى الاهتمام المتزايد منذ ١٩٣٠ بالأرقام القياسيّة وبتطوير التّقنيات المعتمدة في ضبط التّوقيت إلى إمكانيّة قياس الفروق الصّغيرة المتزايدة بين العدّائين. وقد جعل ضبط التوقيت إلكترونيّا من الممكن التقاط فترات صغيرة لا تدركها العين المجرّدة. من المؤكّد أن تكون مطالبة الرّياضيّ بتكرار الحركات نفسها من أجل تكثيفها لكنّها مطالبة من أجلِ قياسها وتأسيس عِلْم الأداء الرّياضيّ الدّقيق قبل كلّ شيء. كما تمّت عقلنة التّدريب في كلّ التّخصّصات: علم التّغذية، تقنيات استرجاع الطّاقة، الاستخدام المكثّف للمعطيات الإحصائيّة. وهكذا تحوّل الأنموذجُ إلى معيار بشكل تدريجيّ، وانتقلنا من الإنسان الحديث إلى الإنسان التّابع للعالم الليّبراليّ، ومن مقولة الرّياضيّ إلى الفرد ذي الأداء العالي. فبدا تطوّر الأداءات لا نهائيًّا ومحدودًا بفيزيولوجيّة الإنسان في الوقت نفسه: تباطأ تصاعد الأرقام القياسيّة في ألعاب القوى فلم تشهد دفعة ثانية من تحطيم تلك الأرقام في السّباحة إلاّ بعد اعتماد مشبوه لبدلات غطس من نوع «البولي يوريثان polyuréthane[1]»،

---

(١) بولي يوريثان: مادّة متكونة من وحداتٍ عضويّةٍ يربط بينها جذر =

كما أن تعاطي المنشطات وتزايد استهلاك المخدرات والاعتماد المتزايد على التكنولوجيا، صار منذ سنوات موضوع خلاف في رياضة ركوب الدّرّاجات.

وهكذا برزت لحظة ثالثة وأخيرة. فما دام المعيار «التّكاثفيّ» يتعارض مع أنموذج الكثافة فإنّ الإنسان التجأَ إلى حيَلٍ من أجل أن يعيد إلى الكثافة الرّياضيّة قوّتها الأصليّة. كيف ذلك؟ من خلال اللّعب خارج القواعد وتجديد معنى المخاطرة. وهكذا يمكننا أن نفهم سبب ظهور ألعاب غير تقليديّة ورياضات توصف بالـ«متطرفة» مثل القفز من الأعلى، القفز بالحبال، الطّيران الشّراعي، القفز على الجليد، القفز بالمظلاّت وأيضًا الغوص بالقفز من نقطة متناهية العلوّ أو إيقاف التّنفّس. «اهتمّ العديد من المراقبين للرّياضة العصريّة بهذا التّطرف وبتزايد وتيرة التّعرض للمخاطر في الممارسة الرياضية وقد وردت عدّة تفسيرات مندرجة في سجلاّت مختلفةٍ من قبيل: السّعي وراء الإثارة والاستجابة لنداءِ المغامرة «كسرًا لرُوتين» الحياة اليوميّة أو تحقيقًا

= يوريثان PU ويستخدمُ كعازل ضدّ الحرارة أو البرودةِ وغير قابل للتّآكلِ.

للـذّات، إلـخ.» هكـذا كتـب عالمـا الاجتمـاع غيّـوم روتييـه وباسـتيان سُـولي في مقالتهما «التّلاعب بالجاذبيّة». فبعد أن تـمّ اختزال الكثافـات القديمة إلى مجرّد معاييـر، وبعد أن تمّ تحييدها و«برجزتها» لأنّها أصبحت مقيّدة وخاضعة للتّحديد الكمّي فقد صار الإنسان المكثّف مجبرًا على استنباط طريقَةٍ أكثر خطورة في ممارسة رياضة أقوى إثارة من أجل أن يشعر بالحياة فيما يمارس من نشاط.

لذلك، فـإنّ كلّ الانحرافات الظّاهرة للحداثة، ابتداء من تطـوّر المشـاهد الجنسـيّة (البُورنوغرافيـا) إلـى الأداء البدنيّ لرياضـة كمال الأجسـام المعتمدة على المنشّـطات، وصولًا إلـى تعاطـي الكوكايين وإيـذاء متعمّد للنّفس («آذيت نفسـيَ اليومَ لمعرفَةِ ما إذا كنتُ قادرًا بعدُ على الشّـعور»، هكذا غنّى تريـنـت رينـزور[1])، يمكـن لهـا أن تبـدو لا علـى أنّهـا الجزء الملعـون مـن العالـم اللّيبرالـي، بـل علـى أنّهـا تحقيـق دقيق للأنمـوذج الأمثـل والحديـث للكثافـة. إنّها معركـةٌ متواصلةٌ

---

(١) تريـنـت رينـزور: مغـنّ وموسـيقي أمريكي مولـود سـنة ١٩٦٥، ويُعدّ المؤسّس الأوّل لما يُسمّى «الإندستريال روك» الموسيقى الّتي تحتوي على أصوات الرّوبوتات.

ضدّ استحواذ المعايير الاجتماعيّة على الكثافات. لذلك انخرط الإنسان المكثّف في سباق دائم ضدّ كلّ تطبيع اجتماعيّ فلم يجد بدًّا من مضاعفة كثافته. فأصبح التّنويع جنونيّا والتّسارع مبالغا فيه. أمّا عن الشّعورِ بالاختزال وبالابتعاد من كثافة الحياة فقد اتّخذ شكلا مرضيّا: الاكتئاب.

إنّ الشّعور المشترك بالحاجة إلى تكثيف كلّ شيء وعدم القدرة على ذلك إلاّ بتوخّي مبالغة لا نهائيّة يعني الدّخول في نزاع مع الشّعور بالحدود الفكريّة والفيزيولوجيّة الخاصّة والّذي سينتهي حتمًا بإنسان العالم اللّيبراليّ إلى طريق مسدود. لقد أصبحت الكثافة مطالَبَةً بتزايد مبالغ فيه للحفاظ على نفسها. لكنّنا كلّما شعرنا بشيء قويّ في داخلنا، بات من الصّعب علينا الشّعور بشيء آخر أكثر قوّة. لذلك فإن المبالغة في الكثافة تؤدي إلى إضعافها من خلال الاستهلاك، من خلال النّشاط الجنسيّ، من خلال الأداء الرياضيّ وأيضًا من خلال الإدمان. بيّن نيكولاس فلوري في كتابهِ «أنطولوجيا إدمان المخدّرات» كيف يعيد «هذا الموضوع المدمن» كثافة المتعة لديه قبل أن يعجز نهائيًا عن بلوغ المتعَة نفسها بالتّكرارِ نفسِهِ، لذلكَ يقع في فخّ منطقِهِ الخاصِّ. يتوجّب إذن على

كلّ كثافة أن تضاعف في تزايدها حتّى لا تكفّ عن ذلك التّزايد نهائيًّا. هذا ما يمكن أن نسمّيه «الاضطراب الانفعاليّ» (هيستيريا) الشّعور المكثّف، وهو ما نجد له وصفًا منطقيًّا في الصّفحات الأولى من كتاب «جبْر المأساة» للفيلسوف مهدي بالحاج قاسم[1]. عندما تصبح تلك الهيستيريا مستحيلة لأنّ الفرد لم يتمكّن من تجاوز كثافة كلّ الكثافات الّتي شهدها من قبل أو تلك المطلوبة في أدائه لذلك ينهار. انكبّت الفلسفات وعلوم الاجتماع المعاصرة على دراسة عميقة لأعراض هذا الانهيار: تمّ تعريف هذا المرض في البداية باسم «الاحتراق النّفسيّ»، فـ «الإرهاق» ثمّ الانهيار الدّاخليّ... وقد اهتدى جوناثان كراري[2] في هذا الخصوص إلى شكل جديد من الرأسماليّة الّذي يستهدف نوبة النّوم، ويؤسّس لأنموذج حياتيّ دون توقّف، أنموذج نشط في كلّ

(١) المهدي بالحاج قاسم: كاتبٌ وفيلسوف وممثّل فرنسيّ من أصلٍ تونسيّ من مواليد ١٩٧٣، له عدّة مؤلّفاتٍ روائيّة وفلسفيّة منها: السّرطان، حيواتٌ وموت إيرين لوبيك، جماليّة الفوضى، حدثٌ وتكرارٌ...

(٢) جوناثان كراري: كاتب وناقد للفنّ ومؤرّخ له من أصل أمريكي مولود سنة ١٩٥١.

ساعة آناء النهار والّليل إلى حدود الوصول إلى حالةٍ من الأرقِ العالميّ. وها هنا تتجلّى صورة لـ «مجتمع الإرهاق» كما وصفها بيونج تشول هان[1]. وقد اعتقد نقّاد معايير العالم الّليبراليّ بأنّ هذا النّمط من تسيير الأفراد والّذي يطالبهم بأن يسيّروا أنفسهم بأنفسهم يقود المعنيّين إلى شكل أكثر كثافة للحياة، الأمر الّذي لا يمكن حلّه إلاّ بتفتيته داخليًّا: أصبح الأفراد مجبرين على التّكيّف مع عالم غير مستقرّ ومؤقّت ومكثّف، «مكوّنٍ من تدفّقاتٍ ومساراتٍ مدبّبةٍ كأسنانِ المنشارِ»، كما كتب المحلّل النفسيّ آلان إهرنبرغ[2]، فهؤلاء الأفراد غير قادرين على تحمّل كثافة أكثر قوّة دائما كما هو متوقّع وهذا ما انتهى بهم إلى نقطة انهيار. لم نعد نتعامل مع

(١) بيونج تشول هان (مولود سنة ١٩٥٩)، فيلسوفٌ وكاتبٌ ومنظر ألمانيّ يدرّس في جامعةِ الفنون ببرلين له عدّة مؤلّفات فلسفيّة منها: مجتمع الإرهاقِ، الرّغبة: أو جحيمُ التّطابقِ، فوق غيمة: تأمّلاتٌ في الرّقمنة الخ...

(٢) آلان اهرنبرغ: محلّل نفسي واجتماعي فرنسيّ ولد سنة ١٩٥٠، حرّر أَطروحةً في علم الاجتماع حولَ الجنودِ والرّياضيّين وحول تكوين ما يسمّيه «الإنسان القويّ». له عدّة مؤلّفات مثل: الجسم العسكري، عبادة الآداء العالي، إرهاقُ أن تكونَ أنت...

شـروط «حركـة سـتيكانوفايت Stakhanoviste[1]» الخاصّة بالعمـل المنتج بل صرنا أمام شـرط جديـد يحثّنا على تدعيم الكثافـات الّتي تطالب بتضخيمها حتّى تسـتمرّ. كان مصطلح «الإرهـاق» يعنـي في البدايـة الحال الّتي يصبـح فيها المدمن «منهـكًا لفـرط اسـتهلاكه المكثّـف للمخـدّرات القويّة» كما يذكّرنا باسكال شابُوتْ[2]. أمّا النّفسانيّ هربرت فرودنبرغر[3] فقد اسـتخدم هذا المصطلح نفسـه في إشارة إلى حالة التّعب الّتي يعيشها، إلى أن انتهت الكلمة بأن تعني الإرهاق العاطفيّ والشّـعور بعـدم نجاعـةِ العمّـال العاجزين عـن الحفاظ على

---

(١) حركـةٌ سـتيكانوفايت: حركـة عمّاليـة اشـتراكية مسـتندة لألكسـي سـتيكانوف ثمّ بعثها سـنة ١٩٣٥ ودّعمها البلاشفَة، تدعو إلى توظيف العمـلِ الشّـاقّ والكفـاءة العاليـة لتحقيـق الأهـدافِ المنشـودَة في كلّ عملٍ.

(٢) باسـكال شـابوت، فيلسـوف بلجيكيّ من مواليد ١٩٧٣. لـه مؤلّفاتٌ عديدةٌ في الفلسـفة مثل: الرّجل الّذي أرادَ شـراء اللّغة، أن توجد يعني أن تصمد، المراحل السّبع للفلسفة...

(٣) هربـرت فرودنبرغـر (١٩٢٦-١٩٩٩)، نفسـانيّ مختصّ في الإرهاق العملـيّ وقـد خـاضَ بحثـا كامـلا حولَ مـا يُسـمّيه: أعـراض الإرهاق العملـي. لـه مؤلّـف يُعتبر من أكبـر المراجع فـي هذا المجـال عنوانه: الإرهاق العملي: الاحتراق الدّاخليّ.

وتيرة أعمالهم نفسها. واعتبر باسكال شابوت ألا نهاية للأداءات المطلوبة من الأفراد لذلك لا يمكنها أن تمثّل أفقًا ممكنًا لتحقيق ذواتهم.

إنّ المطالبة بالتّكثيف المُتواصل للحياة يؤدّي إلى إحباط لا تخفى آثاره النّفسيّة والاجتماعيّة على أحد. لكنّ هذا الأمر ليس من مشمولات بحثنا هذا: فكلُّ ما نريدُه فهمه هو كيف ولماذا يحدث أنّنا كلّما صرنا أكثر كثافة تفاقم عجزنا على أن نكون مكثّفين. فأعراض الانهيار معلومة إلاّ أنّ منطقها يظلّ شديد الغموض. ولقد اكتفيْنا إلى حدّ الآن بإدراك التّناقض الموجود بين الطّرق المتنوّعة للعيش بكثافة ومختلف الحِيَل المستنبطة للحفاظ على تلك الكثافات. لكنّ التّفسير غير كاف. لأنّ التّفسير بعيد من استيعاب أنّ فردًا مستسلمًا للتنوّع الواحد أو للتّسارع الواحد أو لـ«حنينه للطّفولة» الواحد primavérisme ينتهي إلى الانهيار في نهاية المطاف. فإنسان لا يسعى إلاّ إلى التّقدّم دون أن يشعر بأسف على شيء آخر ينتهي رغم كلّ شيء بأن يشعر بمقاومة في داخله وببوادر اختزال حتميّ في مشاعره. يبدو كلّ شكل من أشكال السّعي الحصريّ للكثافة حمّالًا لمبدأ غامض بصدد برمجة إضعافه

كلّما ازداد قوّة. فما هذا المنطقُ السـرّي؟ ينبغي علينا إذن أن نحـاول بعيـدًا مـن تقديـم أيّ حجّـة أخلاقيّـة ضـدّ «تكاثفيّة» intensivisme المجتمـع اللّيبرالـيّ (لأنّنـا نتحـدث هنـا من وجهة نظر إيطيقيّة لا أخلاقيّة)، اكتشـاف المفهوم المدمّر في كلّ شعور بالكثافة.

٦
مفهوم معارض
تأثير الرّوتين.

ثمّة منطق للكثافة

يوجد منطقٌ للكثافَةِ حتّى وإن كان مفهومها يُستخدمُ كمبدأ معارض لأيّ منطق وأيّ حسابات. وإنّ هذا المنطق ذاته هو ما يفسّر كيف ولماذا ينتهي كلّ جسم حيّ أو جماعة تتّخذ من سعيها وراء الكثافة مبدأ حصريًّا لأفعالها إلى الانقياد في عمليّة منفلتة حيث لا يوجد مخرجٌ آخر عدا تلك المفارقة المدمّرة لإيطيقيا الحداثة: فانتصار المكثّف في كلّ شيء علامة على هزيمة وشيكة، لأنّ إثبات (الكثافة) فكريًّا هو نفسه يؤدّي إلى انتفائها. فكلّما ازداد شعورنا كثافة افتقر بمفارقة إلى الكثافة. نحن محكومون إضافة إلى ذلك بعيش هستيريا ذلك الشّعور قبل أن يتبدّد نهائيًّا. إنّها المأساة نفسها الّتي تدور وقائعها على المسرح الحميم لكلّ فرد يعيش

تحت تهديد الإرهاق والانهيار الدّاخليّ على مسارح الثّقافة الكبرى حيث تشهد العقول الحديثة بكلّ عجزِها على الهبوطِ الحادّ في قيمِ الوعد العظيم للكهرباء في القرن الثّامن عشر.

ليس هذا التّناقضُ ناتجًا عن عقلنا بل عن شعورنا بالحياةِ. ربما تأسّس فلسفيًّا على أثر التجريبيّة الإنجليزيّة: نظام تدهور ناتج عن فقداننا حيويّة انطباعاتنا أي أفكارنا الّتي أخذ ضوؤها يتلاشى جرّاء تحديدها وإعادة تحديدها بواسطة جهازنا الإدراكيّ. إنّه مصير كلّ كائن حسّاس: فمبدأ التّعود ذاته يُنتج لدى كلّ حيّ نوعًا من الاهتراء الشّعوريّ البطيء. هذا لأنّ الحياة تقتضي التّجربة بوصفها ما يسري في كائنات لها شعور ومعارف. أمّا التّجربة فتقتضي التّكرار. وأمّا التّكرار فيؤثّر بالضّرورة على عامل الكثافة لكلّ ما يُدرَك.

وإنّ هذا هو المبدأ الأوّل للحياة الخاضعة للفكر، وهو المبدأ الأوّل للفكر الخاضع لواقع مُعاش. فالكائن الذي يعيش لأنّه ملزم بالإدراك والتّذكّر والتّعرّف، هو كائن يُخضِع الكثافات العنيفة الّتي تخترقه لنوع من الاهتراء الحتميّ، وهذا الاهتراء يهاجم ويقضم شعوره الحيّ: تشهد كلّ تجربة حيّة خاضعة للفكر انخفاضًا تدريجيًّا في كثافتها.

لهـذا السّـببِ لا نُخضِـع وجودَنا أو معاييرنـا الاجتماعيّة لضـرورة أن نكـون «على أكثَـفِ ما يكـون» دون أن نخضعها للمنطق الصّارم القائلِ بتناقص مشـاعرنا كلّما كبرت تجربتنا. لماذا؟ لنعد هنا إلى منبعِ كلّ كثافةٍ معاشة: التّجربة الحسّاسة. فقـد تبيّـن لنـا أنّ علـى كلّ كثافـة أن تخضع لاختبـار ما حتّى تسـتمرّ. وما العيش سوى دعم للكثافات وفق المعنى الدّقيق التّالي: هناك كثافات (كالموجاتِ على سبيلِ المثال) موجودة مـن تلقاء نفسـها في الكـون اللاّعضويّ، لكنّهـا لا تنتقل إلى الكائـن الحـيّ إلا بشـرط أن تكـون مُختبـرَةً ومضمونـة. فأن نـدركَ لونًـا أو صوتًا يعني أن نحوّل الكثافـة المتغيّرة (التموّج مثلًا) إلى خاصيّة محسوسة. وهذه الخاصيّة المحسوسة الّتي لم تتواجد إلاّ لأجل الجسم الحيّ ومن خلاله، هي ما نسمّيها هنـا «الكثافـة المدعومة». فعـوض أن تظلّ الكثافـة الفيزيائيّة -كالتبايـن الّـذي يميـزّ تـردّد موجة مثـلًا- خاصيّة بسـيطة في عالـم موضوعيّ، تصبح في العالم الذّاتيّ للإدراكات خاصيّة محسوسـة ومضاعفـة: مثـل خاصيّـة اللّـون أو الصّـوت. إنّ الكثافـة الموضوعيّة الّتي تميز الموجة قد ترسّـخت ودُعِّمَتْ بفضل تكثيفها الإدراكيّ. فما تمّ إدراكه لا يعود قابلًا للاختزال

إلى دفق كهربائيّ قابل للقياس الكمّي وقد سرى في أعصاب الكائن الحيّ، حتّى وإن كان الإدراك نفسه ينبع من ذلك الدّفق. ثمّة في هذا السّياق شعور بحُمرة اللّون الأحمر وبصمتِ الصّمت وبقساوةِ القسوة. إنّ الكثافة المدعومة هي كثافة الكثافة بمعنى ما: وها هنا يتجلّى شعور أيّ موضوع حيّ. ثمّة كثافات قابلة للتّحديد الكمّي وهي الّتي تمثّل مواضيع من الدّرجة الأولى لإدراكنا وثمّة كثافة تلك الكثافات، وهي كثافَة ثانويّة ترتبط بخاصيّات المواضيع الخاضعة للإدراك: فازرقاق اللّون في السّماء الّذي أنا بصدد إدراكه لا يمثّل فقط تردّد موجة من الضّوء المدرَك وإنّما هو أيضًا الكثافة المضاعفة والمدعومة عبر المدّة الزّمنيّة الّتي يستغرقها إدراكي لها.

إنّ مأساة الإنسانُ المكثّف تنبع من الملاحظة البسيطة التّالية: ما يدعمُ كثافَةً ما -الفكر الممزوج بالإحساس- هو نفسه ما ينتهي إلى إلغائها.

ثمّةِ شيء يبقى على حاله في كلّ ما يتنوّع.

وجدتني وأنا أنصتُ لمقطوعة موسيقيّة، منشدًا فجأة إلى تغيّر غير متوقّع طرأ على مستوى ضبط الصّوت أو نغمته أو

إيقاعـه. قـد يكون هـذا التّغيّـر هو ما أيقـظ أذنـيّ المخدّرتين بتعوّدهـا علـى دورات موسـيقيّة مُكـرّرة. فهمـت حينئـذ أنّ المقطوعـة قـد عُزفـت وأُلّفـت مـن قِبَـل شـخص ينزعج من الأشـكال الموسـيقيّة الصّارمـة ويميـل أكثر إلى الإثـارةِ الّتي يمنحهـا التّغيّر وكسـر النّسـق أو الاختلال: لم أكد اسـتوعب التّغيّـر الأوّل حتّـى طرأ تغيّـر ثان على المقطوعـة. هكذا هي إذن كلّ موسـيقى تعتمـد علـى المقاييـس المركّبـة والّتـي لا تخضـع للتّناظر حال بعـض الألحان الّتي نجدهـا في البلقان والموسيقى المُرتجلة والجاز الحرّ ومؤلّفات فرانك زابا[1] أو « الموسيقى المعدنيّة التّجريبيّة»، فهي موسيقى تقاوم التّكرار، والصـورة الصوتيـة المقيّـدة، لذلك هي لا تكفّ عن السّـعي وراء الكثافـة عبـر تنوّعها، فتعتمد -كما قـد يحدثُ داخلَ أيّ إيطيقيـا للتّنوع - على الحيلة في مباغتة الإدراك واللّعب على المعايير الّتي تنتجها وعلى الاحتفاء بالوتيرة الإبداعيّةِ للحياة بالعمـل ضـدّ عودة الشّـيء ذاتـه، وعلـى ألاّ تظهـر من حيث نتوقّـع وعلـى رفض اسـتعادة نُوتَةٍ أو لحن قد يذكّرك بسـابقه

(١) فرانـك زابـا (١٩٤٠-١٩٩٣)، موسـيقار وملحـن أمريكـي معـروف بغزارة وفرادة ألحانه وحتّى الكلمات الّتي يلحّنها كما شاركَ في وضع موسيقى تصويريّة لعدّة أفلام معروفة.

وعلى السيّر المنهجيّ ضدّ التّيار واتّخاذ الطّريق الجانبية الّتي تنحرف بالخطّ اللّحنيّ، قد تتبنّى مثلًا إيقاعات سكّة الحديد. لماذا؟ كلّ ذلك من أجل أن ينقل فكرة أن المكثّف في الحياة هو الشيء الذي لا يبقى على حاله، والذي ينفلت من إعادة التّحديد المنهجيّة في اتّجاه معانقة الحرّيّة. في كلّ مرّة تتغيّر الموسيقى بشكل غير متوقّع حتّى تتمكّن من مُراوغة كلّ تنبّؤ بها فإنّ شكلها المرتجل يحقّق فعلها الإيطيقيَّ على أتمّ وجهٍ. فهي تحقّق وفق ترتيب التّناغم والإيقاع ما يوازي قرارات إنساننا المكثّف الباحث عن التنوّع باستمرار، وعن إعادة تشكيل نفسه، وعدم تحقيق مصير مسطّر سلفا.

لقد فهمت الآن. قرّرت إعادة الإصغاء إلى المقطوعة نفسها من جديد، لكنّي صرت قادرًا على توقّع أن تفاجئني. راح إيقاعها ونغمتها يتتاليان متنوّعيْن كما لو أنّهما تعبيران حيّان عن عصبيّة إنسان رافض كلّ القواعد، وهذه العصبية لا تَتحقَّقُ إلا بتعطيل البرنامج الّذي كان الإنسان قد شرع في تنفيذه بشكل ميكانيكيّ بعض الشيء. هنا يأخذ الموضوع من جديد منحى مختلفًا وها إنّي أصبح أقلّ اندهاشًا رغمَ ذلكَ: صرت أتوقّع الآن أنّ الذي لن يتغيّر أبدًا هو تمامًا هذا التّغيّر

نفسه، وأنّ الذي سيتكرّر بانتظام مُطمْئنٍ هو كلّ ما يتّصف بعدم الانتظام. سيشبه الأمر أن تكون قبالة إنسان متقلّب، فيدهشك في البداية ويأسرك لتفهم فيما بعد أنّه لن يتوقّف أبدًا عن الانتقال من رأي إلى آخر، وها هنا ألمسُ نوعا من الرّوتين المألوف في عمق الغرابة المباغتة الّتي تميّز تلك الموسيقى. إلاّ أنّ خيارًا أخيرًا يبقى على ذمّة تلك الموسيقى المربكة وبالتّالي على ذمّة الإنسان المتقلّب: الآن وقد تهيّأتُ لسماع الإيقاع والنّغمة ورؤية تحوّلهما باستمرار إلى معطَيَيْن غيرِ منتظمين، سأندهش دون أدنى شكّ من كوني صرت قادرا على توقّع فعلهما. ها هي الموسيقى، تكفُّ عن التّغير بعد أن تحوّلت وانتقلت من كسر إلى كسر لتعتمد في النّهاية شكلًا أو إيقاعًا ثابتًا: ها قد تمّت مراوغة توقّعاتي إذن. أمّا الإنسان الّذي لم يكن هو نفسه في كلّ لقاء جمعني به والّذي انتهيتُ إلى اعتباره متعدّد المناقب، فها قد أصبح ذا سلوك ثابت هو الآخر... لقد باغتني مرّة أخرى إذن. لكنّه لن يفعل ذلكَ مجدّدًا. هذا لأنّ الموسيقى والإنسانَ اللّذيْنِ يتحسّسانِ الكثافةَ في التّنويعِ المستمرّ مطالبانِ بمجابهةِ مأزقٍ ما: فإمّا مواصلة التّغيّر وترسيخ نوع من الثّبات لكل ما هو غير ثابت،

أو الكفّ عن التّغيّر من أجل كسر العادات المكتسبة لكن بدفع الثّمن التّالي: ما عليهما الآن إلاّ أن يصبحا ثابتيْنِ مرّة أخرى.

تتوافر بالطّبع طرق لا نهائيّة للتّغيّر، يمكن للموسيقى استكشاف هذه المجموعة المتنوّعة من الوسائل كما يمكنها أن تسمح للمستمع بالشّعور بكلّ براعة بالتّسلسل والانتظام الممكن للشيء المعهود وحتى الاضطرابات غير المسبوقة. وإنّ ذلك ما ينبغي أن نسمّيَهُ بـ«ذكاء التّغيّر» الّذي نجد له في الرّياضيّات نموذجًا شكليًّا وذلك عبر استيعاب كلّ أشكال السّلاسلِ المتوالية أي كلّ المجموعات المتكوّنة من عناصر مُفهرسَةٍ ضمن تعاقب الأعداد الطّبيعيّة. وهنا يمكن أن ندرك التّنوّع، وثراء أنماط ذلك التّنوّعِ الّذي قد يميّزُ كينونةَ الأشياء في ذاتها.

حتّى وإن تمكّن الفكر المجرّد من النّفاذ إلى مثل ذلك المنطقِ المعقّدِ والمكرر الّذي يميّز التّغيّر، فإنّه يظلّ منطقًا أكثر فظاظة ممّا نتصوّر لأنّه يتعلّق بالشّعور وبالتّالي يصعب التّخلّص منه. وإنّ هذا المنطق العنيد لا يتطلّب قواعد للتّغيّر لكنّه يكتفي بتحديد «إذا ما كانَ التّغيّر قد حدث أو لا». فهو

يكتفي بأن يستخلص من كلّ ظاهرة ذلك الشّعور البسيط الّذي يتيح لنا تفسير الملل. فما إن نجد أنفسنا قبالة تغيّر ما حتّى يلتقط شيءٌ داخلنا ذلك التّغيّر وينتظر مرور تلك اللّحظةِ الوامضة الّتي تمثّل الصّدمة الأولى ثمّ يتعامل مع ذلك التّغيّر كما يعامل أيّ أمر ثابت: إنّها قدرة تكتفي بتحديد ما «لا يتوقّف عن أن يكون مختلفًا»، ثمّ تساعد الشّعور على تثبيت تلك الفكرة المتعلّقة بالتنوّع.

وإن تلك القدرة لا تأبه بأيّ تعقيدات خاصّة بمحتوى أيّ تغيّر، فهي لا تأخذ بعين الاعتبار سوى شكل التّغيّر. إنّها تتوافق مع من يهتمّ بتغيّر التغيّر أو عدمه، وبتنوّع التنوّع أو عدمه، وباختلاف الاختلاف أو عدمه، في كلّ كائن مدرِك. لذلك فهي قُدْرة من شأنها أن تضاعف وتقلب مبادئ الصّيرورة ضدّ نفسها من أجل تحديد الشّعور. سنسمّي هذا المنطق البدائيّ الّذي ينشط داخل الإدراك «منطق الرّوتين».

يتمسّك الرّوتينُ بتلك الآليةِ البسيطة الواقعة في عمقِ إدراك كلّ الكثافات. وإنّها الآليّة نفسها الّتي لا تتوقّف عن العمل ضدّ كثافاتنا. فإذا ما انتهينا إلى الملل من لحن رغم أنّه لا يكفّ عن التّغيّر، إذا ما كان في أنفسنا شيء لا يكفّ

عـن التبرّمِ من موسـيقى ما رغم ما تحتويـه من ذكاءٍ لا يكفُّ عـن ابتكار وإعادة ابتكار أسـاليب قادرة علـى إثارتنا في كلّ مرّة بشـكل مُختلف، فلأجل هذا السّبب نفسه ينتهي جزء منّا دائمًا بالتعوّد على كائنات تستخدم أكثر الطرق براعة لإبهارنا يومـا بعد يوم. لن نكتفي أبدًا من شـيء يقدّمه لنا شـخص لا يكـفّ عـن التّجـدّد. لكـنّ ثمّة جزء مـن إدراكنا سـيكفّ عن الاندهـاش في غضـون وقت قصير، وهو جزء يعتبر الآن كلَّ تجديـد وكلَّ حداثـة نوعًـا مـن التقليـد المتكـرّر، وهـو ذلك الجزء نفسه الّذي يخضع تمامًا لما أسميْناه «منطق الرّوتين». هذا المنطق الّذي لن نسـتطيعَ -رغـم كلّ جهودنا الإيطيقيّةِ- التّغلّـب عليـه أو التّخلـصّ منه نهائيًّا لأنّه هو نفسـه ما يمكّننا من تحديد كثافاتنا.

مـا الرّوتيـن إلاّ الثّمن الّذي ينبغي دفعـه من أجل إمكانيّة الشّـعور بكثافتنا والتّفكير فيها. إنّه النظير الضّروريّ للشّعور. تخلّصوا من تهديد الرّوتين وسـتتخلّصونَ في الوقت ذاته من فرصـة عيـش أيّ شـيء مكثّـفِ ومـن جعلـه يصمد فـي وجه الزّمن.

ثمّة شيء يتزايد في كلّ ما يتناقص

هـا قد وقعنا في فخّ. إذ لا يمكننـا أن نجابه روتين التّنوع بمزيـد من التّنوّع حتّى وإن كان تنوّعًا مُغايرًا هذا لأنّ الرّوتين ليـس من تلك الأشـياء الّتي قد تملك شـكلًا معيّنًا. إنّه يتعلّق فقـط بشـكل الظّاهرة: لا يهـم كيف تتغير الأشـياء مع الوقت (الأمر الّذي يخصّ موضوع ذكاء العادة)، وإنّما يتعلّق بالتّغيّر مـن عدمـه (الأمر الّذي يخصّ شـعور العـادة). ينبغي إذن أن نلتجئ إلى حيلة إنسـاننا المُكثّفِ نفسـها للخروج من روتين التّنـوّع، الحيلـة الّتـي اعتمدهـا عندمـا اكتشـف أنّ التّعديـل الموسـيقيّ للكثافـات أمرٌ غيـرُ كاف فقـرّر حينئـذ أن يزيدها وربّمـا أن يسـرّع مـن وتيرتهـا أيضًا. تجـدر الإشـارة في هذا الصّـدد إلـى أنّ تنويـع الملـذّات والأشـكال والإيقاعـات والتّجارب لا يسـاعد في نهايـة المطافِ على حماية أيّ كثافة مهمـا كانت، فلا يبقى أمامنا سـوى أن نكثّف الإدراك نفسـه، بمعنـى أن نجعـل مـن الفرحة نفسـها ومـن الألـم نفسِـه ومن اللّون نفسـه والنّمط نفسـه والحلقة الإيقاعيّة نفسها أكثر قوّةً. فمـن أجـل بـثّ بعضِ السّـرعة فـي الرّوتيـن ينبغي أن نسـرّع إحساسنا أو أن نعمّقه.

قد يبدو هذا العرض قد أتى أكله في البداية. فعندما أكفّ عن السّعي وراء التّنوّع يتغيّر شكل الرّغبة في الكثافة: إذ لم أعد أخشى التّكرار، بل على العكس من ذلك سأعتبر ذلكَ التّكرار من ضمن رغباتي. لا أبحثُ بالضّرورةِ عن عودة الشّيء ذاته لكنّي أحاول بلورة رؤية أو فكرة وأن أفسح المجال لها لتنمو وتتطوّر وتصبح أكثر حيويّة وأكثر سرعة وأكثر دقّة. ومن ثمّ أنغمس في تلك العمليّة بكلّ حرّية دون أن أفرض أيّ نهاية مسبقة على تلك الزّيادة.

إنّ ما يتزايد في ظاهره لا يخشى الرّوتين، لأنّ هذا الرّوتين يبدو جزءًا لا يتجزّأ من كلّ زيادةٍ في الشّعور أو الفعل أو أيّ نشوة أو أيّ منظومة ذهنيّة أو فيزيولوجيّة وكلّ ما يحتاج تكرار التّمارين نفسها والتّطوّر التّاريخيّ لفكرة تمثّله. إذا ما تخيّلتُ على سبيل المثال شكلًا من أشكال النّضال من أجل إرساءِ الحرّية كأنموذج أو من أجل التّحرّر أو المساواة بين الناس فسيكون من الطّبيعيّ أن أتخيّل أيضًا التّكرار المُتواصل للمطالب نفسها من جيل إلى آخر التّكثيف الشّاقّ في درجةِ الحرّية واستقلاليّة الأفرادِ في خضمّ كلّ المعارك والتّضحيات والانتصارات والخسارات السّياسيّ. هكذا يمكن لأيّ

موسيقى مهما بدت بسيطة وكيفما تواتر التّكرار فيها أن تُثير الكثافة لا بوصفها تنوّعًا فحسب بل بوصفها تزايدًا للشّعورِ الّذي له أن يكتفي بجملة موسيقيّة مقتضبة كما لو أنّ دافعًا واحدًا أوحدَ يكفي لأن يكون مسموعًا أكثر فأكثر وبشكل أفضل. وإنّها لفكرة تميز كلّ تطوّر: يمكن أن تتوافر إمكانيّة للشّيء نفسه كي يثبت ما هو عليه وأن ينمو ويتحقّق بإصرار من يريد صياغة حقيقته.

وحدها الزّيادة في الكثافة نفسها يمكنها أن تخفّض من روتين الكثافة المنظور إليها كتنوّع صرف. لكنّ توهّم ذلك الشّعور بالبهجة الّذي يمنحه التطوّر لن يدوم إلاّ لمدّة قصيرة: سيعود الرّوتين بوجه مختلف قليلًا كي ينشب أنيابه وينهش كلّ شيء بما في ذلك إمكانيّة النموّ اللاّنهائيّ. فقد أكّد نقّاد التطوّر التّاريخي مثل يوهان هردر[1] على ذلك الثّمن الّذي وجب دفعه في هذا الصّدد: فكلّما تطوّرت الفكرة تاريخيًّا، تراجعت أخرى. إنّها صورة السّفينة الّتي عليها أن تتخلّص

(١) يوهان جوتفريد هردر (١٧٤٤-١٨٠٣)، فيلسوف ألماني يعتبر التّاريخ الإنسانيّ مواصلةً منطقيّةً للتاريخ الطبيعيّ. له مؤلّفاتٌ عدّة حول نشأة اللّغة وفلسفة التاريخ والدّين.

ممّا يشدّها إلى الوراء من أجل أن تتقدّم وهو ما يسمّيه هردر بـ«مبدأ التّعويض». من الواضح إذن أنّ الإنسانيّة لا يمكنها أن تكون موضوعا لتاريخ كونيّ دون أن تدفع تعويضًا ما: فمن أجل أن تكسب الإنسانيّة شيئًا للمستقبل عليها التّخلّي عن شيء من الماضي. وإنّ أقصى درجات العقلانيّة بالنّسبة للحداثيّين لا تعني فقط تطوّرًا في المنطق وإنّما فقدان الحيويّة التّلقائيّة أيضًا. فقد مثّلت الحضارة المصريّة وحضارة الشّرق طفولة البشريّة ومثّلت الحضارة اليونانيّة مراهقتها، لذلك فإنّ اليونان قد اكتسب نوعًا من جماليّة الوجود حيث قدّسَ المظهر الجميل إلاّ أنّها خسرت الغموض والأحجية الطّفوليّة العائدة للعصور الخالية. فما يكتسبه سنّ الرّشد على مستوى الوعي يفقده دائمًا على مستوى العفويّة. وكلّ من يزداد إتقانًا لشعور أو لحركة ما يلقي خلف ظهره شيئًا من الشّعور الأصليّ أو الحركة الأصليّة.

سنفهم بالتّأكيد أنّ التّطوّر الحقيقيّ يكمن في تكثيف كلّ مَا هو جيّد أو مرغوب وفي نزع الكثافة عن كلّ ما هو سيّئ وغير مرغوب فيه. لكنّ مثل هذا المفهوم يفترض مرّة أخرى تعويضَ المبدأ الإيطيقيّ القديم بقيمة ما أو بمحتوى أخلاقيّ.

وإنّ حجّـة أخلاقيّـة مماثلة لا يمكن أن تكـون كافية من أجل بناء وصيانـة إيطيقيّتِنا الظّرفيّة الحديثة الّتي ترتكز على القيمة الشّـكليّة الوحيدة لكلّ ما يتكثّـف بمعزل عن كلّ محتوى. لا شـيء إذن يتطوّر مـن وجهة نظر الكثافاتِ دون أن يسـهم في تراجـع شـيء آخـر. وبالتّالـي لا وجـود لتطوّر مطلـق ممكن بالكثافـة. وإنّ هـذا المنطـق هو مـا يمكن أن نصفـه بـ«روتين التّطـوّر». علـى الرّغـم من أنّه مـن الجيّد للعقل الإنسـانيّ أن يتخيّـل تطـوّرًا لا نهائيًّـا للخير من أجل دفعه علـى العمل في هـذا المنحى بلا كلل فإنّ شـيئًا ما فـي داخلنا يظلّ عصيًّا على هـذه المقاربـة: ثمّة شـعور غامـض لا يكفّ عن مـلء داخلنا بنوع من الشّـقاء والتّخاذل في مواجهة التّطوّر المُبرمج، وفي مواجهـة التّطّـور المتسـارع الّـذي يأتـي مصحوبًـا بصـورة للخسران أو الاغتراب المحتوم، لأنّ الزّيادة المتوقّعة في أيّ كثافـة تخفّض من الشّـعورِ بالإثارة ولأنّ كلّ زيادة من شـأنها أنّ تقرّبنـا من حالة تزيد تكثّفًـا للتّجربة، تؤدي إلى إبعادنا من الحادث الأول لتلك التّجربة.

ما الّذي يمنعُ الشّعورَ من التّسارعِ على مرّ الزّمن؟ عندما نفهمُ أنّ شيئًا ما (ولنأخذ مثال المُتعة أو الفكرة)، معدٌّ للتّسارعِ

إلى ما لا نهاية له فإنّا نتخيّلُ مُسبقًا شكلًا لاحقًا لكلّ ما هو بصدد الازديادِ، الأمر الّذي يجعل رؤيتنا لشكله الحاليّ متأثّرة بمقارنة ضمنيّة مع شكله المستقبليّ الّذي بدأ فعليّا في التّضاؤل. فكلّما وعدنا مجتمعًا بنموّ اقتصاديّ أو بتقدّم تكنولوجيّ صار لدى أفراد ذلك المجتمع وقت فراغ لمعاينة ذلك التّقدّم وتخيّل ما سيكون عليه مجتمع أكثر ثراء وتكنولوجيًا أكثر تطوّرًا: في المقابل ستبدو لنا الحالة الرّاهنة للمجتمعِ والتّقنيات مخيّبةً للآمال. فمن ناحيَةٍ يثيرُنا تمثّلُ التّطوّر ويدعونا إلى مزيد من التّحسين والإتقانِ وإلى إثراءِ ما هو موجود بين أيدينا، لكنّنا مطالبونَ من ناحية أخرى بالزّيادةِ في ذلك التّطوّر حتّى نتمكّن من المحافظة عليه، وبما أنّ التّسارع يبدو لنا بلا نهايةٍ فإننا سنتخيّل أنّ مجتمعنا وأدواتنا ستصبح بدورها غدًا في نظر الّذين ينتمون إلى بعد غد أكثر ترهّلًا ونقصًا ممّا يراه أهل اليوم في علاقة بأهل الأمس. يدفعنا ذكاؤنا إلى التّطوّر أكثر كلّ يوم إلاّ أنّ شيئًا بداخلنا لا يكف عن فقدان حماسته الحازمة. ماذا؟ ها إننا نجد أنفسنا مرّة أخرى برؤيتنا الّتي نحملها على معطى التّطورِ خاضعين للمنطق الرّوتين السّخيف الّذي لا نستطيع تفاديه.

لا يرتبـط روتين الزّيادة والتطوّر هذا بالخاصّيّة المسـبقة لـكلّ تقدّم فقط: بل يرتبط خاصّة بتحديد كلّ ما يتراجع بقدر ما يتطوّر. لنوكل كلّ شـيء إلى الإنسـان المكثّف الّذي دائمًا ما يريد تقوية لا نهائية لكلّ ما يدرك ويشتهي ولكلّ ما يخضع لفكـره، لنتخيّـل تطـوّرًا مُطلقًا. وهكذا سـنخفّض الآتي ذكره علـى الأقلّ: الشّـعور بالمـرّة الأولـى، البراءة الّتي سـتتراجع كلّما تعمّقت التّجربة.

ثمّة تناقص تدريجيّ في المرّات الأولى.

قـد يكـون اللّجـوء إلـى البـدء primavérisme آخـر مـا يمكن تخيّله من الاستعراضات.

مـن شـأن الرّوتين أن يقضـي على الإحسـاس بالتّنوّع أو بالتّقدّم لكنّه لا يسـتطيع شيئًا أمام الكثافة القصوى النّابعة من المـرة الأولى والرّاسـخة في الذّاكرة. ولمزيـد من التّوضيح: يمكـن عكس تأثير الرّوتين على نضـارة التّجارب ومراوغتها عبـر فكـرة التّفرّد الّتي تخـصّ كلّ فترة من فتـرات البدء. إنّي وبعـد انتهـاء كلّ شـيء، عندمـا أكـون علـى مشـارف المـوت سـأتهيّأ لعيش تجربة فريدة لـم أعشها من قبل: سأموت للمرّة

الأولى. أنا إنسان مكثّف مرتبط بالمرّات الأولى prima volta في كلّ شيء لذلك أنا قادر على رفض حتميّة الرّوتين من خلال استغلال كلّ لحظة تتوافر لي للمرّة الأولى. لا شيء يمنع من إرجاع كل تجربة خاضعة للتعديل إلى قوّة الإحساس بها كأوّل مرّة. هكذا يفعلُ كلُّ من يحبّ للمرّة الثّانية، إذ هو يعيدُ خوض هذه التّجربة للمرّة الأولى. ينسحب الشّيء نفسه على المألوف نفسه عندما نكتشف أنّه تجربة وجوديّة أولى. يمكننا في السّياقِ ذاته أن نعتبر سنّ النّضج من الحقب الحياتيّة الّتي نتعلّم خلالها للمرّة الأولى كيف لا نجرّب العالم للمرّة الأولى وأن نلتمس فيها رغم ذلك نوعًا من الكثافة. تبدو قوّةُ «المرّة الأولى» أكثر تأثيرًا من الرّوتينِ نفسه بما أنّ الكائن الحيّ قادر على تحسّس التّجدّد هناك حيث لا وجود للتّجدّد. كما يمكن لأيّ شيء أن يكون موضوعًا لتجارب مكثّفَة، ليس فقط اليوميّ والعاديّ كما أسلفنا الذّكر بل الرّوتين أيضًا على شرط أن يكون على صلة وثيقة بوضعيّته البكر ذات الفرادة. رغم ذلك، سرعان ما سيحلّ أثر ذلك الرّوتين لينهش من جديد الخاصّية المُكثّفة للتّجربة المعيشة هذا لأنّي سأشعر باليوميِّ بشكل يوميّ.

فشبحُ «البرجزة» الإيطيقيّة emboürgeoisement éthique لا يكفّ عن تهديد الإنسان الّذي ينعم بكلّ لحظة من حياته. ها إنّه يشعر للمرّة الثّانية أو الثّالثة بأنّه يحقّق هذا الفعل أو ذاك للمرّة الثّانية أو الثّالثة. إنّه يتعوّد ويعتاد، إنّه يتخدّر ليتراجع شعوره بالحياة حتّى وإن حاول إنكار ذلك.

ويظلّ للشّعور بالبراءة إمكان القيام بهجوم مضادٍ أخير. بإمكاني مواجهة الرّوتين بالانخراط في عيش كلّ شيء «كما لو كان لأولّ مرّة». ينبغي عليّ أن أبذل ذلك الجهد، أن أوجّه هدفي بكلّ ثقله نحو العمل على تأدية أنشطتي الأكثر تفاهة بكثافة التّجربة الأولى- عندما أنام وأستيْقظ، ما إن أشرع في المشيِ، في اللّحظةِ الّتي أشعر خلالها بالمطر وهو ينهال عليّ، وفي اللّحظة الّتي يتوقّف فيها عن الهطولِ نهائيًّا- سيكون عليّ إذن أن أفعل ما في وسعي لاستنباط وسيلة ذكيّة ولأن أسعف كلّ جملة أنطق بها وكلّ خطوة أخطوها وكلّ لقاء أحظى به بألق غير مسبوق. سألعب دور طفل كبير ومراهق أبديّ: كائن دائم الدّهشة والفرحة، كائنٍ لا ينضبُ، يحمي كثافة الحياة في داخله، تتأجّج في عمقه عفويّة الطّفولة الأولى بشكل متزايد.

لكـنّ تأثير الرّوتينِ لن يتأخّر في التّدخّل مرّة أخرى حتّى يُخْمِدَ ذلك المشروع العفوِيّ لأنيّ سأتسرّع للمرّة الثّانية على التّوالي وسأجبر نفسي على القيام بهذا الفعل أو ذاك «كما لو كان للمرّةِ الأولى». سـأكون بذلك قد عـدت لمعضلة التنوّع الوجوديّ: إمّا أن أسـتمرّ في إنجاز كلّ شـيء على أسـاس أنّه لأوّل مرّة (لكنّ «القيام بكلّ شيء على أنّه لأوّل مرّة» يتحوّل إلى قاعدة ثابتة في لبّ وجودي، قاعدة تثير فيّ وفي الآخرين ملـلًا ثقيـلًا حتّـى وإن كان علـى مستوى لاوعينـا: يعرفنـي الجميـع، مـا أنـا إلاّ السّـاذج الخـدوم) وإمّـا أن أكـفّ للمـرّة الأولـى عـن الرّغبة فـي العيش كما لـو أنّي أفعـل ذلك لأوّل مـرّة، وأن أكتشـف محاسـنَ العـادة الأليفـة، أن أحـاول ربّما تعميق شـعوري الأوّل والزّيادة فيه (لكنّي بهذا سأقع بعد مدّة تحتَ تأثير روتين التّطوّر).

إنّ تأثيـر الرّوتينِ على الكثافة القصـوى الخاصّة بالبراءة وبـ«الحنين إلى البدء» يعود إلى ذلك الفتور: ظاهريًا لا توجد نهايـة مطلقـة في «المـرّاتِ الأولى» على مـدى الحياة، فرغم الفرادة الّتي تخصّ كلّ تجربة من تلك التّجارب إلاّ أنّنا نصغي فـي كلّ مـرّة إلى نقرات مخيفة في جزئيات السّـاعة الّتي تقيم

داخلنا، تلك السّاعة الّتي تُشير إلى انخفاض مستمرّ في الشّعور. هذا لأنّ التّجارب الحياتيّة الأولى تبتعد عن حساسيّتنا كما يبتعد تكرار ضرب العدد في نفسه عن العدد الطّبيعيّ.

لنعدْ إلى استعارتنا الموسيقيّة. إنّي أتأمّل المقطوعة نفسها للمرّة الثّانية. كانت التّجربة في مرّتها الأولى تجربة متفرّدة. أمّا هذه المرّة، فإنّ التّجربة المعادة تتغذّى من الأولى فتحسّنها دون شكّ وتعمّقها لكنّها تبعدها أيضًا عن صدمة البدء. ثمّة كثافة ما في المرة الثانية لاستماعي إلى المقطوعة وهي كثافة ناتجة عن كوني للمرّة أولى أعيد سماعها. لذلك أحاول الانتباه إلى بعض التّفاصيل الّتي فاتتني لأنّي أتوقّع حدوثها وهكذا تزداد تجربتي ثراء وفي الوقت نفسه تتناقص من ناحية تأثيرها المباشر. إنّي أستمع الآن إلى لمقطوعَة للمرّة الثّالثة. يمكنني أن أثري إعادة سماعي الأولى بسماع إضافيّ قد يتكفّل بتعديلها وإصلاحها. الشّعور هنا أقلّ حيويّة ولكنّه أكثر دقّة. وها هنا تبرز من الاعتياد كثافة جديدة: تلك المتعلّقة بشعوري لأوّل مرّة بأنّي أعرف المقطوعة وبأنّي أتحكّم في انطباعاتي. لكنّي كلّما ازددت خبرة فقد الموضوع

الرّاضخ للتّجربة تميّز تجربتي نفسـها. لذا فإنّي عند استماعي الأوّل للمقطوعـة كمـا في إعادة اسـتماعي لها، لا أطوّر حالة المنصت في داخلي والّذي لن يبدو متميّزًا في شيء إلاّ على مسـتوى علاقتـه النّقديّة بمجمل ما سـمعته من موسـيقى إلى حدّ الآن. كأنّ تجربتي الموسـيقيّة الأولى قد تنامت قوّة اثنيْنِ خلال إعادة سـماعي. إنّي أجرّب للمرّة الأولى الاسـتناد إلى سـماعي الأوّل ثـمّ أجرّب للمـرّة الأولى الاسـتناد إلى إعادة سماعي الأولى وهكذا دواليْكَ.

لا يتعلّق الأمر بشـعور بالاختفـاء المطلق بل بالفتورِ: لن نكفّ أبدًا ما دمنا أحياء عن الاهتزاز للمرّة الأولى بأحاسيس وبانطباعـات وبأفـكار، ولكـن هذه الهواجـس الأولى للحياة تضعـف هـي الأخـرى لأن موضوعاتهـا تتخـذُ شـيئًا فشـيئًا هواجس عشناها سلفًا. إنّ الكائن الحيّ الحامل لذاكرة معيّنة يتعلّـم أكثـر كلّما تقدّم في السّـنّ وشـارف على الشّـيخوخة، فيعرف لأوّل مرّة ما تنْتج معرفة هذا الأمر أو ذاك بشكل تكفّ فيـهِ «المـرّة الأولى» عن أن تكـون فوريّة لتصبح «أسًّـا» وقوّة تحيـل إلـى عـدد تجاربنـا الماضيـة وهكذا تقـعُ الحيـاة ذات الكثافـة المطلقـة فـي تناقض واضـح، فما إن تخضـع لكثافة

قصوى نابعة من المرّة الأولى حتى تكتشف أنها لن تدرك قوّة أكبر من تجربتها الأولى المتفرّدة (رفع التّجربة إلى أُسّ واحد): الّتي هي القّوة الأكثرُ نقاء وتفرّدًا.

كلّما تقدّمت الحياة ازدادت ذاكرة الثّقافة أو الحضارة امتلاء وتحوّلت المرّات الأولى إلى «ما بعد تجارب». لنا في هذا الصّدد أن نستبق القول إنّ الما بعد حداثة الّتي تأصّلت نظريّا في نهاية القرن العشرين إنّما هي تجربة الثقافة الحديثة الّتي أصبحت واعية لأولّ مرّة بحداثتِهَا الخاصّة. تمثّل «الما بعد حداثة» إذن حيلة من حِيَلِ العقل صلب العقل ذاته لمواجهة روتين الحداثة. لا شيء حديث غير قابل للإثبات بدرجة أولى، فالعقلية التي نصفها بـ «الما بعد حداثيّة» أثبتت للمرّة الأولى استحالة عدم إثبات أيّ شيء كان لأوّل مرّة. (مقطوعة موسيقيّة، موضوع رواية، مشهد من فلمٍ أو فكرة سياسيّة)، وبضرورة تحقيق كلّ شيء للمرّة الثّانية. ثمّة دائمًا شيء بريء بكثافة ينتظر أن يكتشف لأوّل مرّة عند نهاية البراءة. وتولد بعد ذلكَ براءة أقلّ كثافة وأقلّ نقاوة: فأن نكتشفَ أنّنا لم نَعُدْ قادرين تمامًا على اكتشاف نهاية مدهشة للبراءة هو من قبيل الرّؤيا الّتي طالما أَلِفْناها.

هكذا تفتر كثافة المرّةِ الأولى دونَ أن تختفي نهائيًّا، تلك الكثافة الخاضعة لتأثير الرّوتين القاسي. إذ يبدو لنا بجلاء ألاّ طريقة ممكنة تبقّت أمامنا لمواجهة ذلك المصير الميكانيكيّ الّذي يهدّد شعورنا.

لا شيء تبقّى للحياة سوى أن نتطلّع إلى نقيضها

يمكننا دائمًا، كما فعل العقل الحديث، الانخراط في صراع لا نهائيّ من أجل دعم الكثافات ضدّ العمل المدمّر الذي تفرزه العادات. لكنّنا صرنا نفهم الآن منطق القسوة الّذي انتهى بانهيار الأفراد الخاضعينَ لمعيار الكثافة: في النّهاية، إذا ما تعلّق الأمر بالمشاعر فإنّ أكثرها قوّة ينتج أضعفها.

يمثّل ذلك الرّوتين التّرسانة العاطفيّة الّتي من شأنها أن تفسّر كللنا وإحباطاتنا وانهياراتنا الإيطيقيّة، وهي أمور لا تحتكم إلى المنطق بأيّ شكلٍ من الأشكال بل إلى عقلانيّة متناقضة بما أنّ ما يتيح إدراك كثافات الحياة هو نفسه ما يعمل ضدّها. يمكننا تصوّر ما لا يُحْصى من طرق لتجديدِ الإدراك. لكنّ لسوء الحظّ سيجرّها الرّوتينَ مجتمعة إلى النّهاية نفسها

الّتي تتلاءم مع إدراكنا الميّال إلى كلّ ما هو عاديّ. هو الرّوتين الّـذي يسـمح باتخـاذ غيـاب القاعدة قاعـدةً شـبيهةً بالقواعد الأخرى: ليس مهمًّا أن نبذل جهدًا في سـبيل تنويع الكثافات وتعميقها أو حماية القوّة الأصليّة. كلّ ما يهمّنا هو أن نلتجئ إلى الكثافة من أجل العثور على سببٍ واحد للعيش، ما يعني تسـليم حياتنـا وفكرنا إلـى الشّـقاء الوجوديّ. هـا هنا يربض وحـش لا يُقْهَـر وهـو نصف مخفـيّ في عمق حساسـيّتنا وقد أيقظته الحداثة رغما عنها.

إنّ تأثيرَ الرّوتينِ بوصفهِ مبدأ يختزل كلّ إحساس يمارس التّذكّـر هـو أكبـرُ مـن أيّ تكثيف مُمْكـن: فالوحـشُ الّذي لا علاقة له بالذّكاء يتغذّى بكلّ ما يظهر أو يعاود الظّهور بشكل يجعـل كلّ مـن تُسَـوِّلُ لـه نفسـه أن يجابـه الرّوتيـن بتكثيـف محموم لوجوده يفهم في نهاية المطاف أنّه لم يفعل شيئًا آخر سـوى تقوية الرّوتيـن وذلك بتسـهيل ولادة روتين آخر أقوى مـن كلّ الكثافـات. ها هنا يكمـن خطأ الإنسـان الذّكيّ الّذي اعتقد أنّه قادر على سحق الرّوتين بالإبداع والتّجديد في حين أنّه سـارع إلى جني ثمـار الإرهاق الّذي طالمـا ادّعى القضاء عليه هو الآخر بتحمّل شقاء الإبداع والتّجديد مرّة أخرى.

إليكـم ما أنجـزَه الإنسـانُ المكثّفُ ومـن بعـدِه التّكثيفيّ -مُجبريْـن - فـي الثّقافـة الحديثـة: روتين كثافـات في معظم مجالات الوجود. وقـد كانت العواقب وخيمة على وضعيّتنا الإيطيقيّة. لأنّنا باستسـلامنا لمبـدأ الكثافة الوحيد بغية توجيه حياتنـا لـم نتـرك خيارًا آخر أمـام رغبتنا في كثافـة جديدة عدا فضـول لغيـاب الكثافة. فإنّ من يستسـلم نهائيًّا لقـوى الحياة الباهـرة سـينتهي محاصرًا بالرّوتين مـن كلّ جانب وغير قادر علـى فعـل شـيء آخر سـوى أن يتمنّى مـا يفوق اختفـاء تلك القـوى. إنّ الكثافـة الّتي ظننّاها مطلقـة وبلا نقيض تخفي في النّهايـة نقيضها. هكذا تفرز الثّقافات البشـريّة دائما تصوّرات تخـصّ خلاصًـا نهائيًّـا من كلّ كثافـة وهي تصـوّرات عادة ما تكون على شـكلِ حكمة أو خلاص بالمعنى الدّينيّ للكلمة. لماذا؟ لأنّ الحياة متقلّبة بشكل كبير إلى درجة أنّها تنتهي بأن تتعـب في داخلنا وعلى مدى عمر طويل من مطالبها الخاصّة وبأن تصبح مجرّد متحسّسـة لشـكل من أشـكال إنكار الحياة ذاتهـا. إنّ أيّ حياة مهما كانت قليلة الوعي، ومعتمدة على ما هـوِ حـيّ وعلـى كثافتهـا الأساسـيّة، ترغـب عاجـلًا أم آجلًا بنقيض ما يؤكّدها: لا يتعلّق الأمر بالموتِ لكن بوجود متحرّر من كثافاته المتغيّرة أو من أفق لتطوّر بلا نهاية.

لذلـك، وبعيـدًا ممّـا اصطلحنا علـى تسـميته بـ«الحداثة الكهربائيّـة» الّتـي هي اليوم في آخر أنفاسـها، والّتي أصبحت غيـر قادرة على أن تسـعفنا بـ «كيف ولمـاذا» علينا أن نواصل العيـش، بعيـدا من كلّ ذلك نشـهد اليوم عودة وعود فلسـفيّة ودينيّة، تلك الوعود الّتي طمستها فكرة الكثافة لبعض الوقت. هـا قد عـادت الحكمة والخلاص الدينيّ في غمرةِ روتين كلّ الإثـارة الّـذي وعـد بـه العصـر الحديث ليحـاولاً مـن جديدٍ امتلاكَ ضميرنا المُنهك.

٧

فكرة معارضة
بين فكّيْ الإيطيقيا

الحياةُ تجعلكَ مكثّفًا، الفكرُ يجعلكَ مساويًا لذاتكَ.

لقد مثّل استعراض وضعيّة غير مكثّفَة للحياة المنقذ الوحيد لكلّ وعي وقع فريسة لاستنفاد تصوّراته وتجاربه ومُثلِهِ. فعندما يشعر فرد أو مجموعة من الأفراد بأنّ وهن الكثافة المحتوم قد نسف كلّ ما آمنوا به وكلّ ما عرفوه وكل ما اختبروه، عندما يتأكّدون أنّ ما اعتبروه جميلًا وحقيقيًا أو جيّدًا لم يكفّ عن أن يكون حقيقيًّا وجميلًا أو جيّدًا لكنّه أصبح بكلّ بساطة أقلّ إثارة، لذلك لم يبق ولو ملجأ واحد للعقل. وما هذا الملجأ النّهائيّ إلاّ تصوّر فكريّ لوضعيّة حياة متساوية مع نفسها، لا أكثر ولا أقلّ، حياة بلا زيادة أو نقصان.

لنعتبر مؤقّتًا أنّ ما نسمّيه «فكرًا» هو ذلك الجزء المنتمي لبعض الكائنات الحيّة والّذي لا يُقاس استنادًا إلى كثافات بل

هو ما يقوم على مبدأ خاصّية الطابع المتساوي بين كلّ الأشياء. فالفكر هو ما لا يحسّ في عمق الكائن الحسّاس، وهو ما لا يعاني في عمق الكائن الّذي يعيش معاناته وهو الذي ينظّم نفسه على البحث عما لا يتنوّع، عمّا يبقى كما هو في داخل الكائن الذي تخترقه كثافات متنوّعة. لا ينبغي بهذا المعنى أن نعتبر الفكر أفضل ما يمكن أن يكون في عمق الكائن الحيِّ لأيّ سبب من الأسباب، فلا هو الأسمى ولا هو الأنبل. كما لا يمكن لتعريف الفكر على أنّه بحث عن المُتطابق بدل المكثّف أن يكون حكمًا قيميّا. ولا يتعلّق الأمر بأن نجعل هذا الفكر حكرًا على الجنس البشريّ، بل على العكسِ من ذلكَ تمامًا: ثمّة نوع من الفِكر عند كلّ ما هو قادر على الإدراك. وإنّ هذا النّوع من الفكر هو الّذي يحرّك الجزء الخاصّ بالإدراك الحيوانيّ الّذي يحدّد ويصنّف ويتعرّف ويجزّئ كينونات ويحدّد الكمّية والعدد ويستهدف الكثافات بينما يتكيّف مع الهويّاتِ. فأن نفكّر في شيء ما يعني قبل كلّ شيء أن نكون غير عارفين إذا ما كان ذلكَ الشّيءُ أكثر أو أقلّ ممّا هو عليه: وبهذا المعنى يصبح كلّ شيء خاضع للتّفكير متطابقًا بالمعنى الدّقيق للكلمة بحيث لا شيء يخرج من

خضوعه لهذا الفكر ناقصًا أو مُختزلًا أو مُدمّرًا. فما أتصوّره ممكنًا ليس في فكري أقلّ ممّا هو عليه في الواقع: ففي خارج الفكر وحده تتجلّى طبيعة أقلّ أو أكثر واقعيّة لأيّ كينونة، هذا لأنّ كلّ شيء موجود داخل مملكة الفكر يعيش نوعًا من التّوازن.

لنأخذ مثالًا على ذلك: أتخيّل في ذهني شجرة ذات فواكه ذهبيّة. هذا الشّيء الّذي تخيّلته ليس واقعيًّا لذلك لا أستطيع في الوضع الرّاهن للحياة النّباتيّة أن أجعل عينيّ تعيشان تجربة مشاهدته، إلاّ إذا غلّفت فواكه شجرة تفّاح نابتة في أحد البساتين بقشرة ذهبيّة رقيقة. هل سأتمكّن حينها أن أعتمد وسائل الفكر وحدها لأثبت غياب مقابلٍ واقعيّ للشّجرة ذات الفواكه الذهبيّة؟ منذُ أن أعلن كانط أنّ الوجود ليس مُعطى واقعيًّا اتّفقنا جميعًا على أنّ الفكر لا يمكنه أن يستمدّ من موارده الخاصة وسائل للتّمييز بين ما هو حقيقيّ وما هو غير ذلك، يبقى الأمر في حاجة إلى التّجربة والإدراك الحسّيّ بواسطة بصرنا وسمعنا وأعصابنا. فعلى مستوى فكريّ ليست كلّ كينونة موجودة بالفعلِ وأخرى موجودة في الخيال مختلفتين عن بعضهما بعضًا، فالفكر يساوي إذن بين الوضع الأنطولوجيّ لكلّ موضوعٍ راضخ له.

هل يوجدُ صنف من الأشياء الّذي يمكن للفكر أن يعتبره موجودًا بشكل أقلّ من أصناف أخرى؟ إنّها بالتّأكيد حالة الأشياء المُتناقضة الّتي نعثر على أثر لها في العديد من الفلسفاتِ. وبما أنّها أشياء بلا وجود فعليّ لتعلّقها بوحدة مستحيلة بين مفهوميْنِ متناقضيْنِ، فالدّائرة المربّع أو الشّجرة الّتي ليست شجرة هي من تلك الأشياء الّتي تبدو موجودة بشكل أقلّ من أيّ دائرة أخرى ومن أيّ شجرة أخرى بما أنّها أشياء ذهنيّة تمامًا. وعلى الرّغم من أنها أشياء محدّدة كأدنى ما يكون التّحديد -لكنّها تبقى محدّدة في نهاية المطاف- فإنّ هذا الشّيء المتناقض ليس أيّ شيء متناقض آخر. حتّى وإن تمكنّا من استنتاج أيّ شيء من أيّ تناقض وفق المبدأ القديم للمنطق (مثل: يمكننا أن نستنتج كلّ ما نريده من أيّ تناقض)[1]، فإنّ "تناقضًا ما" ليس أبدًا أيّ تناقضٍ آخر، والدّائرة المربّعة مختلفةٌ تمام الاختلافِ عن الدّائرة المثلّثة: هما مختلفتان بشكل طفيف لكنّهما مختلفتان رغم ذلك. كما أنّ

(١) وردت هذه العبارة باللّغة اللّاتينيّة *falso quodlibet* ou encore *ex contradictione sequitur quodlibét* وهو مبدأ من مبادئ «المنطقِ القديم» الّذي تحوّل في نهاية القرن التّاسع عشر إلى منطقٍ قائم على مبادئ رياضيّة، عكس المنطقِ القديم الّذي كانَ يقومُ على الحدس.

الشّيء المتناقض هو بالنّسبة إلى الفكر ليس أكثر ولا أقلّ من الشّجرةِ الّتي أراها أمامي. أن تكون «شيئًا ما» بالنّسبة إلى الفكر، يعني تمامًا أنّ ذلك الشّيء ليس أكثر أو أقلّ ممّا هو عليه: فـ«شيءٌ ما» هو ذلك الّذي لا يخضع للكثافات الأنطولوجيّة المتنوعة- وكلّ ما هو «شيء ما» هو يساوي تمامًا «شيئًا ما».

تحظى موضوعات الفكر بمرتبة أنطولوجيّة متطابقة: لا يوجد شيء من كلّ ما يمكن تصوّره أقوى أو أضعف ممّا هو عليه، بشكل يمكّن الفكر من التّعريف بالعمليّة الّتي من خلالها يستطيع الجسم الحيّ التّمييز بين كل الأشياء، الجيّدة منها أو السيّئة، الجميلة أو القبيحة، الموجودة أو غير الموجودة. ربّما لهذا السّبب تكون القيم الموجّهة للفكر المحض في العديد من الثّقافاتِ هي: المطلق والخلود والكمال والبساطة. يميل الفكر إلى عزل وتوحيد موضوعاته بصرف النّظر عن كلّ إدراك وإلى اقتلاعها من عامل الزّمن، فيضعنا بذلك أمام عالم تكون فيه قيم الحياة الحسيّة مثل التّنوّع والتّطوّر وبشكل أعمّ الكثافة قيما مقلوبة.

إنّ الكثافَةَ تتجاهل إذن الفكر المنصرف إلى ذاته. لأنّ الأشياء تُحَدّدُ هويّتها عندما تخضع للفكر.

لنا أن نفهم الآن لماذا يكون جانب الفكر الّذي يتدخّل في كلّ المدركات من أجل دعم كثافة حقيقيّة هو الجانب نفسه الّذي يجمّدها. فما أسميناه بـ «تأثير الرّوتين» ينشأ في الواقع من خلط مبهم بين الفكر والحياة والمساواة والتّكثيف وهو ما يؤثّر على أيّ إدراك حيوانيّ.

لنعترف أنّ الصّورة المثيرة للكهرباء هي الّتي جعلت الوعي الحديث يوجّه تفكيره إلى الأنموذج الحياتيّ ويخضع مبدأَ الحياة المحسوسة نفسه إلى الفكر: أي طبعه المكثّف. فالإنسان المكثّف الّذي أصبح تكثيفيًّا بشكل تدريجيّ يأمل في تغليب حياته على فكره وفي إدخال الصدمة والإبهار والتنوعات وتحويرات الإحساس المكهرب في الفكر. وإنّ مجالات معارفنا القائمة على فكرتيْ التّطوّر والصّيرورة بدلًا من قيامها على الثّبات وكلّ ما هو جوهريّ قد خضعت لقيم حيويّة كما لو أنّه كان من الضّروريّ أن نفكّر في الطّريقة الّتي نعيش وفقها: بشكل مكثّف.

فِي حينِ أنّنا عندما ندخل قيم الحياة على الفكر ننسى ما يمكن أن يفعله الفكر بالحياة في المقابل: ننسى بأنّها تلغيها. ولماذا تُلغيها؟ لأنّ الفكر لا يحسن تصرّفًا آخر عدا التّعامل

مـع موضوعاتـه على أنّهـا هويّات. وهـذا تمامًا ما اسـتنتجناه على مدى بحثنا: يعمل تحديد هويّة الأشياء ضدّ كثافتها.

إنّ النّظـر إلـى قيـم الحياة علـى أنّهـا مطلقة بالنّسـبة إلى الكائنـات التي تفكّر، يؤدّي بشـكل يائـس إلى عدم تكثيف ما نريـد تكثيفه إلى درجة الاتّقاد المثاليّ. لكنّ الإرهاق الفرديّ والجماعـيّ وما نتج عنـه من تقهقر في مجمل الثّقافة الحديثة يحكم على الحياة الّتي تسكننا بالميل إلى فكر تتناقص كثافته أكثر. وإنّ الفكر الإنسانيّ إذا ما كان منغلقًا على نفسه عادة ما يستدعي تصوّرات تقليديّة تعزيزًا لهذا الاستغناء التّامّ عن كلّ مـا هو كثافة. فيصوّر عالـمًا مُتوافقًا مع قيمه التقليديّة المتمثّلة فـي: الهويّـة والبسـاطة والكمـال والخلـود. كمـا تتوالـد من خيـالات الفكر صـورة عجائبيّة تخصّ حـالات ذاتيّة متحرّرة مـن كلّ كثافـة وصـورة أخـرى لبقايا جسـد تمكّن أخيـرًا من التّحرّر والتّطهّر من كلّ تنوّعاته العُضويّةِ - بقايا نسـمّيها عادة الـرّوح. هـي عمليّة تطهّر من كلّ العواطف الّتي تدعمها حالة مـن الشّـغف تتفرّع إلـى عمليتيْنِ أساسـيتيْنِ للفكر البشـريّ: تحسّس الحكمة والبحث عن الخلاص.

عندمـا تنفـد كلّ كثافـات الحياة في عمومهـا تصبح تلك

الحياة الخاصّة فينا راغبة في كلّ ما ينتجه فكرنا وفي أن نبدو أقـلّ كثافة قدر الإمكان. ما الّـذي تتصوّره حينئذ؟ إنّها صورة متخيّلـة عـن كياننـا التـي سـتظلّ دائمًا وأبـدًا أفضل مـا يكون بشـكل مطلـق وبسـيط وأبـديّ. وإنّهـا صورة عن جسـد كفّ أخيـرًا عن خضوعه لما هـو أكثر أو أقلّ في كلّ مدركاته وكلّ التّدفّقات الّتي تخترقه والّتي تشكّل وجوده العضويّ.

يتيح لنا الفكر أن نتجلّى بصورة متحرّرة، إمّا على شاكلة تحوّل روحيّ أو انعدام: إمّا بخلاص دينيّ أو بالحكمة.

بفضل الحكمة

لـم يرد الإنسان الّذي نشأ في أجواء من الانبهار الحديث بالكهرباء أن يكون حكيمًا. إذ بدت الحكمة القديمة بالنّسبةِ إلى الإباحيّ ومن بعده الرومانسيّ فالمراهق المكهربُ نوعًا مـن التّنـازل. لطالمـا ضحـك الإنسـان المكثّـف ومـن بعده التّكثيفيّ من تلك المقدرة ومن ذلك التّدجين الّذي مارسـته الرّوح على الجسـد. فقد مثّلت في نظر أولئك النّاس الجدد هروبًـا جبانًـا بعد تسـطيح نتـوءات الحياة الأكثـر بهجة. فأن تكـون حكيمًـا يعني بكلّ تأكيـد أن تكون متسـاويًا ويعني أن

تتفادى القمم العالية والمنخفضات العميقة الّتي تميّز طباعك وعواطفك. إنّه استلاب منهجيّ للذّات من كلّ كثافة.

أمّا الأمثلة على ذلك فعديدة. تمثّل دورة الحياة في البوذيّة مثلًا عمليّات متنوّعة بشكل لا نهائيّ، لذلكَ يُرْمَز إليها بشلال منصبّ من كثافة العالمِ، بنهر كبيرٍ، بتدفّق دائم وبتناسخ كونيّ يوحي بانتقال الأرواح من جسد إلى آخر. تلك الأرواح الرّاضخة لجبروت المعاناة الأبديّة والّتي تجد نفسها حبيسة طبيعة الحساسيّة ذاتها الكامنة في اللاستقرار. ما هي «السّامسارا» samsāra(١) إن لم تكن صورة عظيمة ومذهلة عن تدفّق جميع الكائنات؟ لقد أشرنا في مستوى سابق من بحثنا إلى كيفيّة تعويض التيّار الكهربائيّ في المخيّلة الحديثة بمجرى النّهر بوصفه رمزًا للصّيرورة الدّؤوبة وللتّغيّر الدّائم. عندما نتأمّل «السّامسارا» نلاحظ أنّ الفكر يصوّر كلّ الكثافات على أنّها واحدة: الكثافة الكونيّة. بينما يكمن هدف

(١) سامسارا: مصطلح سنسكريتيّ يعني الحركة المستمرّة أو التّدفّق المستمرّ وتلخّص وفق البوذيّة دورة الحياةِ منذ الولادة إلى الموت والانحلال.

«غوتاما بودا»[1] الّذي سعى إلى تحقيقه بعد أن صدمته رؤية «السّامسارا»، في تحرير الرّوح الواقعة تحت رحمة تلك الدّورة الكونيّة المتذبذبة والّتي تَعِدُه بالمعاناة الأبديّة: لذلك على الممارسة الطّقوسيّة والتّأمّل والصّلاة أن تمكّن من القضاء على تلك الكثافة بشكل تصبح فيه حكمة البوذا مرتبطة بوعد التّخلّص التّدريجيّ عبر الانضباط الصّارمِ الّذي تتوخّاه الذّات من الكثافات الّتي تأسر كلّ كائن منذ ولادته.

لكنّ ذلك التّخلّص من الكثافة ليس حكرًا على البوذيّة لوحدها. بما أنّ العواطف تنتقل من الجسد إلى العقل فإنّ مهمّة الحكيم تكمن عمومًا في فرضِ تطابقٍ مزاجيّ ينتقل تدريجيًّا بفضل الرّوح إلى الأعصاب والعضلات والقلب والمعدة. إنّ عمل الرّواقيّين الصّارم والمتعلّق بما كانوا يسمّونه «اضطراب الطّمأنينة»[2]، وهو حالة روحية تكفّ عن

---

(١) غوتاما بودا: مؤسّس ديانة أو فلسفةِ البوذيّة الّتي تقوم على التّزهد والتخلّص من كلّ الشهواتِ وتؤمن بالتّناسخ والسببيّة كمبدأين أساسيّين.

(٢) اضطراب الطّمأنينة وتُسمّى أيضا «الأتاراكسيا» الّتي تعني التّحرّر من كلّ اضطراب وقلق وتكلّف. تمّ استعارة هذا المصطلح من علم النفس الحديثِ فأصبحت تعبّر عن كلّ الأحاسيس المتعلّقة =

كلّ شكل من أشكال العواطف، هي جزء كبير من هذا الجهد المبذول من أجل تخفيض التقلّبات المفرطة الّتي تخلّفها الحياة في نفوسنا. بينما تزيح الكثافات الحياتيّة الجزء المتطابق من أرواحنا لتزجّ بنا في جزئها المتنوّع والزّائل. يكمن الهدف إذن في جعل الأولى مستقلّة عن الثّانية.

لقد أنتجت معظمُ المجتمعاتِ الإنسانيّةِ وعودًا مماثلة بالحكمة: وهي عبارة عن قواعد تعتمد الإضعاف البطيء والدّقيق للقيم المكثّفة في الحياة وذلك من خلال العمل على التّشتّت الرّوحيّ.

إليكم بعض ممثّلي الحكمة القديمةِ: انسحاب الحواسّ (البراتياهارا) le pratyāhāra[1] وتحديد «الأتمان l'ātman[2]» مع «البراهمان brahman[3]» (للذّات أو للكلّ) في الطّقوس

= باقتراف شيءٍ. إذ يعني الشخص الاتاراكسيا في هذا السياقِ ذاك الذي لا يخشى أيّ عواقب مهما اقترف من أخطاءٍ.

(١) البراتياهار Pratyāhāra باللّغة السّنسكريتيّةِ وهي مرحلةٌ من اليوغا وتعني الانسحاب والتّجرّد أو الذّوبان. تسعى الحواسّ إلى التّجرّد وتتلاشى الأشياء من أمام مدركِها.

(٢) الأتمان Ātman وتعني في اللّغة السنسكريتيّةِ النّفسَ أو الّذات الداخليّة في الفلسفة الهندوسيّة.

(٣) البراهمان brahman كلمة تعني في الهندوسيّة الرّوحَ =

الرّوحيّـة الهنديّة القديمة، والمثل الأعلى للمسـاحة الملسـاء الذي يعكس العالم دون تعكيره، وكلّ التّسطيح الخالص في بعض مدارس الزّن Zen[١]. يمكننا أن نذكر أيضًا في السّـياق نفسـه طُرقًـا مثل فـرض التّركيز والاسـتبطان والتّجسـيد الّتي تهـدف كلّهـا إلى إخمـاد الاضطرابات الدّاخليّـة والخارجيّة، الّتـي نجـد مثيـلا لهـا فـي الدّيانَـةِ الفيديّـة védisme[٢] وفـي التّأملات الصّوفية وفي الجاينيّةِ jainisme[٣] والرّواقيّة. يبدو أنّ الحِكَـم قد نشـأت بدايَة بدافـع التّخفيض من تنوّع كثافات كلّ مـن يمـارس الحيـاة. فهـي تهـدف إلـى تسـوية المُنحنى المتذبـذب الّـذي لا يكفّ عن هزّ روح كلّ من يدرك ويرغب وكلّ مـن يتذكّـر ويتألـم وينتشـي. وإنّ الفلسـفةَ الغربيّـةَ قـد

= العالميّـة وهـي أصـل العالمِ الظّاهـريّ، وتعني الكلمـة أيضا الإله المطلـق والجوهـر النّهائيّ لـكلّ الظّواهرِ.

(١) الزن: مذهبٌ من البوذيّة اليابانيّة ويعرف بممارسـة التّأمّل في وضعية الجلوسِ ويمتاز ممارسوها بالحكمة.

(٢) الدّيانَةِ الفيديّة védisme: أفكارٌ وممارساتٌ انتشرت في الهند القديمة منذ سنة ١٥٠٠ ق. م وهي ما شكلّت الدّيانة الهندوسيّة المعاصرة.

(٣) الجاينيّة jainisme: ديانة هنديّة قديمة، مشتقّة من الكلمة السنسكريتيّة "جيينـا" الّتـي تعنـي المنتصـر ويخـصّ هـذا الانتصـار تجاوزَ الحيـاة والانبعاث من خلال حياةٍ أخلاقيّةٍ وروحيّة عاليّتيْنِ.

احتفظـت في جانبهـا الإيطيقيّ بذلكَ الدّافعِ الّـذي يتمثّلُ في جعـل الـذّات الإنسـانيّةِ متوازنَـةً ومتطابقَـةً ما يعني بـلا كثافةٍ تُذكـرُ. يكمـن الهدف إذن في «تسـوية عواطفـه» كما ورد في «المنهـج الدّيكارتي»، وفـي جعله متطابقًا مع العالم، ما يعني أن يتخلّـى شـيئًا فشـيئًا عن توتّره الّـذي يزعجُ العالـم برغباتِهِ واحتياجاته.

إنّ الحكمة إذن وكما يمكننا أن نفهمها هي عمليّة مشتركة تجمع معظم العقول البشـريّة الّتي تؤثّر مباشـرة على كثافات الحيـاة. فهي تنحـو منحى تجاوزها ثمّ تعمـل على تخفيضها إلـى الدّرجة الصّفر. كمـا تعدُ في المقابل بعـد تحقيق هدفها بـأن تتيح للوعيِ العيش في سـلام حيث يتوقّـف التنوّع نهائيّا وحيث لا مجال لتعكير الرّوح.

نفهـم الآن أنّ الأنمـوذج الكهربائـيّ قـد جعـل الحداثـة لحظـة تاريخيّـة مبتكـرة وأصيلـة: إذ كانـت الحداثـة محاولة لوضـع الإنسـان أمام هـدف إيطيقـيٍّ مغاير للحكمـة - أحيانًا يمكـن اعتبـار هـذا الهـدف مناقضا للحكمـة تمـام التّناقض. فالحياة الحديثة، هذه الحياة المضادّة للحكمة تأمل في زيادة لا نهائيّـة فـي كثافـة كلّ الأشـياء بينمـا الحكمة تقـدّم تصوّرًا

تقليديًّا حول هدف حياة يتحقّق من خلال طمس تلك الكثافات.

بفضل الخلاص

إذا ما بدت الحكمة بالنّسبة إلى الفكر الحديث المنصرف إلى الكثافات بمثابة نهاية تنذر بإلغائه النّهائيّ فإنّ الخلاص يقترح التّجاوز عبر تحويل وجهة كثافات متنوّعة لأيّ حياة بفضلِ التّوق إلى حالة وجوديّة عليا ومطلقة حيث تكفّ الكثافات عن التّنوع إلى الأبد. فكثافات الحياة بالنّسبة إلى كلّ من فاز بخلاصه وكلّ من دخل ملكوت الله ونال النّعيم الأبديّ لم يتمّ تخفيضها في حقيقة الأمر بل تضخيمها إلى أقصى حدّ. ستتحوّل الكثافات بمعنى من المعاني إلى حالة عليا حيث يصبح الكلّ مكثّفين لا شيء أكثر ولا شيء أقلّ.

يتركّز الوعد الدّيني بالخلاص على تصوّر ممكن لحفظ النّفس بعد تطهيرها من دنس كثافات متقلّبة المزاج، بين حزن وفرَح وحبّ وكره، ومن خلال تحوّل الهويّة المكثّفَة للنّفس إلى أخرى بسيطة وكاملة ومطلقة. أنا من عانق خلاصه لذلك أتماهى مع ناحيتي النّقيّة والدّائمة الّتي هي: روحي. في

الوقت الّذي تتمسّك فيه الحكمة بكثافة ذاتيّة مختزلة إلى الصّفر يرسم الخلاص احتمالًا لكثافة ذاتيّة قويّة لا يقدر أحد على أن يعلوها: ستُنْقَذُ النّفس نهائيّا وإلى الأبد، ستنعم بحياتها الحقّ في الجنّة أو في ملكوتِ إله ما. فأن أتمتّع بالخلاصِ فذلك ضمن كثافة الذّات، وذلك يعني أنّ الهويّة المتغيّرة والشّريدة لكينونتي، تلك الّتي لا تكفّ عن التّغيّر ما دمت حيًّا سترتفع إلى أن تبلغ نقطة مُطلقَةً. إنّه تغيّر كيفيّ به تكفّ أعظم كثافة بين كلّ الكثافات الأخرى عن أن تكون كثافة، وها هنا يكمن الخلاص الموعود بالإيمان. ماذا يعني أن يتمّ إنقاذي إلى الأبد؟ هذا يعني أن أكونَ ما أنا عليه نهائيًّا: سأكون نفسي إلى الأبد، سأكون نفسي تمامًا وبشكل نقيّ وبسيط بالقربِ من المخلّص الّذي هو في عيني المؤمن، الربّ وخالق العالم.

ها هنا يتلخّص الوعد الإسلاميّ والوعد المسيحيّ. وهما عمومًا الرّجاء البشريّ نفسه ما قبل الكهرباء وما قبل الحداثة الّذي تمّ تقديمه لأناس حيارى: توجدُ نهاية لكثافات الحياة وهذا ما يثير قلق الكائن.

لا بدّ أن نميّز بطبيعة الحال بين خلاصيْنِ مختلطيْنِ في

اللّغة الفرنسيّةِ[1] لكنّ الألمانيّة تميزُ بين: الغفران Erlösung والتّحيّة Heil أي بين فعل سلبيّ للإنقاذ وآخر إجابيّ للاكتمال. يتكوّن كلّ خلاص من وعد بالنّجاة من [مأزق] الكثافات ومن «أكثر أو أقلّ» المتجسّدتيْنِ في تذبذب الكائن بين الأحزان والأفراح كما يتكوّن من عوالم متلاحقة عبر أجسام مختلفة واحتمال وجود مطلق وكثافة قصوى للحياةِ الّتي تعدّ في الوقت نفسه الأخيرة والوحيدة. إنّ الإيمان بالخلاص هو الإيمان بكثافة قصْوى ونهائيّة. وإنّنا ندرك ذلك عبر الفكر وحده، فنفترض إمكانيّة لتجريب قوّة حياتيّة قصوى إلى درجة أنّها تفيض إلى خارج الحياة، وتشير إلى العبور إلى عالم آخر حيث لا حالة تطابق الحياة العضويّة، فهي حالة تظلّ عصيّة على فكر الإنسان فلا يمكن تصوّرها إلاّ بشكل منقوص لذلك على هذا الإنسان أن يكافح في سبيل التوصّل إلى تمثّلها.

يُعتبر الخلاص الإسلاميّ والمسيحيّ صورة وفكرة للتّحرّر من الخطيئة ومن الشّقاء ومن مظاهر الحياة عمومًا. هذا لأنّ الحياة بكثافتها الدّنيا غير قادرة على بلوغ الحياة

---

(١) تعني كلمة Salut الفرنسية في الوقت نفسه "الخلاص" و"مرحبا".

المطلقة الّتي يمكن للفكر وحده أن يرسم لها صورة تقريبيّة، حياة تتيح للنّاحية غير القابلة للفساد في الكائن الحيّ (النّاحية الّتي تجسِد عمق المثاليّة: الرّوح) أن تخاطب الجسد عوض أن تتيح لهذا الأخير أن يعبّر عن أهوائه للرّوح. تظلّ الجنّة الصّورةَ الأكثر شعبيّة للتّحرّر من الكثافات بما أنّها كثافة قصوى لا تكفّ عن تحدّيها كثافات مقلّدة. يعلم الإنسان ألا شيء سينقصه في الجنّة وأنّه لن يعرف الجوع ولا الخوف ولا الشّكّ. أمّا الجنّة كما وصفها القرآن، فهي الكثافة القصوى لحياة موصوفة على شكل وجود مطلق النّعومة والسّلاسة حيث تكون كلّ الملذّات كأكمل ما يكون وحيث يستريح المؤمنون الّذين هم أخوة في الظّلال متزيّنين بالذّهب والحرير وحيث يأكلون أشهى الأطعمة ويشربون الخمور ويلبّون كلّ رغباتهم الجنسيّة دون تعكير. أمّا في التّصوّر الإنجيلي للجنّة، فإنّ الاهتمام موجّه أكثر إلى معطى التّخلّص من كثافات الحياة المتنوّعة: سيجد المؤمنون أنفسهم واثقين من كثافة قصوى في إشباعهم لرغباتهم الرّوحيّة والجسديّة أقلّ من إطلاق الرّغبات الّتي تعوقهم.

لا تعارض بين الحكمة والخلاص لأنّهما متناظران بما

أنّهما يمثّلان أفقيْنِ ومخرجيْنِ محتمليْنِ من السّيرك ومن ملعب كثافات الحياة المتنوّعة. تتدخّل الحكمة أو الخلاص وفق نسبة متفاوتة في كلّ الوعود الفلسفيّة والدّينيّة - إلى حدود نشأة الإيطقيا المكهربة الّتي جاءت لتقترح على الإنسان المعاصر معنى جديدًا للحياة.

معضلة

على الرّغم من تسخير الكثافة الحياتيّة والحماسة العاطفيّة وتمجيد الكائن ككلّيّة غير قابلةٍ للتجزئة إلاّ أنّ الحكم ووعود الخلاص تمكّنت من جرّ الكائن البشريّ إلى النّهاية حيث تتفوّق تصوّرات فكرنا على قيم حياتنا: أصبحت سمة التساوي مبدأ للفكر ذاته وسيطرت على سمة الكثافة الّتي تمثّل مبدأ لحياتنا الحسّيّة. في كلّ فلسفة تُوكَلُ إلى الإنسان الحكمة المطلوبة وفي كلّ دين يُوعَدُ بالخلاص الأبديّ، لذلك تصبح قدرة الفكر على تخيّل وضعيّة متساوية للوِجود أَوْلَى من كثافات متنوّعة تُمليها علينا أحاسيسنا. فالحكمة والخلاص مُؤشِران يدلاّن على سيطرة الفكر على حياتنا.

في المقابل نجد الإيطيقيا الكهربائيّة الّتي أوليْناها مكانة كبرى فانتهت إلى بلورة نمطنا الإنسانيّ الحديث جعلت الحياة تنتصر على الفكر. فقد حثّتنا بألف طريقة وطريقة على التّوفيق بين ما نفكّر فيه وما نعيشه بوصفنا كائنات حيّة. لذلك فقط تحكّمت الكثافة الأساسيّة في معارفنا وممارساتنا ورغباتنا وآمالنا وأخلاقنا وسياستنا - على الأقل بالنّسبة إلى معظم البشرِ الّذين يدعون التّقدّم والتّخلّص من كلّ الأشكال الما قبل حداثيّة.

في مناسبة أولى تمكّن وعد الكثافة الّذي أنتج شكلًا إيطيقيًّا جديدًا ومتناغمًا مع القوّة الحياتيّة من طمْس وعود قديمة توخّت إلغاء الحياة أو تحويل منحاها بواسطة الفكرِ، إلى حين حدوث ذلك الإنهاك الحتميّ الّذي أصاب وعد الكثافة بفعل تأثير الرّوتين، وهو ما فسح المجال واسعًا لعودة فكرتيْ الحكمة والخلاص القديمتيْنِ. إنّه السّبب الحقيقيّ الّذي دفع بالعقل الحديث إلى الاعتقاد في عودة جديّة للحكمة والدّين. لكنّ واقع الحال يقول إنّهما لم يغادرا البتّة. الأمر أبسط من ذلك بكثير، إذ تبيّن لنا اليوم أنّ انبهارنا بالكهرباء لم يكن بتلك القوّة الّتي تسمح بتحمّل الوعد

الفـرديّ والجماعـيّ لحيـاة لم تطمح إلى شـيء أفضل من أن تكـون مكثّفـة. وبمـا أنّنـا تأكّدنا من اسـتحالة دعـم الكثافات بشـكل مسـتمرّ دون أن نضعفهـا فـي الوقت نفسـه فـإنّ وعد الكثافة لم يعد كافيًا للاستجابة لحاجات إنساننا الإيطقيّة. لقد صرنـا متأكّدين بكلّ ما أوتينا، من أنّ الكثافة الّتي عُمّمت إلى أن ارتقت إلى مرتبة المبدأ الحياتيّ لا تهب أفقًا آخر عدا ذلك الّذي يفضي إلى إنهاكنا المحتوم بشـكل شـبه ميكانيكيّ. لقد جرجـرت كلّ الأحيـاء جماعـات وأفرادًا من الّذين انغمسـوا فيهـا دون تحفّـظ إلى موجة من الاكتئـاب وإلى تراجع بطيء للإثـارة وإلـى أيّ حالـة أخرى لا تملـك من النّهاياتِ سـوى الانهيار.

هـا هنـا يتجلّـى التّناقض المشـترك الّذي انتهينـا إليه بعد آلاف المنعطفـات الّتـي شـهدتها حيواتنـا المتفـرّدة: لـم تؤدِّ رغبتنا في تعميقِ حياتِنَا سوى إلى مزيد من تسطيحها.

وإنّ ذلـك مـا يمثّـل أولـى فـروع المعضلـة: فقـد وجدنا أنفسَـنا خلال سعينا وراء تحقيق مشروعنا الإيطيقيّ الحديث مجبريـن على اختـزال فكرنا إلى مجرّد شـعور حياتيّ مكثّف إلى أن خفَتَ نهائيًا أو شارف على ذلك. أمّا ثاني الفروع فقد

نتج عن تنكّرنا لتلك الحداثة وهو ما جعلنا نعيش ما عاشه الإنسان في زمن قبل زمننا عندما طمح إلى بلوغ حالة متساوية تتماشى وتمثيلات الفكر النّقيّة والمثاليّة. يحرص الحكيم والمتديّن على ترتيب الحياة وفق الحقائق الّتي يؤمنان بها في تفكيرهما. أمّا الإنسان الحديث ومن بعده المعاصر المُنبهران بطبيعة الكهرباء وهو ما دفعهما إلى تأويل كلّ شيء من خلال الكثافات، فقد حاولا ملاءمة خصائص حقائقهم وأفكارهم ومعتقداتهم وفق خصائص مكثّفة لأجسادهم. لقد أصبحنا في هذا المستوى أكثر تمزّقًا بفعل هذه المعضلة التي سنخرج منها خاسرين بالضّرورة: إمّا بمزيد من إتلاف شعورنا بالكثافة من خلال الدّفاع عنه أو مهاجمته على أمل أن نصبح حكماء أو فائزينَ بالخلاص من جديد، ما يعني الخروج من الحياة.

لقد ضاعت الكثافة الحياتيّة في الحالتيْنِ. يبقى الاختيار ضرورة رغم ذلك، ينبغي إيجاد الحلّ الأكثر ملاءمة إيطيقيًّا. وإذا ما كانت الإيطيقيا تقوم على شكليات أكثر من قيامها على محتويات فإنّ هدفها يكمن أساسًا في تحديد أو ابتكار طريقة عيش متطابقة مع الشّعور بالعيش، أي مع ما لا يُضعف في داخلنا معنى أن نكون على قيد الحياة. ونعتبر حياة

أخلاقيّة كلّ حياة راضخة لبعض المُثُلِ الأخلاقية. ما يعني حياة مقرّرة سلفا. أمّا الحياة الإيطيقيّة فهي حياة لا تختزل ولا تدمّر الإحساس بعيْشها عند كلّ من اختار الانخراط فيها مهما تنوّعت المُثُل الأخلاقيّة أو السياسيّة الّتي تحدّدها. هذا يعني أنّ الإيطيقيا تعود كما هي دائمًا من عصر إلى عصر للفصل والحسم بين استحواذ فكرنا على حياتنا أو حياتنا على فكرنا. وبالنّظر إلى ما وصلنا إليه حاليًّا، فإنّ هذا الحسم الإيطيقيّ يبدو لنا وقد أصبح في مصافّ المستحيل.

بلا مخرجٍ

تتلخّصُ حالتنا الإيطيقيّة في بضع كلمات: إنّنا الآن عالقون بين فكيّ احتماليْن إيطيقيّيْنِ متعارضيْنِ واللّذين يؤدّيانِ إلى النّهاية نفسها، فإمّا نتمسّك أكثر بوعود تكثيف الحياة والفكر دون أن نترك مجالا لافتراض النّهاية أو أيّ منطق للتّجاوز وإمّا أن نستسلم للوعود الّتي وُجدَتْ قبل الحداثة بزمن طويل والمتمثّلة في إخمادِ كثافات الحياة أو تحويلِ وجهتها ناحية أفق مفتوح على النّهاية أو التّجاوز. ها إنّنا ننقسم إلى قسميْنِ. فنجد من ناحية أولئك الّذين قرّروا

التّمسّك بالوعد الكهربائيّ للفكر الحديث: بتكثيف لا نهائيّ لحياتنا. ونجد من ناحية أخرى أولئك الّذي يفضّلون التّحالف مع كثافات الحكمة أو الخلاص. إمّا أن يوجّهنا أمل إخضاع فكرنا لقيم حياتنا أو أن نوجّه هذا الوجود برمّته على أمل إخضاع هذه الحياة لقيم فكرنا.

يظلّ كلّ بديل بديلًا مأساويًّا. إذ لا مفرّ من الاختيار، وهو اختيار لا يخلو من فقدان معنى الكثافة في حدّ ذاته. فأن نوجد لأجلِ تكثيف هذا الوجود كما أسلفنا الذّكر هو ما يجعلنا أكثر عرضة لتأثير الرّوتين، وهو أيضًا إلغاء تدريجيّ لكثافات الحياة باسم ذلك التّكثيف نفسه. وإنّ ذلك ما أوصلنا إلى المعضلة الإيطيقيّة الحديثة. إلا أنّ عيشنا وفعلنا في خضمّ إخماد كثافة الحياة أو تحويلها يعني تزويد زوال تلك الكثافة بكثافة قصوى. كما يعني أيضا التّوْق الدّائم إلى حالة من الطّمأنينة والخمول والتّسامح والاستسلام ممّا يحيل إلى العودةِ إلى إيطيقيا ما قبل حداثيّة. لا شيء ممنوع في النّهاية: ربّما يتعيّن علينا التّنازل قليلًا من أجل لمس معنى حياة مكثّفَة آملين في الحكمة أو في الخلاصِ. لكنّ وعود الحكمة أو الخلاص ليست وعودًا أكثر وفاء لكثافة الشّعور

بالحياة ممّا هي عليه وعود الحداثة المكثّفة: فهي وعودٌ تستغلّ كثافة الشّعور بالحياة من أجل تسخيره ضدّ نفسه. وعود تحتاج إلى مخاطبة تلك الكثافة بالذات في داخل كلّ شخص يعيش ويحسّ ويكابد لتعده بحدّ تلك المكابدة عبر تحويل مشاعره ووجهة حياته برمّتها. الأمر يتعلّق إذن بإيمان مكثّف بشيء آخر مغاير للكثافة. وفي كلتا الحالتيْنِ لا مجال لصمود تلك الكثافة لأنّها لا تملك سندًا روحيًا. لقد أصبحت على مشارف الاختفاء شئنا ذلك أم أبيْنا. هل يتعيّن علينا في هذه الحال أن نعيش بهدف جعل حياتنا أكثر كثافة ونكتفي بذلك الهدف سبيلًا؟ إنّ ذلك ما نصبح عاجزين تدريجيًّا عن بلوغه. هل ينبغي الاكتفاء بالعيش على مرأى إخفات كثافات الحياة؟ لا يمكننا توخيّ ذلك دون استخدام كثافة حياتنا وحماستنا العصبيّة. إنّنا بذلك نخون تلك الحماسة ونكتفي بتوجيهها ضدّ نفسها.

كلّ ما نخسره في الحالتيْنِ هو الكثافة في حدّ ذاتها: إحسِاسنا بالإحساس..

سيبدو لنا مهما كان خيارنا أنّنا لم نعد نملك وسائل كفيلة تمكّن فكرنا من الحفاظ على كثافة حياتنا تلك وسواء

اصطففنا للدّفاع عنها أو لمهاجمتها فإنّها لن تصمد أكثر. إنّها غير قادرة على الثّبات على مدى كلّ الوجود ولا على دعم مجتمع بأكمله.

لنا أن نسأل أنفسنا ونحن في هذا المستوى: كيف لنا أن نظلّ أوفياء لكثافة حياتنا دون أن نحوّلَها إلى مبدأ حياتيّ مطلق ودون أن نسعى إلى إلغائها وإخمادها نهائيًّا؟ أو بكلّ بساطة، كيف لنا أن نعيش محافظين على كثافة حياتنا الخاصّة ما أمكن؟ إنّ ضميرنا الإيطيقيّ عالق ما بين نارينِ. ها هو من ناحية منسحق تحت وطأة إنهاك كلّ ما وعدتنا به الكثافة من تكثيف مطلق لكلّ شيء كما لو أنّ وعدًا مماثلًا كاف في حين أنّه غير قادر على خوض اختبار الزمن وهو من ناحية أخرى واقع تحت ضغط انبعاث وعود فلسفيّة ودينيّة قديمة متراوحة بين إخماد الحياة الوهميّة للجسد أو السّمّو بها. فمن جانب، نحن منذرون بالتّعب وبفقدان تدريجيّ لحيويّتنا، ومن جانبٍ آخر بالاستسلام للتّنكّر الفكريّ لقيمة حياتنا الجوهريّة. تبدو المعركة خاسرة قبل نشوبها. ما الّذي يمكن أن يفعله الفرد الّذي ما زال يعتقد أنّ هدف حياته يكمن في دعم كثافتها بقدر ما يستطيع ولأطول وقت ممكن؟ إنّ الإنسان الّذي لا

يعيش إلاّ على أمل أن يظلّ وفيًّا لقوّة الحياة الّتي يشعر بخلجاتها في داخله ستنتهي بأن تبدو له حياة دون فائدة.

قد يكون من المستحيل أن نعيش ونفكّر دون أن نفرض الفكر على الحياة أو الحياة على الفكر. قد يكون من قبيل العبث أن نطمح إلى حياة أكثر أو أقلّ ممّا هي عليه بل أن نطمح بالأحرى إلى فكر لا هو أكثر ولا هو أقلّ ممّا هو عليه. ربّما لا توجد وسيلة تضمن باستمرار أن نعيش من دون أن نفكّر بكثافة، أو أن نفكر من دون أن نعيش بكثافة أيضًا. ربّما تكون وضعيّتنا [المعضلة] بلا مخرج.

٨

صورة معارضة

ثمّة شيء يقاوم

حوّاء سيُولْ

مرّ زمن طويل على أول ظهور لقصص روبوتات لها شكل إنسانيّ وقادرة على التّعلّم والإفصاح عن عواطفها وعن الحُبّ أيضًا. تعود كلمة «روبوت» إلى سنة ١٩٢٨ خلال عرض مسرحيّ لكارل تشابيك[١] عنوانه «روبوتات رُوسُومْ العالميّة»[٢]. ويشير المصطلح في نشأته إلى كائنات

---

(١) كارل تشابيك (١٨٩٠-١٩٣٨)، كاتب مسرحيّ وروائي تشيكوسلوفاكي يُعرف خصوصا بإدخالِه كلمة «روبوت» إلى اللّغةِ العصريّة في انتقاد للتقدّم العالمي وما نتج عنه من نفاقٍ اجتماعيّ، وكلمة روبوت مشتقّة من اللغة التّشيكيّة الّتي تعني العبد.

(٢) روبوتات روسوم العالميّة R.U.R: المسرحيّة الّتي كانت وراء انتشار كلمة روبوت وقد عرضت يوم ٢٥ يناير ١٩٢١ والّتي تُرجمت فيما بعد إلى أكثر من ثلاثين لغة. وتتحدّث عن مصنع لصناعة الأشخاص الّذين سيطلق عليهم اسم الرّوبوتات من مادّة عضويّة اصطناعيّة.

صناعيّـة و«آلات بيولوجيّـة» مصنّعة في جزيـرة بعيدة. كانت الرّوبوتات في البداية خالية من أي إحساس، ثمّ اكتسبت بعد ذلـك تقنيات مكّنتها من الإحسـاس تدريجيًّا بفضل مطالبات السّاسـة والمدافعيـن عنهـا مـن جنـس البشـر (رابطـة هيلين غلـوري)، وهكـذا حصلـت على دمـاغ وقلب إلـى درجة أنّ اثنيْن من الروبوتات وقعا في الحبّ. إنّ «الآلة العاشـقة» هي هاجـس لـم يكفّ عـن التّكرّر فـي العصر الحديـثِ، هاجسٌ غالبًـا مـا اضطلع بدور توضيح الإنهاك الّـذي أصاب كثافات حياتنـا. وقـد تكـرّر هـذا الهاجس في أفضل رسـوم أوسـامو تيـزوكا[1] المُتحرّكـة، كما مثّـل أحد موضوعـات رواية «هل تحلـم الرّوبوتات بخرفـان آليّة؟» لفيليـب ك. ديك[2] وتعمّق فيمـا بعد فـي الفيلم المقتبـس عن الرّواية نفسـها «بْلَيْـدْ رَنَرْ» Blade Runner[3]. كمـا انتشـر ذلك الهوس نفسـه بالآلات

---

(١) أوسـامو تيزوكا (١٩٢٨-١٩٨٩)، رسّـام ومنتج أفلام «المانغا» وهو من أهمّ مطوّري الرّسوم المتحرّكة في اليابان.

(٢) فيليـب ك. ديـك (١٩٢٨-١٩٨٢)، روائـي وكاتـب قصـص أمريكي ويختصّ في نوعِ الخيالِ العلميّ.

(٣) بَليد رنر Blade Runner فلم خيال علمي عُرِضَ سـنة ١٩٨٢ أخرجه الإنجليـزي ردلـي سـكوت، والفلـم مسـتلهمٌ مـن روايـة "هـل تحلـمُ الرّوبوتات بخرفانٍ كهربائيّةٍ؟"

العاطفيّة على شاشة التّلفزيون في قصص مثل «قلوب السّيلون[1]» في مسلسل «باتل ستار غالاكتيكا Battlestar Galactica »[2] أو «الهُوبُوتْ» hubots في المسلسل التّلفزيونيّ الكنديّ «الأشخاص الحقيقيّون»[3]. اكتشف الإنسان الأخير في نهاية مسرحيّة «روبوتات روسوم العالميّة R.U.R» أنّ الشّعور بالحياةِ قد تسرّب إلى المخلوقات الرّوبوتيّة: بْرِيمُوسْ وهِيلِينْ رُوبُوتَانِ مهدّدان من طرف المهندس أَلْكِويسْتْ بالتّدمير، فراح كلّ واحدٍ منهما ستوسّل إليه من أجل على حياةِ الثّاني أدركَ ألكويسْت حينئذ أنّهما متحابّان بصدق وأنّهما يجسّدان آدم وحوّاء في عالم ما بعد

---

(١) السّيلون: مخلوقاتٌ خياليّةٌ ظهرت في المسلسل التلفزيوني «باتل ستار غالاكتيكا».

(٢) باتل ستار غالاكتيكا: مسلسل تلفزيوني من نوع الخيال العلمي ظهر عام ١٩٧٨ وهو اقتباسٌ من عدة كتب وقصص.

(٣) الأشخاص الحقيقيّون: مسلسل تلفزيونيّ كنديّ من نوع الخيال العلمي الدّراميّ عُرض على الشّاشة منذ ٢٠١٢ وتدور الأحداثُ في بلد مفترضٍ عن السّويد المستقبليّة حيث سينتشر استخدام الرّوبوت، لكنّ ذلك النّوع من الرّوبوتات المسمّاة ب»الهوبوت» المتكوّنة «الهومو»: الانسان والرّوبوت قد شرعوا في السيطرةِ على مجرياتِ الأحداثِ إلى درجة استغلال السكّان جنسيًا.

إنسانيّ. وهكذا تمكّنا من إعادة تشكيل حياة الإنسان المنهكة: «إنّي أشعر بغرابتي... كأنّي ضائعة وجسدي يؤلمني وقلبي يؤلمني، يُؤلمني كلّ شيء، لا أكاد أفهم ما يحدثُ لي. إنّي غير قادرة على مجرّد شرح بسيط لما أشعر به...» هكذا ردّدت هيلين مثل آلة تراجيديّة. عادت الكلمات الحمّالة للوجع لتخرج من جديد لكن من فم روبوتيٍّ هذه المرّة، كلمات حمّالة للعاطفة ولكلّ المعجم الّذي يذكّرنا بالكثافة الحياتيّة الّتي أصبحت في متناول كائنات غير حيّة وميكانيكا استجابت للحياة القويّة الّتي تركناها تغفو في داخلنا. استفاد كارل تشابيك من شخصيّة «الغُولِمْ» Golem[1] المنحدرة من الفلكلور الشّعبيّ ومن رواية فرانكنشتاين Frankenstein[2] ليؤلّف مسرحيّته الاستشرافيّة الّتي جعلت من الرّوبوتِ كائنًا مخلوقًا من قبل هذا الإنسان المنهك مثل إله عاش طويلًا

---

(١) الغولم: من التّراثِ اليهوديّ وتعني حرفيّا «الجنين الّذي لم يكتمل»، وهو مخلوقٌ من طينٍ له شكل إنسانيّ غير قادر على الكلام لكنّه مشكّلٌ بطريقةٍ تجعله قادرا على الدّفاع عن خالقِه. نجد الغولم في عدة أفلام سينمائيّة شهيرة لعلّ أهمّها سيّد الخواتم.

(٢) فرانكنشتاين أو إله النّار الجديد: رواية للإنجليزيّة ماري شيلي (١٧٩٧-١٨٥١)، تروي قصّة فرانكنشتاين العالم الشّابّ الّذي توصّل إلى خلقِ مخلوقٍ غريبٍ وعاقلٍ على أثر تجربةٍ علميّةٍ.

جدًا وخفّض من قدرته على الشّعور بالحياة لذلك حمّل ابنه الرّمزيّ مسؤوليّة مواصلتها ودعمها. استوحى كارل تشابيك كلمة «روبوت» من شقيقه جوزيف: فقد كان يفكّر بجدّية في الاستغناء عن المُصطلحيْن القديميْن «الآلة الذّاتيّة التّشغيل» (الأوتوماتون) automates و«الأندرويد androides[1]»، وقد فكّر كارل في البداية أن يستخدم مصطلح «لابوري» Labori منطلقًا من الجذر اللاّتينيّ «اللاّبور» Labeur الّذي يعني «العامل بكدّ»، لكنّه لم يرتح لرنّة الكلمة الّتي بدت ثقيلة حينذاك، لذلك قَبِل مقترح أخيه المتمثّل في التّلاعب بالمصطلح التّشيكيّ «رُوبُوتَا» الّذي يذكّر بالعمل القسريّ وبالأشغال الشّاقّة. وهكذا تبلورت روبوتات تشابيك: مخلوقات خاضعة للعمل دون كلل أو ملل، عبيد بلا روح في الزّمن الحديث، ومع ذلك فقد كانت روبوتات متكوّنة من موادّ عضويّة. سيتطلّب الأمر عدّة سنوات إضافيّة لنتخيّل

(١) الأندرويد: اسمٌ قديمٌ لجسمٍ صناعيّ يحاكي بشكله الإنسانَ وأطلقت هذه التّسمية أوّل مرة سنة ١٢٧٠ من قبل الفيلسوف اللاهوتيّ أليبرتوس ماغنوس (١٢٠٠-١٢٨٠)، لتنشرَ بعد ذلك بعد استرجاعها سنة ١٨٨٦ من قبل الرّوائي الفرنسي أوغست دو فيلييه دو ليل - أدام (١٨٣٨-١٨٨٩) في روايته «حوّاء المستقبليّة».

ثـمّ نصنـع روبوتات تعمـل بفضـل الطّاقَـةِ الكهربائيّـةِ. وإنّها روبوتات أيّامنا هذه الّتي ما زالت تسحر ألبابنا.

من يدري؟ لعلّ ما يقابل التّجارب الكهربائيّة الّتي دارت وقائعهـا فـي صالونـات القـرن الثّامـن عشـر هي نفسـها الّتي بصدد التكرّر اليوم في الصّالونات الرّوبوتيّة.

إنّ سلسـلة الرّوبوتات المؤنّثـة أو الأندرويد «إيفـ R»[1] باسمها الّذي يحيلنا إلى أوّل امرأة في الكتابِ المقدّس وإلى كلمـة الأبديّـة forever قد تمَّ الكشـفُ عنهـا جماهيريًّا لأوّل مـرّةٍ علـى أثر تظاهـرة تمّ تنظيمها فـي نزل «كيويـوك مونهاوا هونكـوان» بمدينة سُيُولْ سـنة ٢٠٠٣. ظهرت كمنافسـة لها «الممثّلـة الرّوبـوت» (الأكترويـد actroide) اليابانيّة الصّنعِ، ومثّـل ذلك الأنموذج أولى النّسـاء الرّوبوتاتِ القادرات على

(١) إيفـ R: Eve R: سلسـلة مـن الرّوبوتـاتِ الإنـاثِ الّتـي تـمّ تطويرها مـن فريقٍ مكوّنٍ مـن علماء كوريّين من المعهد الكـوري "أندرويدس" بالشّـراكة مـع جامعة كوريـا للعلـوم والتّوكنولوجيا وتمّ عـرض النّوع الأوّل مـن هـذا الروبـوت يوم ٤ مايو ٢٠٠٣ والاسـم متكوّن من Eve حوّاء وهي قادرةٌ على محاكاة المشـاعر البشـريّة مثل السّعادة والحزنِ وغيرهما كما يمكنها التّعرف إلى ما يقارب ٤٠٠ كلمة كوريّة وإنجليزيّة ممّا يخوّلها الإجابَة عن بعض الأسئلة.

تقليد تعابير الوجه الإنسانيّ وإظهار علامات السّعادة والحزن والغضب بتحريك الرّأس والصّدر والذّراعين والسّاقين. عندما عُرِضَتْ «الممثّلة الرّوبوت» أوّل مرّة على جمهور بشريّ، اختلطت مشاعر الدّهشة بالإثارة بالخوف بالنّشوة لدى الرّجال والنّساءِ كما لدى السّتين طفلا المدعوّين من طرفِ وزارة التّجارة ووزارة الصّناعة والطّاقة وقد بدوْا في ردود أفعالهم شبيهين بما حدث منذ ثلاثة قرون خلت، عندما عاين البرجوازيّون تجربة «فينوس الكهربائيّة» لصاحبها الفيزيائيِّ جورج ماتيّاس بوس. ربّما حلّت «حواء الرّوبوتيّة» لتختتم فصلا تاريخيًّا من إثارتنا الّتي افتتحتْهَا «فينوس الكهربائيّة» لكن مع قَلْبِ المبدأ الّذي قامت كلّ منهما عليه. فقد اكتشفنا أمام «فينوس الكهربائيّة» ما يحتويه الكائن البشريّ من كهرباء أمّا أمام «حوّاء الرّوبوتيّة» فها إنّنا نكتشف ما يحتويه الكائن الكهربائيّ من إنسانيّة. ها قد غيّرت الرّغبة معسكرها نهائيًّا: فما يثيرُنا الآن ليس قدرة الإنسانيّة على التّحوّل إلى كائنات كهربائيّة وإنّما قدرة الكهرباءِ على أن تصبح إنسانيّة. عندما نتأمّل نعومة وجه «إيف R» المصنوع من مادّة السّيليكون والّذي شُكّلَ محاكيًا لممثّلتيْن كوريتيْنِ

بحركاتِ شفتيْهما وعينيهما المتقلّبتيْن يسارًا فيمينًا ثمّ يمينًا فيسارًا، لا شكّ في أنّ الرّجال سيهتزّون ببعض مشاعر الحبّ تجاه تلك الآلة الكهربائيّة القادرة على إنتاج بعض الأحاسيس والعواطف. ها إنّنا مهتزّون بالانبهار نفسه الّذي دبّ فينا أمام «فينوس الكهربائيّةِ»: إنّنا لا نعرف تمامًا لماذا لكنّنا منجذبون ونافرون في الوقت ذاته ونحن أمام دبيب الحياة في الشّيء اللاّعضويّ، وأمام الرّغبة الواضحة الّتي تعتمل داخل الكائن الاصطناعيّ.

ما زالت حركات «إيف R» متردّدة، وتعابيرها محدودة، وردود أفعالها مرتبكة وهو ما يمكّننا من لمس حياة أكثر نقاوة وأقلّ كثافة، ومن لمس نوع من الطّفولة الإنسانيّة المتحرّجة من نفسها، مع أملِ العثور في المخلوق الإلكترونيّ على الرّوح البدائيّة حيث يتردّد الشّعور بأنّنا ابتعدنا من تلك الرّوح بعد أن بالغنا في إنهاكها.

إنّ «إيف R» هي في الواقعِ مخلوق إلكترونيّ أكثر من كونه كهربائيًّا. فنحن لا نفكّر في الكهرباء عندما نراها لكن في المعلومة الّتي تنشرها تلك الكهرباء. فالرّوبوت مخلوق عصر ما بعد الكهرباء: في العصر الإلكترونيّ، حيث تنتقل

المعلومة عبر الكهرباء هذا أكيد، لكنّ الكهرباء لم تعد تدغدغ الخيال، لأنّها تحوّلت إلى مجرّد وسيلة ناقلة للمعلومة. لقد أصبحت التطوّرات الإلكترونيّة منذ بداية ستّينات القرن الماضي تتضمّن استخدام كمّيات من الكهرباء المُتناقصة تدريجيًّا لأغراض النّقل لا غير.

وقد لا تكون الإلكترونيّات شيئًا آخر غير شكل من أشكال إيقاف الكثافة الكهربائيّة.

الوعد الإلكترونيّ

إذا ما تسرّبت الرّغبة في الرّوبوتات إلى كياننا فذلك يدلّ بكلّ بساطة على أنّ الحياة في داخلنا تعيش على ملل روتينيّ في كثافتها الخاصّة فلم تَجد بدًّا من توجيه فضولها إلى الميكانيكا، أي إلى مظاهر حياة لا تبدو حيّة حقًّا. كلّما ازدادت رغبتنا تجاه النّمط الإلكترونيّ أظهرنا بصفة أوضح - ويتجلّى ذلك في ذوقنا الموسيقيِّ الاصطناعيّ، وفي إثارتنا الجنسيّة المتعلّقة بدعم أدوات مرتجّة وبتحفيزات افتراضيّة، وفي استخدامنا اليوميّ للأشياء المتّصلة بالأنترنت مثل شاشاتِ اللّمس وفي هوسنا بالتّفرّد التكنولوجيّ الّذي جاء

ليستولي على مكانة الإنسانيةِ القديمةِ -تراجع رغبتنا الحياتيّةِ في الرّغبة الحياتيّة ذاتها، واستثمار رغبتنا الجنسيّة في ذلك الّذي لا يعيش بكثافة.

ماذا نقصد بالعصر الإلكترونيّ؟ إنّه نتاج إنهاك الكهرباء بوصفها عاملا كونيّا وعاملا تكنولوجيّا أساسيّا. إنّ الكمّيات الكهربائيّة الصّغيرة المستخدمة في نقل المعلومات الإلكترونيّة ترجع ببساطة إلى السّمة غير الضروريّة للكثافة الكهربائيّة في عمليّة التّواصل: لماذا ننفق طاقة أكبر فيما يمكن أن ينتقل بقليل منها؟ لم تعد الكثافة هدفا بل مجرّد وسيلة لا غير. لقد مهّد الهاجس الّذي انطلق مع بداية القرن التّاسع عشر والطامح إلى نقل الصُورة من بعد والمرتبط بالخصائص الكهروضوئيّة[1] للسّيلينيوم sélénium الطّريق لاستخدام الكهرباء كأداة بسيطة في تشفير المعلومة الضّوئيّة أو السّمعيّة.

---

(١) الظّاهرة الكهروضوئيّة: تتمثّل في انبعاث الإلكتروناتِ من الأجسامِ الصّلبةِ والسائلة والغازيّة عند امتصاص الطّاقةِ من الضّوء. بدأت عام ١٨٨٧ مع العالم «هيرتز» وتواصلت مع أينشتاين الّذي قدّم ورقةً سنة ١٩٠٥ يفسّرُ فيها الظّاهرة بشكل أوضحَ وهو ما جعله يحصل على نوبل للفيزياء سنة ١٩٢١.

درس مهندس التّلغراف ويلوبي سميث[1] مختلف ممكنات السّيلينيوم بما في ذلك مقاومة هذا العنصر للكهرباء الّتي تنخفض مع تزايد تعرّضه للحرارة وهو ما جعل الأمل قائمًا في تحويل تأثير التّنوّع الضّوئيّ إلى طاقة كهربائيّة، ثمّ في تشفير المعلومة الضّوئيّة على شكل معلومة كهربائيّة، ممّا يسمح بنقلها على مدى مسافات طويلة قبل إعادة تشكيلها انطلاقًا من المعلومة الكهربائيّة المُتأتّية من المعلومة الضّوئيّة ما يعني من الصّورة نفسها. اقترح سنة ١٨٧٨ ثلاثة باحثين في الوقت نفسه ومن دون العمل معًا استخدام خصائص السّيلينيوم، الّذي يؤثّر على التيّار الكهربائيّ بشكل متناسب مع التّعرّض للضوء، وبوصْفِهِ وسيطًا لنقل صور فوتوغرافيّة من بعد: ذلك ما مثّل المبدأ الّذي قام عليه «تلسكوب télescope» البُرتغاليِّ أدريانو دي بايْفا[2] و«تيلكتروسوب

(١) ويلوبي سميث (١٨٢٨-١٨٩١): مهندس كهربائي من أصل إنجليزي ويُعدّ مكتشف خاصّية ما يُسمّى «الموصليّة الضّوئيّة» لعنصر السّيلينيوم. عمل في شركةٍ للكابلاتِ الّتي كانت تُستخدم لتمديدات التلغرافِ.

(٢) أدريانو دي بايفا (١٨٤٧-١٩٠٧)، فيزيائيّ برتغالي درّس في جامعة بورتو ويُعد أوّل من صمّم ما يسمّى فيما بعد بالتّلفزيون.

telectorscope » الفرنسـيّ كونستانتين سينليك[1] ومن بعده الأمريكيّ جُورج ر. كاري[2]. يُعَدُّ السّيلينيُوم من أول أسلافِ «التّلفزيـون» والّـذي لن يكفّ عن تجسـيد أمل مجنون كامن فـي داخله بإمكانيّـة ترجمة الضّوء إلى كهربـاء لكنّه لم يتأخّر عن افْتتاح عصر لهاجس جديد: عصر تجزئة الصّور الضّوئيّة إلى معلومات وبثّها على شكل إشارات. لم تعد الكهرباء منذ ذلك الهاجس أكثر من ناقلة للمعلومات بفضل طاقة لم تكن تحتـاج أن تسـتهلك بكميّـة كبيرة حتّى تكون مهمّـة حتّى أنّها كانت أكثر فعاليّة وأقلّ تكلفة بكمّياتها الضّعيفة. وهكذا تحرّر هوسـنا من الكثافة بشكل غير محسوس ليتمسّك بالمعلومة. ها قد دخلنا دون أن ندرك ونحن شبه نائمين حلمًا جديدًا من شـأنه تغييـر وضعيّتنـا الإيطيقيّـة: ونقصد الحلـم الإلكترونيّ الّذي يمثّل الرّوبوت ملامحه ووجهه المرغوب.

كلّ ذلـك لأنّ المعلومـة لم تعد تتعلّـق بما هو مكثّف بل بمـا هو ممتـدّ. فهي عمليّة تقطيع وتجزئة وعالجة فاحتسـاب

---

(١) كونستانتين سينليك (١٨٤٢-١٩٣٤)، عالـم فرنسـي ومختـرع التّيلكتروسوب وهي آلةٌ لتحليل ونقل الصّورة ثمّ إعادة تشكيلها.

(٢) جـورد ر. كاري (١٨٥١-١٩٠٦)، مختـرع أمريكـي يعرفُ باختراعه للكاميرا الكهربائيّة من السّيلينيوم سنة ١٨٧٧.

وإعادة تشكيل لكلّ ما هو متنوّع - من صوت وضوء وضغط من اللّمس أو من الكهرباء - ويتمّ ذلك جزءًا إثر جزء، بكمّيّات تُقاس بـ«الشّانون Shannon»[1] حيث يمثّل «البايْتْ le bit » بوصفه عنصرًا ثنائيًّا وحدة للقياس. لقد حلّ مفهوم المعلومة ليغلق القوس التّاريخيّ الّذي فتحه هوسنا الكهربائيّ والّذي يعود بنا بالضّرورة إلى ما يفترض أن تكون الكثافة الكهربائيّة قد أنقذتنا منه: القياس الكمّيّ، التقطيع شظيّة إثر شظيّة، العدّ الّذي صار كونيًّا «بايْتْ إثر بايْتْ bit by bit ». تمكّننا المعلومة بوصفها أكثر فعاليّة من كلّ امتداد فضائيّ والّتي لا تطبّق على المادّة الفيزيائيّة فقط، من اختزال كلّ المُعطيات المحسوسة واللامحسوسة وكلّ التقلّبات وكلّ شكل من أشكالِ صرف الطّاقة إلى كميّات قابلة للمقارنة - ما يعني أنّ المعلومة قادرة على اختزال كلّ كثافة ممكنة.

لقد مثّل تعميم الإلكترونيّات على جميع مجالات التّكنولوجيا البشريّة دون شكّ نهاية للهاجس الكهربائيّ

---

(١) الشّانون shannon وحدةُ قيسٍ لوغاريتميّةٍ في مجالِ الإعلامية. وتساوي هذه الوحدة المعلومةَ المخزّنة على شكلِ"بتّات" bit حيثُ يكون البايت أصغر وحدةٍ ناقلةٍ للمعلومةِ.

العظيم. لم تعد الكهرباء المحيطة بنا من كلّ جانب أكثر من خادمة على مدى عقود من الزّمن، ولم تعد أكثر من شيء محايد ينقل المعلومة سرّا على شكل حزم وبايتات وأوكتات octets[1]. كما كفَّ الجميعُ منذ الثّلث الأخير من القرن العشرين عن الاندهاش والانبهار القدرات الكهربائيّة. ظللنا نشعر بذلك الحماس القديم الّذي يعيدنا إلى مخيّلة القرن التّاسع عشر كما الحال في الخيال العلميّ المُصطلح عليه بـ«السّتيم بانك steam-punk»[2](حيث لا تزال الكهرباء أعجوبة لأنّه كان يفترض أنّها لم يتمّ استغلالها صناعيّا في العصر الفيكتوريّ)[3]. إنّ التيّار الكهربائيّ وكثافته الهائلة أفسحا المجال للحاسوب ولاحتساب البيانات وللعالم الرقميّ في الخيال المعاصر. تسلّلتْ الإيطيقيا المكثّفَة ماشية على أطراف أصابعها تقريبًا، تلك الّتي حرّكت قلوب البشر

---

(١) الأوكتات: ما عادل ثمانية بايت.

(٢) السّتايم بانك: نوعٌ من أنواع الخيالِ العلميّ الّذي انتشرَ في القرنِ التّاسع عشرَ والّذي كانَ يتضمّنُ التّكنولوجيا والتصميماتِ المستوحاةِ من الآلات الّتي كانت تعمل آنذاكَ بالبخارِ.

(٣) العصر الفيكتوري في إشارةٍ لفترة حكم الملكة فيكتوريا على إنجلترا منذ ١٨٣٧ إلى ١٩٠١ ويصنّفه العلماء كعصرٍ للثّورةِ الصّناعيّةِ.

منذ القرن الثّامن عشر لتختفي نهائيًّا من مشهد أحلامنا، وراح تأثيرها يتراجع بدوره كلّما ازداد عمل الكهرباء سرّيّة في عمق تمثيلاتنا الخياليّة. لقد تشكّلت الكثافة بوصفها قيمة عليا للحياة من التّحالف الفريد الّذي جمع الفكرة بالصّورة. وإنّ ذلك بالتّحديد ما أطلقنا عليه اسم «الحداثة» ربّما. أمّا عندما كفّت تلك الصّورة الّتي يوفّرها التّيار الكهربائيّ عن إثارة الافتتان العفويِّ القديم نفسه، استمرّت الكثافة في الظهور كأنموذج إيطيقيٍّ للعالم اللّيبراليّ والمجتمع الاستهلاكيّ لكنّها عندما وقعت فريسة لتأثير الرّوتين فقدت كلّ سماتها الفاتنة.

بما أنّ الإيطيقيا الكهربائيّة للحداثة هي بمثابة المنجم المستهلك لطاقة أحفوريّة قديمة من إنسانيّتنا، فهل يجب علينا تخيّل إيطيقيا إلكترونيّة للغد؟ هل ينبغي توقّع طريقة جديدة نتوخّاها لتحقيق إنسانيّتنا الواقعة تحت سحر الرّوبوتات بما أنّنا بالأمسِ البعيد توخّيْنا طريقة لأنسنة متأثّرة بالطّاقة الكهربائيّة؟ لن تتأخرّ الإيطيقيا الإلكترونيّة عن الانبثاق شيئًا فشيئًا كنتيجة حتميّة للحركة الفكريّة الدّاعمة لما يسمّى «ما بعد الإنسانيّة». ستضعنا تلك الإيطيقيا في زمن

يناسب تجاوز حياتنا العضويّةِ والحسّيّة والكهربائيّة لتضعنا في حياة أخرى مماثلة لحياة الرّوبوتات حيث ينتشر الذّكاء الصّناعيّ والكائنات الإلكترونيّة الّتي من شأنها تخفيض معاناتنا وأمراضنا وموتنا وتحويل كثافاتنا الحياتيّة إلى مُعالجة عالية للمعلومة المعرفيّة في اتّجاه تحسين أداء ذاكرتنا وقدرتنا على التّكيّف والتّميّز. بمجرّد أن تتحالف الصّورة مع الفكر، مثل تحالفت الكهرباء مع الكثافة، وتحالف ما هو إلكترونيّ مع المعلومة فإننا نوعد بشرطٍ إيطيقيٍّ جديد.

لكنّ كلّ ما يقدّمه لنا الوعد الإلكترونيّ هو مجرّد نسخة تكنولوجيّة للحكمة والخلاص: عبارة عن تدحرج الكثافة الحياتيّة الّتي فُرضت على الفكر إلى حيث تفرض المعلومة الفكريّة الّتي اليوم على الحياةِ. لا ينتزعُنا الوعد الإلكترونيّ بكلّ تأكيد من بين فكّي الإيطيقيا اللذين وقعَ بينهما وعينا الإيطيقيّ: إنّه وعد لا يستطيع سوى الزّيادة في قوّة الضّغط. ها قد صرنا مشتّتين بشكل مضاعف إذن، بين الحياة المكثّفة والحكمة أو خلاص الدّيانات من ناحية ومن ناحية أخرى بين الحياة الكهربائيّة والحياة الإلكترونيّة الرّابضة في غدنا. وقد مكّنتنا هذه الأخيرة على الأقلّ من التّفطّن إلى حجمِ

تهالـك أنمـوذج الكثافة الكهربائيّة الّتـي ترعرعنا عليها، حتّى وإن تمسّكنا بخضوعنـا إلـى المتطّلبات الحديثـة في العيش بشـكل أقوى وأسـرع أي العيش بكثافة فـي بعض المجالات الوجوديّة والاجتماعيّة. هذا يعني دون أدنى شكّ بروز بعض المثل الأخرى. سيؤمن البعض بنمط حياة مساير للمعلومة: وهـي حيـاة مختزلة في بياناتهـا المدّخرة والمُمتـدّةِ. حياة لها سمات فعّالة غير مكثّفة: ذاكرة مضخّمة وتركيز مطّرد ومزاج تحت السّيطرة وموت مؤجّل.

سيعني إيماننا بهذا الوعد الجديد أنّنا لم نستفد بما يكفي من الدّروس الّتي قدّمها لنا إنهاك الإيطيقيا الكهربائيّة. سيكون علينا أن نتمنّى اختزال الحياة إلى الفكر، بعد أن تأمّلنا اختزال الفكـر إلـى الحيـاة، واقتـراح نظيـر مـادّيّ لآمـال الحكمـة والخـلاص مـن خـلال تسـليط الضّـوء على وجـود خال من الحيـاة العضويّة. هذا ما سـيكون مرّة أخرى بمثابة اختزال أو استخلاص الشّعور بالحياةِ بدلًا من تأجيجه.

إنّنا لا نطالب إلاّ بشـيء واحد: لا بطلاسـم سحريّة تدلّنا علـى كيفيّة العيش ولكـن بضمان إمكانيّة التّفكيرِ في تحصين الشّعور بحياتنا من كلّ ما يخفّضه أو يختزله. إنّنا لا ننتظر مثل

أطفال كبار أن تكشـف لنا فكرة ما معنى الحياة ولا أن تعلّمنا قواعـد الوجود. إنّنا لا نأمل إلاّ في إيطيقيا كفيلة بضمان عدم تدمير كثافة حياتنا باسم تحقيقها. ما الهدف من عيشنا الأبديّ إذا كان عيشًـا مرتبطًا بفقدان تدريجيّ لشعورنا بالحياة؟ فبدل أن نوعـد بحيـاة مكثّفـة أو بأخـرى أبديّـة (روحيّـة كانـت أو ماديّـة)، سـنفضّل أن نوعـد بإمكانيّة أن نشـعر بحياتنا طالما نحنُ فيها، لا أكثر.

يكفـي أن نعبّـر عـن هـذا المطلـب حتّى نـدرك أنّنا لسـنا بصـدد البحـثِ عـن حـلّ لمعضلتنا: فـإنّ صياغـة مطلبنا هذا بوُضـوح يعني أنّنا توصّلنـا بالفعل إلى تخليص إجابتنا. الأمر لا يتعلّـق إذن بإفلاتنا من الفكّين الضّاغطيْن علينا، إنَّما يتعلّق بمزيد من الصُّمود بين ذيْنِكَ الفكّيْنِ لا أكثر.

تأجيلٌ دونَ حسمٍ

هـا هنا تكمن كلّ صعوبـة المنطق الإيطيقيِّ: إذ لا وجود لحلّ ِنهائيّ يمكّن الكائن الحيّ من الحفاظ على كثافة حياتِه.

ليـس أمـام الكائـن المفكّر من خيار آخر سـوى أن يقاوم بـلا انقطـاع من أجل الحفـاظ على كثافة حياته. فأن نتمسّـك

بكهرباء أعصابنا وعضلاتنا وأن ندعّمها أكثر وأن نتركها تخترقنا وتصعقنا، كل ذلك لا يؤدّي فقط إلى أن نشعر ولكن أيضًا يؤدّي إلى معرفة أنّ لدينا إحساس الكائن الحسّاس، أي نتعلّم مقابلتها بقيمة أخرى. فالحياة تقاوم الفكر بمُثُلِهِ، وعليها أن تقاومَه لأنّها لا تسمح باختزالها إلى مجرّد كلمات وأفكار ومفاهيم، ولأنّها لا تسمح بأنْ تُقيَّمَ وفق مبادئ التّساوي والبساطة والإطلاق والأبديّة الّتي تبقى من شأنِ فكرنا وحده. ويقاوم الفكر في مقابل ذلك الحياةَ لأنّه غير قادر على الخوْضِ في معترك الكثافات الحياتيّة والمعلومة العصبيّة وضغط الأوردة والتّغيّرَات الهرمونيّة دون أن يصنّفها ويحدّدها كمّيًا ودون أن يفرغها من كلّ شعور حميم في نهاية المطاف. إنّنا كائنات حيّة ومفكّرة في آن، لذلك نحمل في داخلنا علاقة تقوم على توازن مستمّر للقوى بين تنوّعات تنتجها حياتنا وهويّات يفرضها فكرنا. لا وجود لقاضٍ مكلّفٍ بإحلال السّلام بين القّوتيْنِ وقادر على الفصل بحياديّة بين متطلّبات أشكال حياتنا وأشكال أفكارنا: الأمر بأيدينا نحن أنفسنا بما أنّنا نعيش ونفكّر، سيكون علينا الحكم على قيم تحترم حياتنا وفكرنا معًا. وهذا التّحكيمُ ليس إلا نشاطًا

إيطيقيًّا خاصًّا بكلّ نظرة إنسانيّة ذاتيّة أو حتّى بكلّ نظرة حيوانيّة، وكلّ من يحاول جاهدًا الحفاظ على مشاعره دون أن يكفّ عن تخزين خبراته وإخضاع أحاسيسه لأطُرٍ فكريّة. لا يمكننا أن نلتزم بخلاصة ما لكيفيّة العيش ولا لكيفيّة التّفكير إلا إذا أردنا تعنيف الحياة والتّفكير معًا. يُعَدُّ إيطيقيًّا أي شخص يراعي الآخر.

ثمّة خيانتان ممكنتان تحدّان من مجال عمل الإنسان: أمّا الأولى فتتمثّل في تفكيره من أجل الدّفاع عن حياته وأمّا الثّانية ففي العيش وفق فكره الضّيّق. تمثّل الثّانية حكمة الكائن القويّ الّذي ينصّب نفسَهُ في مرتبة أعلى من الأخلاق والمنطق وتمثّل الأولى مبدأ الحكيم الّذي يخضع للحقيقة وحدها. وإنّ هاتين الوضعيّتيْنِ قادرتان في العموم على أن تكونا تعبيرًا عن ذكاء فائق أو حكمة عظيمة، في حين أنّهما تبديان العكس تمامًا: يكفي سوء فهم بسيط للرابط الّذي يجمع بين مبادئ غير متجانسة يتّسم بها كلّ من يعيش وكلّ من يفكّر. فالإنسان القويّ والإنسان الحرّ الذي لا يفكّر إلاّ في توضيح حياته والدّفاع عنها، وهو الإنسان القادر على التّلاعب بالكلماتِ والأفكار ليثبت لنفسه بشكل مخاتل أنّه

على حقّ: سعيًا وراء مصلحته، يقوم بالتّحكم بكلّ ما ينفلت من طريقته في الحياة، فيبحث في الحقائق عن نظيرٍ لحبّه وبغضه، ويعيش حياته مجابهًا للأفكار الكبرى بما يحصل في الواقع بين القوى الحميمة لدوافعه ونفوره ورغباته المُسْتَتَرةِ الّتي لا يمكن تبريرها بالعقل ولا تتمسّك إلا ببنيته وسيرته. إنّه الّذي يتمنّى من العالم المجرّد الّذي يغصّ بالمفاهيم أن يمكّنه من التّوفيق بين أذواقه وطرق عيشها. وإنّه يستخدم الفكر الكونيّ كما يستخدم أيّ عامل مساعد واقع في هامش حياته المُتفرّدة.

أمّا بالنّسبة إلى من يعيش وفق تعاليم فكره، ذاك الّذي يظهر مظهر الحكيم فإنّه يقترف خطأ في ترتيب أولويّاته: إذ يعتقد أنّه قادر على أن يفرض بقوّة إرادته ما يعتبره صالحًا كفكرة كونيّة لتفرّد جسده. وهو من يستمدّ انتصاراته من وراء اختزاله المتدرّج لكثافات وجوده إلى كينونات مجرّدة. فكلّ من يعتقد بأنّه متناغم لأنّه يعيش وفق بعض المبادئ الّتي يستمدّها من فكره يشبه مروّضًا غريب الأطوار يفخر بكونه تمكّن من تعليم قطيع من الحيوانات كيف تتصرّف مثل الأحجارِ، وكلّ من يستخدم فكره لتحويل خصوصيّاتِ شكل

حياته إلى نماذج كونيّة لا ينبغي أن يبدو لنا أكثر مصداقيّة من إنسان عمد إلى نحت بعض الأحجار ثمّ راح يعاملها كما يعامل قطيعًا من الحيوانات الحيّة.

إنّ الحكيم أو المتديّنَ اللّذين يتحكّمان بكثافات الكائن الحيّ لصالح حقائق فكريّة محضة واللّذين يتحكّمان أيضًا بأنصار الإيطيقيا الإلكترونيّة الجديدة وبشكل أعمّ، كلّ من يعتبر مصطلح «أخلاق» مصطلحًا يمثّل ضرورة التّوافق بين المبادئ المجردة وأفعال الحياة الملموسة. لذلك هما يسعيان إلى استخلاص جملة من القواعد الّتي تنتمي إلى عالم حيّ حيث يتكثّف كلّ شيء لفائدة عالم خال من كلّ كثافة. هكذا هي الحياة، لا يمكنها أن تتماشى مع ما ننتظره منها ولا مع ما نفرضه عليها لأنّها لا تستوعب إلا ما هو أكثر أو أقلّ. أمّا تصوّراتنا فإنّها تفرض عليها منطق التّجزئة والهويّات الّذي عادة ما ينتهي بمختلف تصوّراتنا تلك إلى أن تفيض كما يفيض الحبر الملوّن وينتشر على ورقة نشّافة حيث لن تتمكّن تلك الحدود المرسومة بواسطة مِسْطرَةٍ من احتوائها تمامًا. لكن من يرغب في التّعامل عكس ذلك فيحاول ملاءمة أنماط الفكر مع الحركة وتنوّعات الحياة

عليـه أن ينتظر خيبة يمكن توضيحها كالتّالي: لا يمكن للفكر أن يقلّد الكثافات الحسيّة دون أن يدفع ثمن ذلك التّقليد. إنّ الأمـل فـي جعـل الفكر حسّاسًـا ومكثّفًـا يتعامى عـن عواقبه الإيطيقيّـة. وإنّ الفكـر عندما يتّخذ شـكلًا حياتيًـا ينقل بدوره أشـكالًا فكريّـة إلى تلـك الحياة. دائمًا ما تنتهي فكرة شـديدة الكثافة إلى تحييد سـريع للكثافة نفسـها ثمّ تحوّلها إلى هويّة جديدة. كلّ ما يمرّ بالفكر يخرج بشكلٍ من الأشكال متساويًا وبـلا كثافـة. يمكن لكلّ شـيء قابـل للتّصوّر أن يبـدو محدّدًا ومعرّفًا، سـواء كانَ ذلك الشّـيء الشّـجرة ذات الثّمار الذهبيّة الّتي أتخيّلها أو الشّجرةَ الّتي أراها أمامي أو حتّى تباين الضّوء بين مختلف فروعها. من المُؤسـفِ أن تنتهي الحداثة بتحديد الكثافة نفسـها في الوقت الّذي كنّا نسـعى خلاله إلى تكثيف أفكارِنـا ومُثُلِنـا وجعلهـا أكثـر كهربائيّـة وحيويّـة. اعتقـدت الحداثـة أنّهـا تقـوم بفعـل جيّـد، فجعلـت الكثافـة مفهومًـا وموضوعًـا فكريًّا خالصًـا إلا أنّها في الحقيقةِ حرمته من عدم قابليّته للاختزال الوحشيّ.

كلّمـا أكدنـا أكثـر علـى القيمة العليـا لكلّ مـا ينفلت من الكلمـات والأفكار من خلال اسـتخدام الكلمات والأفكار،

استطعنا تحويل تلك الحياة إلى شيءٍ مجرّد وكثافتها إلى مجرد فكرة محايدة. وإنّ الوسيلة الوحيدة الكفيلة بالمحافظة عليها هي تمييزها بالفكر عن الفكر ذاته. وهي أيضًا أن نتمثّل الاختلاف التّرتيبيّ بين ما يخضع للاختلاف والتّنويع أكثر أو أقلّ وكلّ ما يصمد في خضمّ ذلك. فأن نتجرّأ على تأسيس فكر قائم على الاختلاف والتّنويع والكثافة هو بمثابة الحسم المأساويّ في تلك القيمِ والإسراع في فقدانها بجعلها خاضعة لروتين مشاعرنا.

إنّنا مكثّفون لأنّنا نعيش، لكنّنا متساوون لأنّنا نفكّرُ. وإنّ الاعتقاد بأنّنا إذا ما عشنا على هذا النّحو فعلينا نتيجة ذلك أن نفكّر على هذا النّحو، أو إذا ما فكّرنا على هذا النّحو فعلينا إذن أن نعيش على هذا النّحو، هو تماما ما يكسر الضّغط الإيطيقي الذي ينشأ من التّمايز المفاهيميّ الفظّ ولكن الضروريّ بالنّسبة إلى كلّ كائن يفكر انطلاقًا ممّا يشعر به وما يفكر فيه في داخله.

من وجهة نظر الفكر

من وجهة نظر الحياة

من البديهيّ أن تكون الحياة كما الفكر معطييْن متمايزيْن من وجهة نظر فكريّة محضة كما لو أنّهما مفهومان غريبان عن بعضهما البعض. أمّا من وجهة نظر الحياة فإنّ الفكر ليس أكثر من كثافة استثنائيّة من كثافات الكائن الحيّ، وأمّا جزؤنا الّذي يفكّر فليس منفصلا تمام الانفصال عن جزئنا الّذي يعيش والّذي يشعر ويكابد.

ما دمتُ أفكّر في كلّ ذلك، سيكون من المستحيل عليّ ألاّ أفرّق بين ما يهمّ جهازي العصبيّ بدءًا بما يحيط أعصابي وصولًا إلى مركز الأوامر في دماغي، فهو جهاز يستقبل الرّسائل العصبيّة ويحلّلها ثمّ يدمجها وبين العالم الّذي يجعله الفكر متاحًا لي، وهو عالم من الكينونات البسيطة القابلة للتّحديد وإعادة التّحديد والّتي هي موجودة في الواقع. يمكنني أن أحاول التّعامل مع ما أعتقد أنّه يمثّل كثافات متنوّعة وهكذا أتمكّن من محاكاة الحياة في مكوّن من مكوّنات المفهوم كما يمكن أن أتظاهر بالطّيران وأنا

أمشـي. إنّهـا التّحـوّلات نفسـها الّتـي حاولـت ميتافيزيقيّات الكثافة تحقيقها. لكنّ الفكر وإن اتّخذ شكل الحياةِ فسيلوّث قيـم الحيـاة والكثافـات الّتـي أعتقد بأنّها ستخمد سـريعًا أو تُختـزلُ إلى هويّات: فمن شـأن أثر الرّوتيـن أن يُخفّض كثافة الأفكار إلى الصّفر. وهكذا نفهم أنّ الفكر غير قادر على فعل شـيء آخر عدا أن يعـرّف ويميّز ما يعني أن يجـزّئَ الكثافات المُتنوّعـة إلـى كينونات متمايزة لكن متسـاويَة: فبالنّسـبة إلى الفكـر، الحيـاة والفكـر يظـلاّن كمـا همـا دائمًـا مملكتَيْـنِ متنازعتيْنِ.

إذا مـا أردت العيش بشـكل إيطيقيّ فـلا يمكنني أن أفعل شيئًا آخر عدا أن أفكّر بتمايز واختلاف يعادل بين ما هو متساو ومكثّف، بين وضع المفاهيم والحساسيّة، بين ما أكون عندما أفكّـر ومـا أكون عندما أعيش. لكنّنـي بوصفي أعيش فهو أمر يبدو لي بحاجة إلى تمييز أكثر عمقًا: لن أشـعر أبدًا باختلاف نهائـيّ بين ما أشـعر به ومـا أفكّر فيه طالمـا أن كلماتي ومُثُلي تظهـرِان دائمًا في حياتي الحسـيّة، مثل العديد من التّعديلات الّتي تطرأ على أحاسيسي الخاصّة وخبراتي الذاتيّة.

ينبغـي التّوصّـل إلى تصوّر ترابط مضاعف بين المسـتمرّ

والمتقطّع حتّى نحصل على مفهوم مضبوطٍ للإيطيقيا. فأن نعيش هو أن نجرّب الاستمراريّة في الكثافات المتنوّعة، وأن نفكّر هو أن نقطّع العالم إلى كينونات متمايزة. أن نفكّر في الاختلاف بين الحياة والفكر هو أن نميّز بين الحياة والفكر. لكن، أن نعيش الاختلاف بين الحياة والفكر هو خلافًا لذلك أن نشعر بالاستمراريّة والتقّلبات بين الحياة والفكر. في حينِ تتمثّل الإيطيقيا في تنظيم الحياة الفكريّة والفكر المعاش بشكل يمنع كلّ هيمنة قد تبدر من طرف على آخر. ينبغي توضيب مقاومة عنيدةٍ للفكر وفقًا لعفويّة الحياة التّي تفقد طبيعتها ما إن تنغمس في الكلمات وينبغي أيضًا منع الفكر المجرّد من السيطرة على الحياة، وذلكَ بأن نذكّرها في كلّ مرّة بما يجب أن تشعر به وأن نعدها أيضًا بأنّها ستصبح مثله عندما تختار الحكمة أو الخلاص.

للشّعور بالحياة نفسُ ذلك الثّمن فقط عندما نكون كائنات تفكّر.

ينبغي أن نتخيّل أنفسنا على قمّة جبل حادّة، نتمشّى فوقَ تلك القمّة حريصين على عدم الوقوعِ في الفراغِ الإيطيقيّ لا من هذه النّاحيةِ أو من تلك: ثمّة هوّتان تحدّان طريق الوجود

وهما من ناحية إغواء التّفكير في نموذج نعيشه (وهي رغبة الإنسان المكثّف) ومن النّاحية الأخرى إغواء العيش بحسب نموذج أفكارنا (وهو رجاء الحكماء وأصحاب الإيمان وأيضًا -ربّما- أصحاب الوعد الإلكترونيّ).

ليست الحياة الإيطيقيّة هي نفسها الحياة الحكيمة ولا الحياة الكهربائيَّة ولا البحث عن الخلاص ولا السّعي العفويّ وراء الكثافة. إنّها حياة قادرة على عدم الانغماس في كثافتها الخاصّة وعلى عدم السّعي إلى ذلك. إنّها طريق ضيّق يتعرّج عبر كلّ الخطابات، حيث ينبغي على امتداده التخلّصُ دون كلل من أولئك الّذين يدعوننا إلى التّفكير بكثافة ويحثّوننا على العيش أيضًا، محكّمينِ جزءًا فينا على الجزء الآخر ومهدرين أفضل ما يمكن أن يميّز الحياة: ألا وهو قابليّتها للعيشِ. فإمّا أنهم يستنفدونها بتأكيدات ضدّ إنتاجية، وإما أنهم ينكرونها أملًا بشيء آخر. ينبغي تعلّم اختبار تلك الكثافَةِ في المقاومة من أجل تفادي هذه التّأكيداتِ أو ذلك الإنكار فيما يتعلّق بكثافة الحياة: إنّنا لا نشعر حقًّا بالحياة إلاّ باختبار فكريّ مقاوم للحياة نفسها ولا نشعر حقًّا بأنّنا نفكّر إلا باختبار حياتيّ مقاوم للفكر.

قد نكون محظوظين بأن نجد أنفسنا بين دافعين متعارضيْنِ فنظلّ على توازننا بأعلى السّفح.

الحظّ

لا ينبغي على التّفكير، كما حاولنا فعله على مرّ هذا الكتاب، أن يفرض استنتاجات نظريّة على حياتنا. إذ لا تكمنُ الوظيفة الإيطيقيّة لأيّ منطق في إنتاج تأثير مفروض على ذلك الّذي يقرأ لكنّها تكمن في الحفاظ على الفارق الموجودِ بين كلّ ما تميل الحياة إلى الخلط فيه: يمكن للأشياء المصمّمة بشكل دقيق أن تبدو لنا متمايزة لكن متساوية ومتساوية لكن مُتمايزة. ها هنا يكمن أنموذج الفكر. إنّه أنموذجٌ لا يقيّد الحياة ولا يفرض عليها سيطرته بل يكتفي بأن يعرض عليها أفكارا منفصلة ومتساويَة من أجل العيش بمعرفة كاملة بالمسبّبات.

إنّ العيش والفكر أمران متكافئان. لكنّ التفكير الجيّد لا يعني التّفكير بالطريقة نفسها الّتي نعيش وفقها، وأن نعيش جيّدًا أيضًا لا يعني العيش بالطريقة نفسها التي نفكّر وفقها. لا بدّ أن نقاوم إغواء الانسجام. لكن، كيف نعيش إذن؟ إنّنا لم

نطرح مسألة أولويّات التّمييز الإيطيقيّ بين ما نتصوّره وما نشعر به من رغبة حتّى نخضع حياتنا لقانون جديد: الأمر لا يتعلّق بالنّسبة إلينا بتعويض وضعيّتنا الحديثة المنهكة والمتكوّنة من كائنات خاضعة لشروط الكثافة الحياتيّة بخضوع جديد. سنفهم في نهاية هذا البحث أنّنا لا نطمح إلى تحديد محتوى أخلاقيّ وأننا نرفض قطعًا أن نتعامل مع الفكر كما نتعامل مع أيّ سلطة تشريعيّةٍ. على العكسِ من ذلك تمامًا، فها نحن قد تحرّرنا أخيرًا من أن نشرّع باسم الفكر وأن نخضع باسم الحياة، أو أن نأمر باسم الحياة وأن نطيع باسم الفكر. أمّا سؤال: كيفَ نعيشُ؟ فيملكُ إجابة إيطيقيّة وحقيقية واحدة تتمثّل في عدم التّصريح بما يلي: «على شرط العيش بأكبر كثافة ممكنة» لا: «بشكل يجعلنا نكتشف الحقيقة ونفوز بالخلاص أو بالخلود»، لكن: «بطريقة لا تجعلنا نفقد الشّعور بأنّنا كائنات على قيد الحياة». أمّا فيما يتعلّق بماذا نقصد بـ «نحنُ» فهذا سؤال آخر، وهو سؤالٌ سياسيّ وليس إيطيقيًّا. فالإيطيقيا تُعْنَى بتصوّر أفضل طريقة للعيش، والسّياسة تحدّد من يمكن أن يكون موضوعا لذلك العيش. وللإيطيقيا كما نفهمها أن تخصّ فردا كما قد تخصّ جماعة وكلّ الإنسانيّة

وربمّا حيوانات أخرى إلى جانب الكائنات الإنسانيّة، إذ ليس الإنسان الكائن الوحيد القادر على الإدراك والمعرفة.

يمكن للفكر بالنّسبة إليْنا نحن الكائنات الحسّيّة، أن يمنحنا وجهة نظر تخصّ الحياة الطارئة على الحياة والّتي تتيح لنا أن نرغب فيها بشدّة. هكذا نتمكّن من استخدام قدراتنا على التّفكيرِ بشكل إيطيقيٍّ: بشكلٍ لا يجعل الحياة تمرّ كأنّها هفوة أو بداهة لكن بشكل يضفي ولو بعض الغموض على الشّعور بالتّنفّس وبالنّظر إلى الضّوء والظّلال التي تتغيّر بمرور السّاعات وبسماع تردّد الضّوضاء وأصوات الوافدين والرّاحلين، بأن نكون جسمًا عصبيًّا وهرمونيّا وبأن تتراوح مشاعرنا بين الابتهاج والاكتئاب والتّعب والسّلام والانطلاق وبأن نكون متأكّدين من أنّنا لسنا أمواتًا وأنّنا ما زلنا مُقبلين على مزيد من التّغيّر.

ستبدو لنا الحياة شبه معجزة فقط من وجهة نظر عالم الفكر المجرّد: هنالك حيث يمكن لجزئنا المفكّرِ أن يبدوَ مثل غريبٍ فضوليّ وهو يكتشف أرضًا مجهولة لذلك سيسعد بالسكن في ذلك العالم كجسد أمّا جزؤنا الّذي يشعر فهو على العكس من ذلك تمامًا سيتحمّس للانتماء إلى العالم المحسوس كفكرة.

هكـذا نفهـم فـي نهاية هذا البحـث أنّنا غيـر قادرين على تخيّـل طريقة للحفاظ على الكثافة الحياتيّـة الّتي تهمّنا طالما أنّهـا فـي وضعيّة معارضـة للتّفكير وأنّ التّفكيـر معارض لها. فنحن بهذا المعنى لا نتصوّر حياة إيطيقيّة إلاّ من خلال رفض قطعيّ لأفكارنا الّتي عليها أن تتوافق مع طريقة عيشنا وبرفض قطعـيّ لتلـك الحيـاة الّخاضعـة لأفكارنـا العظيمـة. فطبيعتنا الإيطيقيّة تفترض أن نكون أكثر حساسيّة من ذلك.

لنـا أن نعثـر في عالـم الفكر علـى مفهوم «الحـظّ» الّذي يعنـي: ذلـك الّـذي ينتمـي إلـى شـيء لا يسـمح بتجزئته ولا باختزاله ولا بإزالته، الأمر الّذي يجعل من كلّ شـيء مسـاويًا لشـيء مـا، لا أكثر ولا أقلّ من أيّ شـيء آخـر. عندما نتصوّر حظًّـا لكلّ شـيء فإنّنا ندخل عالمًا متسـاويًا بـلا كثافة، عالمًا مقاومًـا للتّنوّعـات الدّائمـة في كلّ ما نعيشـه. يمكننا فقط من خلال هذا التّساوي أن نحصل على مقابل للكثافات التي يتمّ تسـليم وجودنـا إليهـا. سـيكون الخطـأ في أن نسـتخدم ذلك المقابِـل كـي ننكر طبعنـا الملـيء بالحياة عـوض أن نقاومه. وتعنـي المقاومـة فـي هـذا الصّـدد أن نرفض قـول نعم، لكن أيضًـا أن نقـول لا. فـأن نكـون إيطيقيّيـنَ يعنـي أن نصمد، أن

نعارض دفق الحياة المستمرّ بنوع من الثّبات الّذي يمكن أن يُعبَّرَ عنه من خلال الكلمات والأفكار في الهويّات الّتي ننتزعها من أحاسيسنا دائمة الاختلاف. وهكذا يمكن لكلّ فرد أن يأمل في الشّعور بالحياةِ وهو يختبرُ بصفةٍ ملموسَةٍ مُضادًا لجزئهِ المفكّرِ بكثافةٍ مُتدفّقةٍ من إدراكاتِهِ الحسيّة ومن رغباته المتغيّرة ومن كهربائه الدّاخليّة. إذا ما أُقتُلِعَ حاجز الفكر فإنّ التيّار سيجرف كلّ شيءٍ. وسرعان ما تؤدي حركة الحياة المطلقة إلى الشّعور فقط بشيء دائم وجامد وروتينيّ بسبب عدم مقاومتها. في المقابل إذا ما توقّف الفكر وتحكّم ودفع بتدفّق تيّارَ حياتنا فإنّ المياه النشطة ستصبح آنذاك راكدة ثمّ مياها ميتة في النّهاية. لم تعد الكثافة الحيّة شيئًا آخر عدا بركة من الكائنات الرّاكدة، حياة خالدة، حياة تمّ إنقاذها لكنّها تبقى حياة هامدة.

لا شيء أكثر هشاشة من قوّة الحياة. لا بدّ من أن نتماسك ونحنُ واقفون على نتوءات الأفكار والأحاسيس من أجل أن نشعر بالحياة لأطول وقت ممكن، لا بدّ أن نصمد أمام دوار إثبات الحياة دون الوقوع في هاوية انعدامها. فأن نبالغ في إثباتها يعني لا محالة نفيها. لكنّ نفيها لا يؤدّي إلى إثباتها: إنّه

يعني فقط استخدامًا منحرفًا لقوّة الحياة ضدّ نفسها. فالكائن الّذي يحيا ويعيش يخسر دائمًا في حال لم يكن شديد الحساسيّة تجاه التيّار القويّ الّذي يشعر باختراقه له. ينتهي فكره دائمًا بأن يحيّد كلّ ما هو قويّ في كيانه. ها هنا يقع حظّ حياة حسّاسة: وهو الّذي في حساسيّته غير قابل للاختزال إلى أيّ شيء آخر. وها هنا يربض الكنز الحميم لكلّ كائن يشعر بشيء ما، بجوهرة أحاسيسِه، بالجزء الّذي لا ينتمي إلاّ إليه: وتمثّل في الشّعور بأنّه ليس المُراقِبَ الكونيَّ ذلكَ الّذي لا يملك حياة الحيِّ.

ماذا يمكن للحياة أن تفعل أفضل من أن تعمل على مساندة ذلك الشّعور داخلها والّذي يجعلها أكثر حياة؟ هو شعور لا يمكن أن نعد به أحدًا، لكن على كلّ واحد منّا أن يكون قادرًا على أن يتمنّى المحافظة عليه على مرّ الزّمن. لا شيء أكثر كثافَةً بالنّسبةِ إلى الكائن الحسّاس والفطن أكثر من أن يكون قادرًا على التّفكير دون أن يلغي حظّه السّعيد بأنّه بعد على قيد الحياة.



الحياة المكثّفة

هوس الإنسان الحديث

هل هذه حياةٌ جميلة وطيّبة وحكيمة أم مجنونة؟ هل هي سعيدة؟ هل هي حياةُ مجرم أم حياة قدّيس أم ظلاميٍّ قذرٍ أم كائنٍ وضيع أم إنسان عاديّ...؟ لا شيء يهمّ من كلّ ذلك. إذ يبدو أنّ المبدأ الوحيد المسلّم به هو الآتي: مهما كانت دوافع وأعمال هذا الإنسان أو ذاك، ينبغي أن نتساءل إذا ما قد عاش «بعمقٍ» في النّهاية أم لا، قد يبدو تعبيرًا مبتذلًا لكنّه ينصّ بدقّة على ما هو متوقّع منّا. إنّ الخطيئة الوحيدة في كلّ شيء هي أن تتناقص الكثافة. من المحتمل أنّنا كنّا متواضعي التّوهّج. وكان من الأفضل لو كنّا متواضعين لكن بتوهّج.

لم تقل الرّوايات والأفلام والأغاني على مدى القرنين الأخيرين غير الآتي ذكره: «عش! مهما كانت حياتك»، «أحبَّ! مهما كان الّذي تحبّه»، لكن «عشْ وأحبَّ بقدر ما تستطيع!» لأنّه لا شيء مهمّ سيُحتسب لك في النّهاية عدا تلك الكثافة الحياتيّة


ISBN 978-603-91618-2-0



